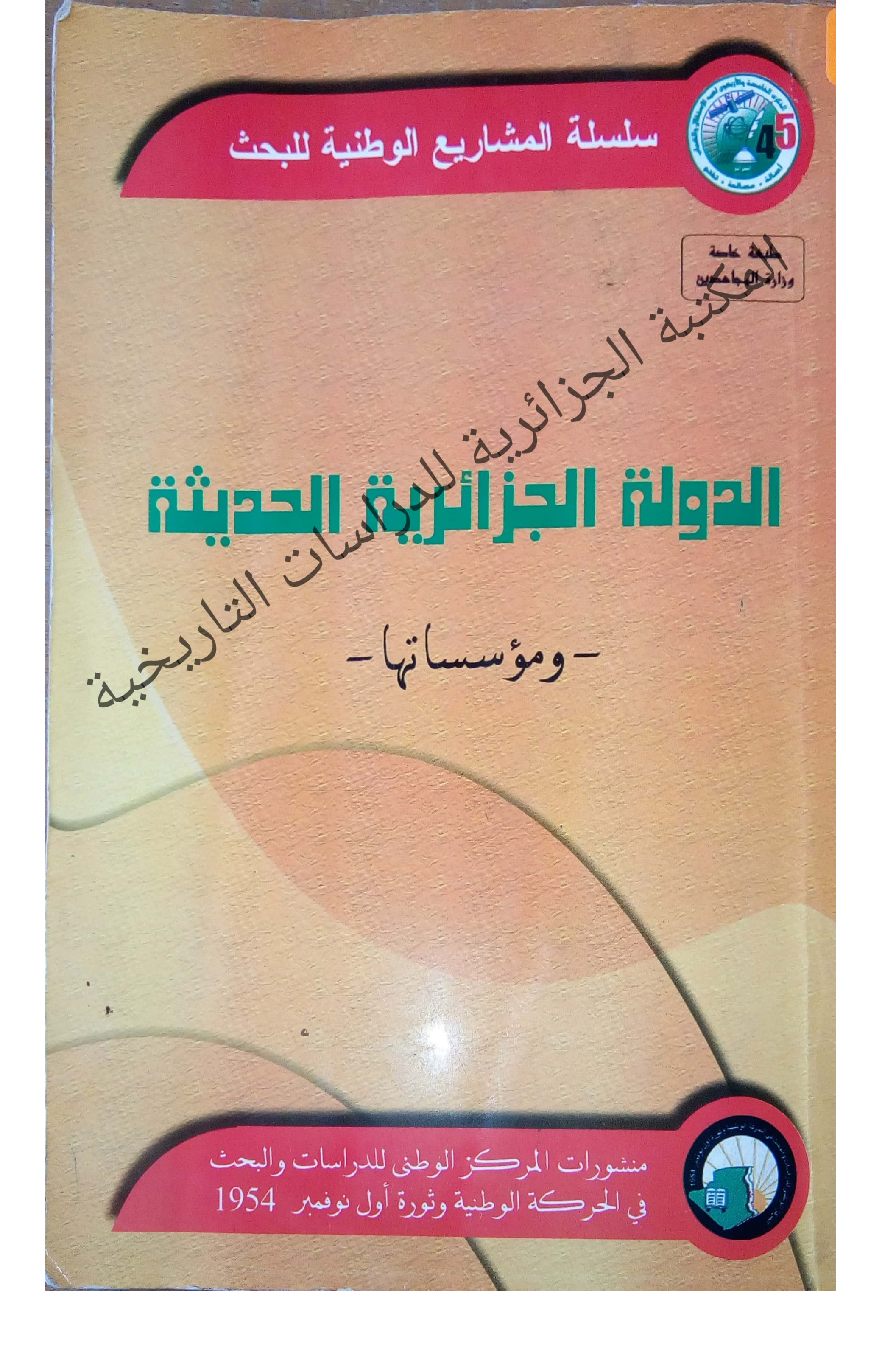


سلسلة المشاريع الوطنية للبحث
طبعة خاصة
وزارة المجاهدين
الدولة الجزائرية الحديثة
-ومؤسساتها-
منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

سلسلة المشاريع الوطنية للبحث



الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها

رئيسة المشروع : الدكتورة عائشة غطاس

الأعضاء :
الأستاذة زكية زهرة
الأستاذة سعدية سرقين
الأستاذة نعيمة بوحمشوش

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 45 لعيد الاستقلال والشباب


منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م

الإيداع القانوني : 2007/1584
ردمك : 6- 34- 846- 9961- 978

Scanned by CamScanner

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين
السيد : محمد الشريف عباس

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقّق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها وعلا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها.

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية.

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة

التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات واحتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال.

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

محمد الشريف عبّاس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة : أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب والمباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد **محمد الشريف عباس**، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون، وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

مقدمة

هذا الكتاب يضم أبحاثا عن الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها. يتعرض في فصله الأول الموسوم بظهور الدولة الجزائرية الحديثة، إلى الأزمة الخطيرة التي شهدها المغرب الأوسط والتي بلغت ذروتها في أواخر القرن الخامس عشر إلى العقد الأول من القرن السادس عشر، وما أفرزته : انحطاط عميق وهجمة إسبانية صليبية. كما يعرض التحولات الحاسمة في أعقاب انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية التي كانت يومئذ حاملة لراية الإسلام في إطار الصراع المحتدم بين العملاقين السياسيين : إسبانيا والدولة العثمانية.

وأما الفصل الثاني منه فيستعرض عبر ثلاثة مباحث النظم السياسية والعسكرية. يحاول المبحث الأول تفسير تطور النظم السياسية على مدى ثلاثة قرون مركزا على دور القوى المؤثرة في الحياة السياسية : الجيش الانكشاري وطائفة رياس البحر. كما يبرز دور الدايات ومساعيهم من أجل إقامة حكم محلي مستقل. وتناول المبحثان الأول والثاني المؤسسة العسكرية بشقيها البري والبحري : الجيش الانكشاري وطائفة رياس البحر. وتركز الدراسة الخاصة بالجيش الانكشاري على دور الجيش الفعال في حفظ الأمن في الداخل والدفاع عن البلاد. كما تتوقف عند الأصول العرقية للجيش و لم تغفل التعرض إلى سياسة الإقصاء التي تبناها الجيش الانكشاري إزاء العناصر المحلية وما نجم عنها. و أما مبحث طائفة رياس البحر فيبرز هو الأخر الدور المميز للطائفة في تطوير البحرية الجزائرية وفي الذود عن البلاد،كما يعطى خصائصها ومميزاتها.

والفصل الثالث يتناول النظم الإدارية المركزية إذ من خلال تطرقه إلى عدد من المؤسسات كالديوان، وعدد من الموظفين يقدم صورة عن آليات التسيير ودقة التنظيم

كمــا يكشـــف عـــن مؤسسة غير معروفة وهي مؤسسة "مشيخة البلد". وكانت التنظيمات الإدارية المحلية موضوع الفصل الرابع و هو يحوي أربعة مباحث يستعرض كـــل مبحـــث التنظيمات الإدارية القائمة والسارية في كل مقاطعة أو بايليك : دار السلطان وبايليك التيطري أو الوسط وبايليك الشرق وبايليك الغرب. وهذا الاختيار المنهجي يفسر بخصوصية كل مقاطعة رغم التقارب والتشابه الكبيرين بينها.

وأفـــرد الفصل الخامس والأخير إلى إحدى أهم المؤسسات الاجتماعية التي أدت دورا بـــالغ الأهمية في المدينة بوجه عام وفي مدينة الجزائر بوجه خاص حيث كانت إحدى الأسس التي ارتكز عليها تسيير المدينة وإدارتها. واستهل الفصل بمبحث خاص بمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين باعتبارها أهم مؤسسة ثم تلاه مبحث تحدث عن أوقـــاف سبل الخيرات الأوقاف المخصصة للأحناف. وتناول المبحث الثالث أوقاف الجامع الأعظم وتعرض المبحث الرابع إلى أوقاف الأضرحة والزوايا...

وبطبـــيعة الحـــال الكـــتاب لا يشمل بالدراسة والبحث كل المؤسسات القائمة بالجزائر وقتئذ مثل المؤسسات التعليمية ومؤسسة القضاء وما إلى ذلك بل ركز على المؤسســـات السياســـية والعسكرية والإدارية وإلى جانب ذلك أعار الكتاب عناية خاصة لمؤسسة الأوقاف نظرا للدور البالغ الذي أدته في مجالات شتى.

والله ولي التوفيق

عائشة غطاس رئيسة المشروع

الفصل الأول

ظهور الدولة الجزائرية الحديثة

إعداد الأستاذة عائشة غطاس

1. أوضاع المغرب الأوسط من أواخر القرن الخامس عشر إلى دخول العثمانيين :

إن ضـعف دولـة الموحدين وانقسامها جعلا المغرب الإسلامي يدخل منذئذ في مرحلة في غاية الخطورة تمثلت في المنازعات والتطاحنات الإقليمية والعائلية على حد سـواء. وتجسـد الـتطاحن الإقلـيمي في رغبة كل دولة في السيطرة على المغرب الإسلامي بأكمله الشيء الذي أدى إلى الاصطدام ببعضها البعض. وقد كانت هذه الحروب استنزافا واضحا لثروات البلاد وجهودا ضائعة.

لقد سعى بنو مرين إلى السيطرة على المغرب الكبير بيد أنهم اصطدموا بالحفصيين الذيـن كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين. وقد عانت بلاد المغرب الأوسط، أي دولة بني عبد الوادي[1]، بحكم موقعها الوسطي من ذلك كثيرا.فكانت تارة تصطدم بالمرينيين وتارة أخرى بالفحصيين، مما جعل الحدود لا تعرف الاستقرار و تكون بين مد وجزر [2].

وكانـت مـن نتائج هذه الحروب المستمرة، أن عمت الفوضى و لم يحل القرن الخـامس عشـر حتى ظهر واضحا عجز ملوك بني عبد الوادي على فرض سيطرتهم على المغرب الأوسط بأكمله [3] ليس هذا فحسب بل لم يتمكنوا من فرض وجودهم بالناحية الغربية و بتلمسان إلا بعسر.

وإذا أردنا أن نلخص الوضع السياسي العام، فيمكن القول إن البلاد انقسمت إلى مجموعـة مـن الإمارات والمشيخات والقبائل المستقلة. فهناك : مشيخة الجزائر التي تتصـدرها قبيلة الثعالبة وإمارة "كوكو" التي تشمل القسم الغربي من جبال القبائل

الكبرى. وأما القسم الشرقي من بلاد القبائل وعاصمته قلعة بني عباس فقد كان تابعا للأمـــير عـــبد العزيـــز الحفصي، ومن ثمة فإن حكم ملوك بني زيان قد اقتصر على تلمسان وضواحيها [4].

إن الانقسام والتفكك اللذان ميزا المغرب الأوسط كان عاما حيث عرفته الدولة المرينية كما عرفته الدولة الحفصية الشيء الذي جعل أحد المؤرخين يكتب ما نصه: " لقـــد انغمست هذه الدويلات في حروب طويلة مزمنة إذ خلال قرن كامل لم يبق لأمـــراء هـــذه العائلات المالكة من السلطة سوى اسمها وكان شغل الملوك الشاغل إحباط المؤامرات والفتن [5] ولخص المؤرخ شارل أندري جوليان هذا الوضع المتردي بقوله : " **إن بلاد المغرب أصبحت عبارة عن فسيفساء سياسية**" [6]

إن هـــذه الأوضـــاع المتردية، والفوضى السياسية العارمة كانت عاملا مشجعا للأطمـــاع الصليبية، ونلمس هذا بكل جلاء، فيما كتبه "فرناندو دي زافرا "الذي كان كاتبا بالبلاط الإسباني ومكلفا بحراسة شواطئ إسبانيا وبمراقبة حركة الأندلسيين المـــتوجهين إلى بلاد المغرب في أعقاب إجراءات الطرد: " **إن بلاد المغرب بأكملها تجـــتاز حالة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد منحها لصاحبي الجلالة** " [7]. يتضمن هذا القول حقيقتين:

الأولى : وصف مطابق للحقيقة ينم عن معرفة دقيقة بالوضع السياسي المتدهور مما يجعلنا نستنتج بدون عناء أن إسبانيا كانت تتابع عن كثب ما يجري في بلاد المغرب.

والثانية : تحريض صريح للاستيلاء على بلاد المغرب.

هذا، بصورة موجزة، وضع المغرب الأوسط خلال الفترة التي سبقت الهجمة الصليبية الشرسة التي استهدفته وهو يلّخص في ثلاث عبارات : تقهقر وفوضى وانحلال.

- الاحتلال الاسباني للشواطئ الجزائرية :

مـــن الأحـــداث الـــبارزة التي عرفتها شبه جزيرة إيبيريا الوحدة السياسية. لقد توحدت اسبانيا المسيحية عام 1474 بعد الزواج السياسي الذي تم بين فرديناند ملك أراغونـــة وبين ايزابيلا وارثة عرش قشتالة عام 1469 وهو الأمر الذي سمح للاسبان بتركـــيز جهودهـــم في محاربة المسلمين بالأندلس، وإخراجهم من أخر معقل وهو غرناطة في 2 جانفي 1492. وفي هذه السنة اكتشف كر يستوف كولومب أمريكا وهو يعتقد أنه قد وضع رحاله ببلاد الهند الشرقية وتمكن البرتغاليون من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح[8].

وعن هذا الاحتلال في التوازن كتب العروي مانصه : "ففي الوقت الذي عرفت فيه إذن بلدان البحر الأبيض المتوسط الغربية النهضة، الاكتشافات العظمى، التوسع الاســتعماري، دخلت البلدان المغربية بنوع من التلازم السلبي في نوع من العصور الوسطى، نبضت في غضونها التجارة وتراجعت الزراعة وتبددت السلطة ..." [9]

تعـــد سنة 1492 سنة حاسمة في تاريخ إسبانيا بوجه خاص إذ كانت يومها تعيش في غمرة النصرين العظميين : نصر على المسلمين بالأندلس ونصر اكتشاف العالم الجديد.

فكـــان مـــن الطبيعي بعد انتهاء حرب الارستداد أو La reconquista أن توجه إسبانيا أنظارها صوب منطقة بلاد المغرب الإسلامي التي تعيش انحطاطا عميقا.

لقد جاء الاحتلال الإسباني عقب سقوط غر ناطة، فهل كان ذلك نتيجة طبيعية له ؟ لاشك أن ذلك الحدث الهام سهل بل شجع عملية الاحتلال. إذ وجدت إسبانيا نفســـها بعد ذلك الانتصار قوية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وجدت نفسها أكثر حرية للتحرك[10]. وللإجابة على السؤال المطروح أعلاه نقول لقد رأت إسبانيا أن نقل الحرب من بلاد المغرب أمر ضروري وإستراتيجي بهدف تطويق بلاد المغرب خوفا من إعادة الكرة. فالإسبان لم ينسوا أن فتح الأندلس كان من المغرب وأن الأندلس

خضـــعت لدولـــة المرابطين، وبعدها لدولة الموحدين. كما أن ثمة حادث كانت له تداعـــياته على السياسة الإسبانية وهو ثورة جبال البشارات عام 1501 التي جعلت الإســـبان يدركـــون خطر الإسلام في بلاد المغرب. فما إن قمعت الثورة حتى كان الكاردينال خيمينيس قد أعد الحملة العسكرية ضد المرسى الكبير[11].

لقد أخذت هذه الحروب، صبغة دينية نظرا للدور البالغ وللمساهمة العظيمة للكنيسة في ذلـــك. "فالبابا" ألكسندر السادس (1492-1503) حث جميع البلاد المسيحية على وضع إمكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك إسبانيا من أجل إبعاد خطر المسلمين حيـــث أصدر أمرا يقضي بدفع الضريبة الصليبية Crusada لتمويل الحرب ضد المسلمين. وكـــان الكارديـــنال خيميـــنس بمثابة المهندس والمشرف على ذلك [12]. كما أن الملك الإســـباني فرديـــناند الكاثولـــيكي الذي أشرف على هذه العملية كثيرا ما ردد في مناسبات عدة أنه يعمل "من أجل خدمة الله وأنه يحارب أعداء الدين" [13].

أمـــا الملكـــة ايزابيلا التي أدت دورا أساسيا في تحطيم بلاد الأندلس فقد نادت بضرورة مواصلة الحرب ضد المسلمين حيث تركت قبل وفاتها وصية في ذلك الشأن: **"علـــيكم بفتح افريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار "** [14]. هـــذا ما جعل عدد من المؤرخين يضفون صبغة الصليبية على تلك الحروب فالمؤرخ الفرنسي بروديل ينعتها **"بالصليبية الإسبانية في إفريقيا"** [15].

ومن الذرائع التي ذكرها المؤرخون الغربيون ذريعة محاربة نشاط البحارة المسلمين وبخاصـــة بعد التحاق عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الذين كانت لديهم دراية ومعـــرفة جيدة بالشواطئ الإسبانية [16]. وإذا كانت الأسباب متعددة ومتداخلة بين الديـــني والدنـــيوي فـــإن طموح إسبانيا في تكوين إمبراطورية، بعد نشوة الانتصار وتزعمها لحركة الكشوفات الجغرافية، لا يمكن إغفاله.

ولعـــل ما زاد في تشجيع إسبانيا للخوض في هذه الحرب حالة الانحطاط العميق الذي كانت تعيشه بلاد المغرب الإسلامي مثلما أسلفنا الإشارة إليه، وبالإضافة إلى ذلك عدم معرفة المغاربة لاستعمال الأسلحة الحديثة. إن هذين العاملين جعلا إسبانيا لا تخشى كثيرا رد الفعل المغربي[17].

كانـــت أول نقطة احتلها الاسبان على الساحل المغاربي مدينة مليلة عام1497. وعقـــب ذلـــك وجهوا أنظارهم صوب الشواطيء الجزائرية، بعدما أبرمت معاهدة Tordesillsas في 7 جـــوان 1494 التي بمقتضاها تم تقسيم مناطق النفوذ بين البرتغال وإسبانيا. واعترفت هذه المعاهدة بأحقية إسبانيا في احتلال الجزء الشرقي من ساحل المغـــرب الشاملي "فكل ما هو شرق حجر بادس لإسبانيا" ليس هذا فحسب بل إن إســـبانيا طلبـــت من البابا "اسكندر السادس" منحها براءة يأذن لها فيها بالتوسع في إفريقيا أي بالسواحل المغربية. وقد باركت البابوية ذلك في 12 نوفمبر 1494 بما يلي " **إلى أرواح الذين سيشاركون بأموالهم وأرواحهم في عمليات الغزو**"[18].

ومـــن المؤكد أن الإعداد لهذه الحملة الصليبية قد تطلب إعدادا طويلا وإمكانات كـــبيرة : الوقـــت والمال والرجال. فمن الممون لهذه الحروب ؟ على الرغم من أن الخزيـــنة الإسبانية كانت عاجزة عن تجهيز الحملة، فقد تطوع الكادينال **خيمينيس** بأموالـــه الخاصـــة و أعانـــته الكنيسة، فقد باع القساوسة والرهبان ذخائر وكنوز الكـــنائس الثميـــنة. كما لا ننسى أيضا مساهمة الأفراد من خلال الضريبة الصليبية CRUSADA إذ أصدر البابا أمره السامي بمواصلة دفع الضريبة.

كانت أول نقطة احتلها الاسبان بالمغرب الأوسط هي المرسى الكبير وهو موقع له أهمـــية بالغة منذ زمن بعيد إذ نظرا لأهميته سماه الرومان" المرسى **الرباني**" [19]. وكان الهـــدف من وراء احتلاله ضمان أمن أسطولهم. انطلق الأسطول الاسباني من مدينة مالقـــه يوم 29 أوت 1505 بقيادة دون ريمون دي قرطبة على رأس 5000 رجل.

لكن الرياح المعاكسة أخرت وصوله إلى نهاية 11 سبتمبر 1505. وكان هذا التأخر لصالح الاسبان، فبعد ما انتظر المرابطون الذين اتخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع طويلا غادروا المكان، فلم يجد الاسبان سوى حامية صغيرة، تتشكل من خمسمائة جندي. ويؤكد المؤرخون أن حصار الاسبان للمرسى الكبير دام خمسين يوما، ولم يستسلم السكان إلا بعدما يئسوا من نتيجة المعركة[20]. وبعد مرور عامين على احتلال المرسى الكبير حاولت إسبانيا التوغل في الداخل فوجهت حملة عسكرية إلى منطقة مسرغين في 6 جوان 1507 لكنها منيت بهزيمة نكراء فسارعت على إثرها إلى تعزيز قواتها المرابطة بالمرسى الكبير. وتجدر الإشارة إلى أن الانتصار الساحق الذي حققه الجزائريون في هذه المعركة قطع على الاسبان أمل التوغل في الداخل.

بعد أن أصبح للاسبان قاعدة يرتكزون عليها جاء دور مدينة وهران. لقد انطلق الأسطول في 16 من ماي 1509 من ميناء قرطاجنة، وكان قوام الحملة 15 ألف جندي بقيادة "بيدرو نافارو"[21]. إن أكبر مجزرة اقترفها الاسبان كانت بمدينة وهران، بعد أن ساعدتهم في ذلك خيانة اليهودي اشطورا الذي كان قابض المكوس، حيث فتح أبواب المدينة للأسبان الذين خربوا ودمروا وفتكوا إذ قتلوا نحو 4000 وأسروا نحو 8000 كما حولوا مسجدين إلى كنيستين. وباحتلال الإسبان لمدينة وهران تمكنوا من احتلال موقعا استراتيجيا في بلاد المغرب الأوسط. ونتيجة هذا الانتصار اعترف السلطان الزياني بنوع من التبعية لإسبانيا[22].

كما أصبح عدد من القبائل القاطنة بوهران وضواحيها خاضعا للإسبان بل وفي خدمتهم وكانوا أعوانا أساسيين لهم ومن أشهرها قبيلة بني عامر[23].

ومن الساحل الغربي، وجه الاسبان أنظارهم صوب الساحل الشرقي فكان احتلال مدينة بجاية وكانت أوضاعها السياسية مساعدة للغاية نتيجة الصراع العائلي

لكن الرياح المعاكسة أخرت وصوله إلى نهاية 11 سبتمبر 1505. وكان هذا التأخر لصـــالح الاســـبان، فبعد ما انتظر المرابطون الذين اتخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع طويـــلا غادروا المكان، فلم يجد الاسبان سوى حامية صغيرة، تتشكل من خمسمائة جـــندي. ويؤكد المؤرخون أن حصار الاسبان للمرسى الكبير دام خمسين يوما، ولم يستســـلم الســـكان إلا بعدما يئسوا من نتيجة المعركة [20]. وبعد مرور عامين على احتلال المرسى الكبير حاولت إسبانيا التوغل في الداخل فوجهت حملة عسكرية إلى منطقة مسرغين في 6 جوان 1507 لكنها منيت بهزيمة نكراء فسارعت على إثرها إلى تعزيـــز قواتها المرابطة بالمرسى الكبير. وتجدر الإشارة إلى أن الانتصار الساحق الذي حققه الجزائريون في هذه المعركة قطع على الاسبان أمل التوغل في الداخل.

بعـــد أن أصبح للاسبان قاعدة يرتكزون عليها جاء دور مدينة وهران. لقد انطلق الأســـطول في 16 من ماي 1509 من ميناء قرطاجنة، وكان قوام الحملة 15 ألف جـــندي بقـــيادة "يـــبدرو نافارو" [21]. إن اكبر مجزرة اقترفها الاسبان كانت بمدينة وهران، بعد أن ساعدتهم في ذلك خيانة اليهودي اشطورا الذي كان قابض المكوس، حيـــث فتح أبواب المدينة للأسبان الذين خربوا ودمروا وفتكوا إذ قتلوا نحو 4000 وأســـروا نحـــو 8000 كما حولوا مسجدين إلى كنيستين. وباحتلال الإسبان لمدينة وهـــران تمكـــنوا من احتلال موقعا استراتيجيا في بلاد المغرب الأوسط. ونتيجة هذا الانتصار اعترف السلطان الزياني بنوع من التبعية لإسبانيا[22].

كمـــا أصبح عدد من القبائل القاطنة بوهران وضواحيها خاضعا للإسبان بل وفي خدمتهم وكانوا أعوانا أساسيين لهم ومن أشهرها قبيلة بني عامر[23].

ومـــن الســـاحل الغـــربي، وجه الاسبان أنظارهم صوب الساحل الشرقي فكان احتلال مدينة بجاية وكانت أوضاعها السياسية مساعدة للغاية نتيجة الصراع العائلي

القـــائم حــــول الحكم. وقد أعد وجهز الحملة الكاردينال خيمينس أيضا، وأسندت القيادة إلى "بدرو نافارو". وفي 1 جانفي أقلع الأسطول الذي كان يشمل عشر سفن كـــبيرة تحمل على متنها عشرة آلاف رجل وتعززهم مدفعية ضخمة وآلات عديدة وســـلاح وفير. وكان وصول الأسطول أمام مدينة بجاية في 5 جانفي 1510، و قد أبــدى ســـكان المدينة دفاعا مستميتا وكان رد الفعل الإسباني شنيعا حيث ارتكبوا مجزرة فقد ذبّح أثناء المعركة نحو 4100 وعاث الجيش الإسباني فسادا في المدينة التي هاجرها أهلها [24].

فما هو وضع بقية الموانئ ؟ هل تعرضت الى حملات عسكرية مماثلة، أو هل نجت مـــن الاحتلال ؟ عقب سقوط بجاية سارعت الموانئ الأخرى إلى الرضوخ للاحتلال الإسباني بل إن مدينة تنس مثلا فضلت الخضوع قبل احتلال ميناء وهران.

أمـــا مدينة الجزائر فقد توجه حاكمها سالم التومي في 31 مايو إلى بجاية ووافق عـــلى تســـليم الاسبان أحد الجزر وأكبرها والتي بنوا عليها ما أشتهر ببنيون الجزائر Penon de Argel كما التزم بدفع ضريبة الولاء. هذا وذهبت بعض الروايات إلى أن بـــدرو نافـــارو اشـــترط على سالم التومي التوجه إلى إسبانيا لإعلان فروض الولاء والطاعة والالتزام بتنفيذ شروط المعاهدة أمام الملك [25]. وأضحت مدينة الجزائر منذئذ تحـــت التهديد المستمر من طرف الإسبان. أما مدينة عنابة فقد احتلها "بدرو نفارو" عـــنوة أثـــناء طريقه إلى تونس وترك بها حامية عسكرية ثم واصل طريقه نحو تونس ومـــنها إلى طرابلس التي احتلها رغم شدة المقاومة في يوليو 1510 ثم أعلنت مدينتا دلس ومستغانم ولاءهما والتزمتا بدفع الضريبة إلى إسبانيا عام 1511 [26].

هكـــذا إذن اســـتطاعت إسبانيا وفي ظرف قصير للغاية 1505-1511 أن تطوق الســـاحل الجزائـــري عـــن طريق احتلالها لنقاط استراتيجية. وفي ختام حديثنا عن الاحتلال الإسباني هناك سؤال يطرح نفسه بإلحاح وهو : كيف يفسر اكتفاء إسبانيا

باحتلال الشواطئ فقط؟ بعبارة أخرى هل كان لإسبانيا مشروع احتلال شامل للجزائر؟

يـرى بروديل أن الملك فرديناند فضل سياسة الاحتلال الجزئي عن طريق إنشاء محميات Presidios لأنه كان منشغلا في المقام الأول بإيطاليا أي أن الحروب الإفريقية كانـت في المرتـبة الثانـية[27]. وذهب **كازناف Casenave** إلى أن إسبانيا جهزت الأساطيل الضخمة و أعدت القوات الكبيرة غير أن المشروع أخفق، لأن الإسبان لم ينجحوا في التوغل في الداخل وفي إخضاعه، ومن ثمة لا يمكن الحديث عن "استعمار إسـباني" [28] على حد تعبيره. أما **"جوليان"** فقد ذهب إلى القول أن خيمينيس نفسه لم يضع مشروعا للاحتلال الكلي وفي الوقت ذاته يقر بأن التدخل التركي –العثماني غـير المنتظر زاد وضع الحاميات الإسبانية سوءا ليس هذا فحسب بل أدى إلى فشل وإخفاق سياسة إسبانيا الإفريقية [29]. وأما روف **Ruff** فقد ذكر أن الإسبان لم تكم لديهم أية سياسة:

«Les espagnols en Afrique n'ont su être ni des colonisateurs ni des conquérants; c'est qu'il ont suivi une politique le jour le jour, sans grandeur et sans résultats» [30]

رد الفعل المحلي :

دور الطرق الصوفية

إن إحـدى الخصائص المميزة للقرنين الخامس عشر والسادس عشر بروز العلماء ورجـال الديـن كقوة مؤثرة على الأحداث السياسية [31]. ومن أبرز الطرق الدينية وقتئذ الطريقة القادرية [32] والطريقة الشادلية [33].

ويظهـر أن الزوايا والربط انتشرت بشكل ملفت للنظير وفي هذا الشأن كتب أحدهم ما نصـه : "*ففـي هـذه القرون التي أعقبت تفكك الموحدين وسقوط دولتهم ... وعرف المغرب أبانها الأطماع الأجنبية سرت في جميع أرجائه روح غريبة جعلت الشعب يقبل إقبالا لم يعرفه من قبل على أمور الجاهلة وينخرط في الزوايا والربط ويؤمن بالأولياء ...* [34]".

وقد أخذ رجال الدين والمرابطون على عاتقهم مهمة التصدي للخطر الخارجي والدفاع عن الشواطئ أمام تدهور السلطة المركزية وعجزها عن القيام بأي دور. وأنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العلماء قد دقوا ناقوس الخطر الدّاهم قبل سقوط الموانئ فقد ألف العالم الفقيه الشيخ عبد الرحمن الثعالبي [35] رسالة في الجهاد حث فيها أهل مدينة الجزائر على الجهاد جاء فيها : " *... ولو اطلعتم على ما اطلعت عليه من التحريض لما وسعكم أن تشتغلوا من أمور **مهامكم بعد** الصلاة إلا بآلة الجهاد ...* " [36]. كما راسل أهل بجاية وحثهم على الجهاد وحذرهم من مغبة التهاون.

كما نظم الشيخ العالم محمد التواتي[37] قصيدة نبه فيها الأهالي بخطر الغزو المسيحي للسواحل وبعدم الاعتماد على ملوك وأمراء ضعاف مثلما نقرأه في الأبيات التالية :

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة　　لبلدتكم من قبل أن تتردى

فلا تهملوا أمر الأعادي فانهم　　بحال اجتماع واتفاق وشدة

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم　　ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة [38]

الاستنجاد بالعثمانيين :

في تلك الأثناء ذاعت أصداء الاخوة بربروسة في الحوض الغربي للمتوسط في إطار مساعدة البحارة العثمانيين لمسلمي الأندلس عقب سقوط غر ناطة [39].

وحول أصل الاخوة ذوي اللحية الشقراء -وهي صفة أطلقها عليهم المؤرخون الغربيون- هناك اختلاف بين المؤرخين، على أن الاحتمال الأكثر تواردا هو أن والدهم كان من بقايا الجيش العثماني الذي فتح بلاد اليونان و من العناصر الإسلامية – وتذهب بعض الروايات إلى أن والدهم كانت من أصل أندلسي [40].

وكـــانوا في بـــادئ الأمـــر أربعة اخوة وهم : إسحاق وخسرف أوخير الدين وعـــروج ومحمد إلياس. وكان والدهم يعقوب يمتهن صناعة الخزف في جزيرة ميدلي المعروفة "بليسبوس" قديما. وبينما اختار الأخ الأكبر طريق العلم فضل الاخوة الثلاثة ركـــوب البحر، ولم يكن عمر عروج يتجاوز العاشرة إلا قليلا، وسرعان ما جهز مركـــبا خاصـــا به. لكن ركوب البحر وقتذاك وعبر التاريخ – محفوف بالأخطار وخاصـــة خطـــر السقوط في أيدي الأعداء وهذا ما وقع لعروج الذي أسره فرسان القديـــس يوحنا مدة سنتين ذاق خلالها مرارة الأسر وقسوة العمل في التجديف [41]. وكانـــت تجربة رغم مرارتها؛ ذات أهمية بالغة حيث استفاد منها في حياته البحرية. ويبدو أنه بعد نجاته من الأسر عن طريق الفرار دخل في خدمة الأمير العثماني قرقود أو قـــرقط غير أنه بعد هزيمة هذا الأخير، في صراعه مع أخيه سليم [42] هرب الاخوة غربا واستقر بهم المقام في تونس. ووقع اختيارهم في بادئ الأمر على جزيرة صغيرة، وهـــي جزيـــرة جربة فاتخذوها قاعدة لهم لمساعدة الأندلسيين. ويبدو أن السلطان الحفصي أبا عبد الله محمد رحب بهم لأنه كان يريد الاستعانة بهم ضد الاسبان وسمح لهـــم باستخدام ميناء حلق الوادي [43]. ومنذئذ أصبح للاخوة قاعدة بحرية، وبفضلها ضـــمنوا لأنفسهم موقعا استراتيجيا حيث حصلوا على موقع قريب من طرق الملاحة الـــتي كانـــت تعبر بجزيرة صقلية ونجحوا في تكوين أسطول يضم اثنتا عشرة سفينة وألف رجل.

وفي عام 1512 أي بعد مرور سنتين على احتلال مدينة بجاية شكل علماء وأعيان بجايـــة وفدا لمقابلة عروج ليطلبوا منه إنقاذ المدينة ومساعدة الأمير عبد الرحمن على استرجاعها. وعلى إثر ذلك لبى الاخوة النداء وساروا على رأس جيش صغير لمحاصرة المديـــنة. وبعـــد حصار قصير أرغم الاخوة على التراجع والعودة إلى تونس.وكانت نتائج هذه المحاولة أليمة بالنسبة لعروج الذي فقد أثناءها ذراعه. ورغم فشل المحاولة

إلا أنها كانت بداية الاحتكاك بين الطرفين، فمن ناحية تعرّف الأهالي على شدة بأس هـؤلاء الـرجال وعلى رأسهم عروج وخير الدين، وكانت فرصة لتوحيد وتنسيق الجهـود بـين الجزائريين والأخوة بربروسة، ومن ناحية أخرى كانت إنذار بالخطر بالنسـبة للإسـبان. وأدرك عـروج عقب هذه الهزيمة أن محاصرة مدينة بجاية وهو بقاعدته البعيدة حلق الواد أمر صعب، فقرر الانتقال منها إلى جيجل. وكانت يومئذ مدينة صغيرة وقاعدة تجارية للتجار الجنويين، الذين يعود استقرارهم بها إلى 1260 [44] وبعـد معـركة عنيفة وقاسية تمكن عروج من اقتحام المدينة وكان هذا أول انتصار ساحق حققه عروج وأضحت جيجل منذئذ قاعدة انطلاق جديدة في حدود 1513. ومـنذ الوهلة الأولى انظم إليه الأهالي بأعداد هائلة عارضين عليه خدماتهم من أجل توحيد الجهود. وبعد فشلهم في الحصار الأول استأنف الاخوة الغزو البحري ورأوا أنه من الأفضل لهم إخبار السلطان العثماني بما يجري ببلاد المغرب عن طريق الجغرافي "بيري رئيس" أحد البحارة العثمانيين كان ينشط في سبيل مساعدة الأندلسيين" [45]، فبعـثوا إلى السـلطان بهديـة مرفقة برسالة عرضوا فيها أوضاع بلاد المغرب، كما أخبروه بالصعوبات التي تواجههم من أجل إنقاذ مسلمي الأندلس. فرحب السلطان بذلك، وأمدهم بالعدة والعتاد إذ زودوهم بعدد من السفن وبالرجال وبكميات من السـلاح. وغدا هؤلاء الأخوة يحظون بمساندة إمبراطورية بأكملها وهو الأمر الذي زادهم تصميما على شن الحملة الثانية من أجل تحرير بجاية[46].

لقد أصبح الوضع مختلفا تماما عما كان عليه في السالف. حيث استطاع عروج أن يجند جيشا منظما وقويا إذ بلغ 20 ألف محارب كما أصبح يتمتع بمساندة الجميع من علماء وغيرهم وبمؤازرة ابن القاضي أيضا وبعد محاولات متكررة خلال ثلاثة أشهر، رجـع عروج من جديد إلى جيجل. ففكر في تغيير الخطة فقرر محاصرة المدينة "برا وبحـرا" واسـتعمال نهر الصومام لمحاصرة المدينة من كل الجهات. ويبدو أن المحاولة كـادت أن تنجح لولا تخاذل السلطان الحفصي الذي امتنع عن مدهم يد المساعدة

سيما تزويدهم بالبارود. ومما زاد الطين بله و اثبط العزائم استشهاد محمد إلياس.

وفي 23 يـــناير 1516 عقب وفاة ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي رأى سكان مديـــنة الجزائر أن الفرصة قد حانت لإلغاء العمل بالمعاهدة والتخلص من شروطها المهيـــنة ومـــن الحصـــن الذي كان على حد تعبير صاحب الغزوات "كالشوكة في قلوبهم" [47].

فســـار خـــير الدين بقوة تضم 16 سفينة صغيرة "من نوع الغليوطة " على متنها خمســـمائة رجل مسلحين فضلا عن ثلاثة آلاف جندي من جيجل وضواحيها. وما إن وطـــأت أقدام عروج مدينة الجزائر حتى تصدى لتحرير الحصن الأسباني فنصب عـــددا من المدافع في اتجاهه وبدأ في مهاجمته إلا أن ضعف المدفعية حال دون تحقيق أي نجاح وكاد ذلك أن يقضي على سمعة عروج [48].

وقـــد أثار عزم وطموح عروج مخاوف سالم التومي الذي بدأ يشعر بأن زمام الأمور قد أفلت من يده وأنه لم يعد له أي شأن، فسعى لإحاكة الدسائس عن طريق الإستعانة بالإسبان لطرد الإخوة – ففطن عروج لذلك وقضى عليه في ظروف غامضة. ورغم فشله في طرد الإسبان من الحصن إلا أنه واصل في مضايقة الحامية الإسبانية المقيمة بالصخرة. فقام بحراسة العيون التي كان يتزود منها الإسبان، حتى أجبروا على جلب الماء من جزيرة مايورقـــة. ثم انـــتقل عروج إلى تعزيز تحصينات المدينة. ولا شك أن هذه الأعمال جعلت سكان مدينة الجزائر يلتفون حوله ويبايعونه [49].

لكـــنه سرعان ما أثار مجيء الأخوين إلى مدينة الجزائر، وتحركاتهما مخاوف وقلق إســـبانيا الـــتي كانـــت شديدة الحرص على عدم ضياع حصن البنيون نظرا لموقعه الإستراتيجي. فقررت كسر شوكة هذه القوة الجديدة بتوجيه حملة عسكرية أسندت قـــيادتها إلى Diego de verra وهو من أقدر القادة العسكريين. وكان قوام الحملة : 35 محـــارب وثلاثة آلاف 3000 رجل[50]. ويبدو أن الأسبان في هذه الحملة كانوا

يعـــتمدون على خيانة أطراف محلية منها أنصار سالم التومي، حيث استنجد ابن هذا الأخـــير بالإسبان بعد مقتل أبيه من جهة، وعلى إعانة شيخ تنس من جهة أخرى إذ كـــان هـــذا الأخير على اتصال بحاكم وهران ووعده بتقديم مساعدة هامة في حالة هجوم الإسبان. وبعد يومين، من عملية الإنزال هاجم عروج الجيش الإسباني وألحق بـــه هزيمة نكراء تكبد خلالها خسائر قدرت بـــ : 3000 قتيل و 800 أسير، وأكد هذا الانتصار نفوذ عروج بالمدينة [51].

في غضـــون تلـــك الأحداث كانت تلمسان تعيش تطاحنا عائليا من أجل الملك حيث كان الصراع على أشده حول السلطة؛ إذ زج السلطان أبو حمو الثالث الذي — أعلـــن ولاءه وتبعيـــته للحامية الإسبانية بوهران منذ 1511 م — بابن أخيه : أبو زيـــان في الســـجن. لقد دفعت هذه الأوضاع بأبي زيان وسكان المدينة بالاستنجاد بعـــروج. وحاول جيش أبي حمو الحيلولة دون دخول عروج تلمسان فسار لملاقاته والـــتقى الجيشان بسهل سيدي بلعباس وهزم "أبو حمو" الذي لاذ بالفرار إلى وهران حيث احتمى بالإسبان.

ودخـــل عروج تلمسان ونصب أميرا إلا أنه سرعان ما أخذت الأحداث مجرى أخـــر حيـــث اغتيل أبو زيان وعدد هام من أفراد عائلته واستولى عروج على القلعة المشـــور. فســـارع حينـــئذ القائد الإسباني حاكم وهران إلى التدخل بجيش قوامه 10.000 جـــندي لاســـترجاع تلمسان ولإعادة تنصيب أبي حمو الثالث [52]؛ إذ أن وجـــود عروج بتلمسان أصبح يشكل خطرا عليهم لسببين أساسيين : أولهما تهديده للحامـــيات الإســـبانية، ســـيما وهران، ثانيهما قرب تلمسان من سواحل إسبانيا الجنوبـــية. لقـــد سار الجيش الإسباني أولا إلى قلعة بني راشد حيث كان يرابط بها إســـحاق، فقضوا على القاعدة وعلى من فيها. ثم توجهوا إلى تلمسان فضربوا عليها حصارا طويلا مدة ستة أشهر تضرر أثناءه عروج ورفقاؤه كثيرا حيث قلت ذخيرته

وتناقص عدد رجاله فقرر عندئذ اختراق الحصار ليلا لكنه لقي حتفه قرب نهر المالح في صائفة 1518 [53]. وبوفاته تفقد الجزائر أحد الأبطال. وحينما توفي عروج كانت هاته القوة الفتية قد حقق انتصارات عدة بل يمكن القول أنها وضعت الأسس الأولى للكـــيان السياسي الجديد إذ تم مد النفوذ بالمنطقة الوسطى والغربية حيث أخضعوا سهل متيجة وسهل الشلف ومنطقة التيطري والونشريس.

خير الدين بربروسة وانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية :

وجد خير الدين نفسه بعد مقتل أخيه في موقف حرج للغاية فقد أدرك في الحال ضـــعف موقفه السياسي ومركزه الحربي. فالأعداء يحيطون به من كل جانب. ففي الغرب بقايا بني زيان في تلمسان و حلفاؤهم الإسبان بوهران وفي الشرق بنو حفص والإســبان وكـــان كل طرف يسعى للإطاحة به. ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة وعريضة كشعبية أخيه، إذ لم تكن له علاقات برؤساء القبائل فضلا على أنه واجـــه نقصـــا في السلاح والعتاد. وهو ما وصفه لنا صاحب الغزوات أثناء تدوينه لـــلحوار الذي دار بين خير الدين وأعيان مدينة الجزائر : "**...أنا بقيت في بلادكم مـــنفردا غريـــبا لا ناصر لي ولامعين، وقد رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان وما أجلـــب بـــه علينا من النصارى ...**" [54] ولا ريب أن الوضع الصعب الذي أصبح عليه خيرالدين دفع به إلى التطلع صوب الشرق ففي هذه الأثناء كانت الإمبراطورية العثمانـــية في أوج توسعاتها، فبعد صراع مرير مع الإمبراطورية البيزنطية استطاعت تحقـــيق انتصار ساحق بفتحهم للقسطنطينية عام 1453 على يد **محمد الفاتح** [55] ثم توالـــت انتصـــارات الجيش العثماني حيث حققوا انتصارا ساحقا ضد الفرس عام 1514، ثم في سوريا 1515، ثم في مصر عام 1517 [56].

وبعـــد مـــرور سنتين على تلك الانتصارات وجه أعيان مدينة الجزائر رسالة إلى الســـلطان سليم الأول يناشدونه فيها الحماية والانضمام إلى الدولة العثمانية. وتعد

هـــذه الرســـالة أول وثيقة في تاريخ العلاقات بين الطرفين، ومما جاء فيها : "**ومفاد مايـــريد عبـــيدكم إعلامـــه لمقامكم العالي هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جـــنابكم العـــالي. إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لايـــرتحل خوفـــا مـــن الكفار إذ هدفهم هو النيل منا، ونحن على غاية الضعف والبلاء ...** ".[57]

ونجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها، إذ سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بايلر باي إلى خير الدين. وهي رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية وسياسية واســعة ومتشعبة. كما تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلا للسلطان. وكـــان مـــن مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمهـــا خير الدين في ذلك الوقت والتي قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه في قابل الأيام تصبح تحت السيادة العثمانية وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية[58].

أدت تلـــك التطورات إلى تخوف القوى المحلية والإقليمية على حد سواء من هذا الـــنفوذ الجديد. فخير الدين الذي انتصر على نائب ملك صقلية هيقو دي مونكادة Hugo de Moncada في صائفة 1519 أضحى باعتباره ممثلا للسلطان العثماني يستند إلى أعظم قوة وقتذاك.

فـــلم يحـــل عام 1520 حتى كان الاضطراب الذي أثاره الطموح والمنافسة على الملـــك. وتذهـــب بعض الروايات إلى أن تمرد ابن القاضي أمير كوكو[59] يعود إلى تحـــريض السلطان الحفصي الذي استغل الموقف الجديد واقنع ابن القاضي بضرورة طرد العثمانيين. وكان رد فعل خير الدين في بادئ الأمر عنيفا حيث وجه وحدة من المشاة مزودة بالأسلحة النارية لمواجهته. وحاربه حربا مريرة بجبال القبائل اضطر على إثرها ابن القاضي إلى الالتجاء إلى عنابة حيث تلقى هناك مددًا عسكريا من السلطان

الحفصي في حين جاء في رواية أخرى، أن اتفاقا مسبقا وقع بين ابن القاضي والسلطان الحفصي[60].

ولم يكن خير الدين وقتذاك يثق كثيرا في ولاء الجميع فرفض المغامرة وقرر المحافظة على وحدة قواته بدلا من المخاطرة بحصار طويل وضعيف للجزائر مما جعله يتخلى عن عاصمته ويعود إلى قاعدته جيجل[61]. ولم يتدخل السلطان العثماني سليمان القانوني لإنقاذ الموقف -ففي غضون هذه الأحداث- كان منشغلا في جبهات مختلفة ما بين 1520 و 1529 احتلت الجيوش العثمانية بلغراد عام 1521 ورودس عام 1522[62].

حسن آغا [63] خليفة خير الدين :

تتضارب المصادر حول تحديد فترة حكم حسن آغا [64] لكن الشيء المؤكد هو أن خير الدين لدى مغادرته لمدينة الجزائر – لما استدعاه السلطان العثماني- وقع اختياره على رجله المفضل، ومحل ثقته وهو حسن آغا، ليدير شؤون البلاد في غيابه، فعينه خليفة له لذا بعض المصادر الأوروبية والعثمانية أيضا تضفي على حسن آغا، صفة الخادم أو الخليفة [65].

ولم يكن اختيار خير الدين لحاكم ينوب مكانه في ذلك الظرف العصيب بالأمر الهين. فهي فترة احتدم فيها الصراع بين شارل الخامس من جهة وخير الدين من جهة أخرى. ومن ثمة فإن التحرشات الإسبانية كانت ما تزال تهدد الجزائر. كما أن الأوضاع الداخلية هي الأخرى لم تكن قد استتبت استتبابا نهائيا بعد. فكان على خير الدين أن يختار حاكما يكون في مستوى التحديات. لا ريب أن خير الدين توسم في حسن آغا الشخصية المؤهلة لمثل ذلك المنصب. فقد كان رجلا جامعا لصفات ومناقب عديدة، حيث جمع بين العقل والعلم والاستقامة وحسن التدبير والحزم والشجاعة. كما أنه كان "سخيا بالمال باذلا للمعروف"[66].

ورث حسن آغا وضعية عصبية وحرجة فقد كانت مختلف الأخبار ترد على الجزائر تفيد أن ملك إسبانيا شارل الخامس يعد حملة ضد الجزائر. وكان لتلك الأخبار أثرها البالغ في نفوس الأهالي. وهو ما أشار إليه تقرير إسباني يعود إلى عام 1536. *"... إن سكان المدينة في قلق شديد لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك اسطول جلالتكم."* [67]

مما جعله يسخر كافة جهوده على الجبهة الداخلية للتصدي للعدو. فحشد وجمع القوى لمواجهة مختلف الاحتمالات. كما راح حسن آغا يشجع الجهاد البحري فصنع إحدى وثلاثين سفينة من نوع الغليوطة للإغارة على السواحل الإسبانية. ويشير صاحب الغزوات إلى أنه عاث بها فسادا، وجلب الغنائم الوفيرة مثله في ذلك مثل خير الدين قبله [68].

و لم يكتف حسن آغا بضرب العدو في عقر داره، بل التفت إلى تحصين المدينة من ذلك تحصينه للبنيون، فوضع بطاريات بدل الأسوار الصغيرة التي كانت تحيط به. كما أعاد بناء السور الذي انهار نتيجة تهاطل الأمطار الغزيرة [69].

وكانت خطة حسن آغا للتصدي للعدو استراتيجية تمثلت أولا في ضرب العدو في عقر داره وهو ما تجلى في شنه للحملات العديدة ضد السواحل الاسبانية، وثانيا في تعزيز تحصينات المدينة لمواجهة أي هجوم.

حققت الجزائر انتصارا ساحقا باسترجاعها لصخرة الجزائر "البنيون" عام 1529 [70] و لم يحرك الاسبان ساكنا فانهماك الإمبراطور في حرب ضارية ضد فر انسوا الأول حال دون ذلك. وكانت تلك الأوضاع فرصة مواتية لأن يواصل البحارة الجزائريون تحقيق الانتصارات تلوى الأخرى ضد الاسبان. ففي غزواتهم استولوا على 8 سفن كانت تحت قيادة الأميرال الإسباني "رود ريقيس" رغم تسليحها الجيد [71] لكن إبرام

معاهدة نيس مع فرنسا، فتح مجالا واسعا لشارل الخامس كي يعد حملته ضد الجزائر لا سيما وأن فرا نسوا الأول تعهد له بالتزام الحياد. كما أن انتصاره في تونس عام 1535 شجعه على العزم على تحطيم الجزائر التي ظلت "كالشوكة في جنب الاسبان". ثم أن شارل الخامس كان يرى أن أول واجب يتحتم القيام به بصفته حفيد فارديناند الكاثوليكي هو القضاء على الجزائر. ولهذا الغرض أرسل جواسيسه إلى عين المكان ليعدوا له تقاريرا عن أوضاع الجزائر. ومن جملة التقارير التي أعدت في هذا الشأن تقرير سري يعود إلى عام 1533 جاء فيه :

"... يحكم الجزائر الآن حسن آغا، وينوب عنه في حالة غيابه حاج باشا (الصوردو) صاردو... يوجد بمدينة الجزائر 1800 تركي ونحو 3000 عائلة عربية و 300 عائلة يهودية. أما القوة التي بين يدي حسن آغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة فهي تشمل 700 تركي، وألف فارس وألفين من المشاة من العرب"[72].

كما طلب شارل الخامس من حكام الحاميات الإسبانية، أيضا إعداد تقارير عن أوضاع الجزائر. فقد أعد حاكم بجاية تقريرا تضمن أخبارا في غاية الدقة عن حالة الجزائر عام 1536 :

"... سكان المدينة في قلق شديد لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك جلالتكم. وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة... وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة لكن العمل لم يتم إلى الآن" [73].

بعد تحضيرات طويلة انطلق الأسطول العرموم من مدينة ماهون يوم 18 أكتوبر 1541. لقد كانت هذه الأرمادة من أعظم ما شهده القرن السادس عشر حيث ضمت 516 سفينة شراعية، من بينها 65 بارجة كبيرة على متنها 12330 بحارا

و 23900 جـــندي. كمـــا شـــارك النبلاء من اسبانيا وألمانيا وإيطاليا بأعداد من المتطوعين أيضا [74] و أنظم إليه، فيلق من فرسان مالطا بقيادة أندري دوريا.

كانـــت هـــذه الحملـــة تضم أقدر، وخيرة رجال المسيحية، كولونا حفيد البابا وهيرناندازكورتـــيز فـــاتح المكسيك، وحاكم مدينة وهران الكونت دالكودات [75] وحـــرص شـــارل الخامس على أن تكون له قيادة الحملة، كي يفوز بشرف تحطيم مديـــنة الجزائر "مصدر قلق المسيحية". وصلت الأرمادة إلى جون الجزائر صباح يوم 20 أكـــتوبر وقـــد وصفها لنا صاحب الغزوات بقوله : "وخيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة أنها جبل تسير في البحر، وحين أرست بذلك الجون خيل لهم أن جبلا استقر هناك" [76].

انـــتاب سكان المدينة من جراء رؤيتهم لتلك الحملة فزع كبير، لكن حسن آغا نجـــح في أن يعـــيد الطمأنيـــنة في نفوس الأهالي فجمعهم و"جعل يسكنهم ويطيب نفوسهم ويهون عليهم أمر هذه العمارة" [77].

ثم انـــتقل حسن آغا إلى التصدي للعدو فحشد كل ما لديه من قوى، وأعلن عن التعبئة العامة حيث أمر شيخ المدينة أن يطلب من السكان التزام قواعد الحراسة المعينة لهم، لحراسة مختلف الأبراج والبطاريات والأسوار وفور ذلك نصبت عليها الأسلحة والرايات الخضراء والصفراء المزينة بالهلال، وببعض الآيات القرآنية.

ثم امتطى فرنسا، وأصبح يجوب له شوارع المدينة مراقبا سير الأعمال عن كثب، بل أنه أشرف بنفسه على توزيع فرق الانكشارية على كافة أبواب المدينة. ففي باب عزون وضع فرقة هامة من الجيش الإنكشاري، وعين على رأسها القائد الحاج محمد. كمـــا جعل القائد حسن في حراسة جزء من السور القريب من باب الوادي ووضع القائد يوسف في باب الوادي [78].

وبينما الاستعدادات حثيثة، جاءه مبعوث إسباني يدعى لورانزو حاملا رسالة من شارل الخامس، جاء فيها : "... تحقق آني مالك هذه المدينة كما ملكت مدينة تونس... وقد بذلت لك الأمان. فإنك إن عاندت و لم تمل إلى ما دعوتك إليه أمرت العسكر يدفعون المدينة دفعة واحدة، ويقلعونها حجرا حجرا". وفور قراءة حسن آغا لنص الرسالة بعث إليه برد شديد اللهجة : "يا كلب النصارى ما قدرت على أضعف بلاد البربر فكيف على مدينة الجزائر. وقد سود الله وجوهكم في المرتين وفي هذه المرة كذلك إن شاء الله" [79].

وكان ذلك الخطاب يعني أن حسن آغا مستعد لخوض المعركة مع العدو. وكانت الخطة التي طبقها حسن آغا محكمة، إذ قرر مهاجمة العدو ليلا ومن الخلف بقوة تتشكل من ستمائة مقاتل وألفي فارس مما جعله يلحق خسائر جسيمة بالعدو [80] وفي اليوم الثاني زحف الجيش الإسباني نحو المدينة فتعرض إلى قصف متواصل بالمدافع والسهام، من أسوار المدينة وأبراجها. وعلى الرغم من ذلك نزل جيش العدو بكدية الصابون، واتخذها قاعدة له واستمرت المعركة بين الطرفين[81].

وفي اليوم التالي، تدخلت العناية الإلهية، إذ وقعت زوبعة عصفت بالأسطول لتزيد من خسائر العدو حيث تحطم عدد كبير من السفن، وغرقت سفن أخرى. كما غرق عدد كبير من الإسبان. واستطاع عدد ضخم من الأسرى المسلمين الذين كانوا يجذفون على متن السفن الإسبانية، أن ينجوا من قبضة الأسرى. وأحدثت الزوبعة بلبلة كبيرة في صفوف الإسبان حيث "خيل لهم أن القيامة قد قامت من كثرة الرياح والأمطار..."[82].

وتواصلت المعركة بين الطرفين، رغم تيقن العدو من أنها "خاسرة" بعد أن فقد كل عتاده الحربي، من مدفعية وما إلى ذلك. وأمام الكارثة التي حلت بالجيش الإسباني، تقرر في 26 أكتوبر الانسحاب بناء على نصيحة الأميرال أندريه دوريا، إلى

رأس تامنتفوست حيث كان الأسطول قد التجأ هنالك. ثم سار ما تبقى منه نحو بجاية ومنها أقلع في اتجاه إسبانيا.

لقد كانت الخسائر التي تكبدها العدو جسيمة ولاشك.لقد وصفها كرامون بالخراب La ruine [83] ووصفها أخرون بالكارثة "C'est un désastre" [84] إذ فقد الاسبان كل شيء : 200 سفينة، و 200 مدفع وكل العدة والذخيرة والأسلحة، أما ما غنمه الجزائريون فلا يمكن إحصاءه.

لقد هزت هذه الهزيمة، "المسيحية جمعاء" ووجهت الانتقادات والاتهامات إلى الإمبراطور شارل الخامس. وراح فريق يتهمه بالعنيد المتصلب، ووصفه فريق آخر بالمتهور والمغامر،إذ غامر وصمم على توجيه الحملة في فصل الخريف فصل غير ملائم للملاحة. في حين حاول البعض الآخر تبريره، فنسجوا، وأحاكوا فكرة تسليم المدينة من طرف حسن آغا إلى شارل الخامس. وذهبوا إلى أن الطرفين تفاوضا بذلك الشأن. واستندوا في ذلك على عبارات وردت في رسائل اسبانية تعود إلى عام 1542.

'Le more,.. est celui qui, il y a un peu plus d'un an, entreprit Don Olonzo, au sujet de négociations de la part de Hassan- Agha..
... Que Don Alonso entende ce que lui veut le more et qu'il avise!" [85]

إن غموض عبارات النص السالف الذكر، جعل كل مؤرخ يفسر ذلك كما يرغب. ويبقى السؤال مطروحا، فهل المفاوضات كانت بشأن مفاداة الأسرى، أو اتفاق تجاري أم قضايا أخرى؟ ومن ثمة فإنه ينبغي تفنيد اتهام حسن آغا بتسليم المدينة إلى شارل الخامس وما يدعونا إلى تفنيدها ودحضها ما يلي : إن الأعمال الكبيرة التي قام بها حسن آغا للتصدي للحملة لا تجعل مجالا للشك في إخلاصه. فقد قام بتحصين المدينة، ومنع السكان من الفرار خارج المدينة لما وصلتهم أخبار الحملة الإسبانية. كما أن الدور الذي أداه أثناء المعركة، خير دليل على ذلك، أن كافة أعماله، لم تكن أعمال رجل ينوي تسليم المدينة فقد أظهر حسن آغا شجاعة فائقة

في تصـــديه للحملة وفي بث الحماس في نفوس الأهالي مما جعل هايدو يقول: "لم يبد ملك في أي موقف شجاعة أبلغ من شجاعة حسن آغا" [86].

لقـــد أكسب رد حسن آغا الناجح لأعظم حملة عسكرية أعدت وقتذاك أكسبه هبة وعظمة لا مثيل لهما. فهو الزعيم الذي أنقذ المدينة من السقوط في يد "الكفار". هـــذا مـــا جعل المؤرخ الإنكليزي وليام سبنسر يقول: "لقد أكسبه الانتصار المكانة القريبة من الوالي الصالح لدى المؤمنين"[87].

عمـــت الفرحة الكبرى مدينة الجزائر، وأقيمت الأفراح، وظل السكان يحتفلون بذكرى الانتصار لمدة ثلاثين سنة. كما صفق اليهود لهذا الانتصار نظرا لحقدهم على الإسبان الذين اضطهدوهم، وبقوا يحتفلون هم أيضا بهذه الذكرى [88].

أمـــا أصداء الانتصار في البلاط العثماني، فقد كانت كبيرة حيث أثنى ثناء كبيرا عـــلى صانع الانتصار، حسن آغا. وفور ذلك وجه السلطان سليمان القانوني خلعه عظيمة سنية، وأمرا يقضي بتأكيد حسن آغا كحاكم على الجزائر [89].

كما كان لكارثة الأرمادة على الشواطئ الجزائرية نتائج عظيمة بأوروبا أيضا [90]. فقـــد منعت الدول الأوروبية عن التفكير في توجيه حملة عسكرية أخرى ضد الجزائر إبـــان القـــرن السادس عشر. واشتهرت مدينة الجزائر منذئذ بالمدينة ذات الحراسة الجـــيدة" الـــتي لا تغلب، وبل "وبالمدينة المصونة والمحفوظة من طرف العناية الإلهية" فعرفت بالجزائر المحروسة.

وعقب ذلك سارع فرا نسوا الأول إلى إرسال مبعوث عنه للبلاط العثماني حيث كان يوجد خير الدين ليهنئه بالانتصار، وليلتمس منه المساعدات العسكرية الضرورية البرية منها والبحرية لمحاربة شارل الخامس.

وعـــن أصداء الانتصار كتب صاحب الزهرة النيرة ".. وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفرة مدة طويلة" [91].

بعد الانتصار العظيم الذي حققه حسن آغا ضد الإمبراطور شارل الخامس وجه أنظـــاره صـــوب الأوضاع الداخلية التي شهدت اضطرابات وتمردات تزعمها بعض الأمـــراء من ذلك، تمرد شيخ قبيلة كوكو، الذي سعى إلى التعاون مع الإسبان ضد حسن آغا حيث سار بجيشه نحو الجزائر ليقدم المدد والمساعدة لشارل الخامس. لكنه، لحســـن الحـــظ، فإن المساعدة لم تتم، إذ جاء وصولها متأخرا، فقد كان الأسطول الإسباني قد غادر الجزائر، جارا وراءه ذيول الخيبة والهزيمة.

ولمـــا علم حسن آغا بتلك الأحداث عزم على معاقبته، لكن فصل الشتاء جعله يؤجـــل ذلـــك إلى فصل الربيع. حيث خرج على رأس ثلاثة آلاف جندي وألفي فارس. واستطاع بفضل هذه القوة أن يرغم أمير كوكو على الإستسلام، وعلى دفع مـــبلغ مالي، ليس هذا فحسب بل على التعهد بدفع ضريبة سنوية [92]. ومن الناحية الشرقية، انتقل حسن آغا إلى الناحية الغربية قصد تأديب وإخضاع المولى أحمد، الذي أعلـــن عصيانه عليه، بعد أن أظهر له الولاء والطاعة فسار حسن آغا نحو تلمسان، لكن المولى أحمد سارع إلى إنقاذ الموقف، فبعث إليه برسل وهدية ثمينة، معتذرا عما صدر منه [93] فأقل حسن آغا راجعا بعد أن استطاع إخماد التمردات واسترجاع الأمن إلى البلاد. وظل يعمل جاهدا في ذلك السبيل حتى وافته المنية في جمادى الثانية عام 950 هـــ، الموافـــق لسبتمبر 1545م. وقد أكسبته تلك الأعمال شعبية كبيرة مثلما سجله هـــايدو: "لا زال أنـــاس ممـــن عاصروه يذكرونه بخير، ويمدحونه، ويعترفون له بالعدل والأنصاف" [94].

وقـــع اختـــيار الســـلطان على حسن باشا بن خير الدين اعترافا بما قدمه والده خيرالديـــن للجزائر وللدولة العثمانية على حد سواء [95]. وخلال ولايته الأولى أولى

حسن باشا تنظيم الجيش عناية خاصة. ثم تصدى لقمع التمرد الذي أعلنته بعض القبائل بمنطقة مليانة [96]. لكن أوضاع البلاد لم تستقر بعد بسبب تهديدات الإسبان المستمرة وبقايا بني زيان و هجومات السعديين. وظلت مدينة تلمسان بؤرة صراع مرير بين تلك الأطراف جميعا. فقد سار حاكم وهران إلى تلمسان عام 1546 لكن جيوش حسن باشا بمؤازرة قوة عسكرية قدمت من تلمسان ودحرته ونجح في إفشال الهجوم الإسباني على مستغانم[97]. وبعدما فرغ حسن باشا من ذلك باشر تحصين المدينة حيث بنى بكدية الصابون برجا أصبح يعرف ببرج مولاي حسان. كما يعود إليه الفضل في تزويد المدينة بعدد من المنشآت والمرافق العمومية منها مستشفى للجند وعدد من الحمامات [98]. ثم استدعي من قبل السلطان العثماني.

وحينما غادر حسن باشا بن خيرالدين الجزائر في فصل الربيع من عام 1552 تولى السلطة بعده صالح رايس. و لم يكن غريبا عن الجزائريين بل كان أحد رفقاء الأخوة بربروسة [99]. وواصل جهود من سلفه من أجل مد النفوذ في المناطق الداخلية حيث وجه حملته الشهيرة إلى منطقتي ورقلة و توقرت بعدما امتنع شيوخها على تقديم ما عليهما من ضرائب حيث سار في شهر أكتوبر 1552 على رأس حملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وألف فارس. وانضم إليه في مجانة عبد العزيز حاكم قلعة بني عباس. و بدأ صالح رايس بتوقرت فهاجمها واستسلم إثر ذلك شيخها ورضخ لسلطته. ثم قصد ورقلة التي بادر شيوخها بالإذعان بعدما وصلتهم أنباء الصدام الذي وقع بين جيش صالح رايس وأهل توقرت [100]. وبعدما أخضعهما وأرجعهما ضمن الوحدة الوطنية قفل راجعا جالبا معه غنائم وفيرة وغنية اشتملت حسب على خمسة عشر جملا محملا بالذهب ؟ ؟ بالإضافة إلى ما يزيد عن خمسة آلاف عبد[101].

وبعد تلك النجاحات نهض صالح رايس إلى تحرير مدينة بجاية التي كانت تحت نير الاحتلال الإسباني منذ عام 1510. فأعلن الجهاد ضد الإسبان وساندته في ذلك

الطـريقة القادريـة. كما انظمت إليه مختلف القبائل بل وساندته أيضا قبائل كوكو وبني عباس وقبائل سهل الحضنة وقبائل الجنوب. وبفضل مؤازرة الجميع حشد جيشا يضم ثلاثين ألف محارب[102]. وبعد مواجهة عنيفة تيقن حاكم بجاية بأنه وحاميته في حالـة يائسـة فاضطر إلى الاستسلام. ودخل صالح رايس المدينة وافرج عن الحاكم الإسـباني وعشرين ضابطا وعائلاتهم وفي الوقت ذاته أسر نحو ستمائة أسير. وكان اسـترجاع بجاية انتصارا عظيما حيث فقد الأسبان قاعدة استراتيجية على الساحل الشرقي ومنذئذ انحصر الاحتلال في مدينة وهران. وكان استرجاع بجاية حافزا على الشـروع في تحضـير حملة عسكرية لتحرير وهران لكنه وفاته المنية بينما كان ببرج تامنتفوست يترقب وصول الإمدادات من استنبول عام 1556 [103].

وفي أعقـاب وفاة صالح رايس عين الباب العالي حسن بن خيرالدين للمرة الثانية فوصـل في جـوان 1557. وكان من أهم التحديات التي تنتظره التصدي للإسبان ولـلخطر السعدي ففي المعركة التي دارت بين جيوشه وجيوش الإسبان لقي القائد ألكودات حتفه وأسر ابنه دون مارتان بل إن بقايا الجيش الإسباني بأكمله استسلمت في يـوم الجمعة 26 أوت عام 1557. وعاد حسن باشا بنحو ستة آلاف أسير وظل هـؤلاء مدة طويلة في الأسر "فدون مارتان" نفسه لم يتم افتداءه إلا عام 1561 من قـبل أخـيه الذي خلف والده [104]. وبذلك حقق حسن باشا انتصارا عظيما على الإسبان الذين فقدوا كل شيء في هذه المعركة.

وحيـنما تولى حسن باشا السلطة للمرة الثالثة عمل على وضع أسس التنظيمات الإدارية والعسـكرية إذ ينسب إليه تقسيم البلاد إلى مقاطعات عرفت بالبايليكات [105] وعمل على طرد الاسبان من وهران حيث وجه حملة في 1563 وحاصرها وأوشك على تحريرها.

لكـن الجـيش الانكشاري ثار ضده فغادر حسن بن خير الدين الجزائر نهائيا في أوائـل 1567 [106]. ويمكن القول أن جهود حسن بن خير الدين تركزت في القضاء عـلى الإسبان وفي رد هجومات السعديين حتى وإن أخفق في تحرير وهران فقد نجح في إضعاف الإسبان ولو مؤقتا.

الهوامش :

[1]. حـــول تاريخ دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية راجع : - أبو زكرياء يحي بن خلدون، بغية الـــرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1980.

- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

[2]. حول أوضاع المغرب الإسلامي راجع :

يحي حلال، تاريخ المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

- العـــروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977.

[3]. المـــدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 69.

[4]. نفسه.

[5].

[6]. Ch A , JULIEN , Histoire de l'Afrique du nord de la conquête arabe à 1830, 2ème édition , Sned , Alger ,1978. p 250.

[7]. F , BRAUDEL , Les espagnols et l'Afrique du nord de 1492-1577 , Revue Africaine , 1928. p 198.

[8]. حول الاكتشافات الجغرافية راجع :

عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، مدينة نصر، 1997.

[9]. العروي، تاريخ المغرب، ص 243.

[10] BRAUDEL , Les espagnols , p 193-194.

[11]. Ibid , p 225.

[12]. خيمينيس دي سيسنيروس كاردينال إسباني عرف بتطرفه وتعصبه ضد المسلمين. ولد بقشتالة عـــام 1436 كـــان مـــن الموظفـــين السامين في بلاط الملكة إيزابيلا. وفي عام 1507 أنيطت به مهمة الإشراف على محاكم التفتيش التي زرعت الرعب والذرع في نفوس المسلمين بالأندلس.

[13]. إن الصبغة الصليبية لهذه الحروب أشار إليها جل المؤرخين.

[14]. المدني، حرب الثلاثمائة، ص 80.

[15]. BRAUDEL , Les espagnols , p186.

[16]. حول الهجرة الأندلسية وسقوط غرناطة راجع :

- عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان العثماني إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، المجلة التاريخية المغربية، عدد 3، 1975، ص 100-106.

- جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلس 1492-1610، دار هومة، الجزائر 2004.

- Fernand , BRAUDEL , La Méditérranée et le monde méditérranéen à l'époque de Philippe II ,2 Tomes , Paris. 1976.

[17]. BRAUDEL , Les espagnols , p212.

[18] المدني، حرب الثلاثمائة، ص80.

[19] المدني، حرب الثلاثمائة، ص114.

[20]. نفسه، ص20.

[21]. Pierre Navarro , conquérant de Vélez , Oran, Bougie , Bulletin de la société de géographie d'Alger , T XV , 1925 , pp 47-78.

[22] المدني، حرب الثلاثمائة، ص 113.

[23] عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، بيروت، ب ت. وانظر أيضا :

- Paul RUFF , La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudete 1534-1558 , Présentation de Chantale de LAVERONNE Eds Bouchène , Paris, 1998, p28-29..

[24] المدني، حرب الثلاثمائة، ص122-123.

[25] Charles FERAUD, Lettres arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algerie, Revue Africaine, 1873 pp313-314.

- Adrien BERBRUGGER, Le pégnon d'Alger, ou les origines du gouvernement turc en Algérie, 1860.

[26] Corinne CHEVALIER, Les trentes premiéres années de l'Etat d'Alger, 1510-1541, OPU , Alger, 1986, p 34.

[27] BRAUDEL , Les espagnols, p 191.

[28] Jean CAZENAVE, les présides espagnoles d'Afrique, Revue Africaine, 1922, p 226.

[29] Charles André , JULIEN, Histoire de l'Afrique du nord de la conquête Arabe à 1830, Sned , Alger, p 253

[30] RUFF , La domination espagnole , p 15.

[31] العروي، تاريخ المغرب، ص 247-248.

[32] الطريقة القادرية.

[33] الطـــريقة الشادلية، أسسها أبو الحسن الشاذلي، وانتشرت تعاليمها في الجزائر، وكانت إحدى أهم الطرق الصوفية.

[34] نقلا عن سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول

[35] سيدي عبدالرحمن الثعالبي من رجال التصوف ومن أعيان وعلماء مدينة الجزائر. ولد بناحية يسر عـــام 1384 وانتقل إلى مدينة بجاية ثم ارتحل إلى تونس ومنها إلى المشرق حيث زار مصر قصد البقاع المقدسة. اشتهر بثقافته الغزيرة ألف ما يزيد عن تسعين مؤلفا.

[36] أبـــو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 348.

[37] حول الشيخ محمد التواتي، انظر : سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول.

[38] ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص15.

[39] حظي موضوع سقوط الأندلس وتداعياته بدراسات عديدة

[40] المدني، حرب الثلاثمائة، ص 156.

[41] Julien de LAGRAVIERE, Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le magnifique, Plon, Paris, 1887.

- ACHARD, la vie extraordinaire des frères barberousse, corsaires et roi d'Alger, Paris, 1939.

[42] الســـلطان ســـليم الأول الملقب بــ "ياوز " أي القاطع 1512-1520. تاسع سلاطين الدولة العثمانية. تميز عهده بالفتوحات الخارجية والتنظيمات الداخلية. راجع :

فـــريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط3، 1983، ص 188 وغيرها.

خلـــيل اينالجـــيك، تاريخ الدولة العثمانية – من النشوء إلى الانحدار – ترجمة محمد م، الأرناؤوط، بيروت، 2002. ص 53 وغيرها.

[43] بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص

[44] Elie de Laprimaudaie, Le commerce et la navigation de l'Algèrie avant la conquête française, Lahure, Paris, 1861

- Mas de latrie, Traité de paix et de commerce, Paris, 1866.

[45] حول هذه الشخصية راجع :

فيصـــل عبد الله أحمد الكندري، الملاح والجغرافي بيري رايس، دراسات جغرافية، الجمعية الكويتية الجغرافية، العدد 234، 1999.

-كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، اسطنبول، 1911، ص 26-27.

[46] الم.ن، حرب الثلاثمائة، ص 172.

[47] غزوات عروج وخيرالدين، ص

[48] SANDER RANGE, Fondation de la régence d'Alger, Ed Bouslama, tunis, 2 vols.

[49] Julien de LAGRAVIERE, Les corsaires barbaresques et la marine de Soliman le magnifique, Plon, Paris1887.

[50] Henri de GRAMMONT, Alger sous la domination Turque 1515-1830, Bouchène, Paris, 2000, p44.

[51] CHEVALIER, Les trentes premiéres, p 34.

[52] GRAMMONT, Alger sous, p43.

[53] إن موقع استشهاد عروج محل خلاف بين المؤرخين. انظر :

Diégo de Haedo , Histoire des rois d'Alger, Bouchène, Paris, 2000, p47-48.

GRAMMONT, Alger sous la domination turque 1515-1830, Bouchène, Paris, 2000, p46.

[54 bis] غزوات عروج وخير الدين، ص44.

[54] السلطان الغازي محمد الثاني الملقب ب الفاتح أو ب أبي الفتوح 1429- 1481 سابع سلاطين الدولة العثمانية وهو محقق الفتح العظيم فتح القسطنطينية عام 1453. دام حكمه واحدا وثلاثين سنة له مآثر وأعمال جليلة. انظر :

- فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص 160 –178.

-ايناجيك، تاريخ الدولة العثمانية

[55] حول التوسعات العثمانية راجع :

- فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 160 –178.

- ايناجيك، تاريخ الدولة، ص 41 وغيرها.

- محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة.

- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516-1916، مطابع ألف باء، دمشق، 1974.

[57] عـــبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول سنة 1519، المجلة التاريخية المغربية، عدد 6، 1976 ص 116-120.

[58] عـــبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، جامعة عين شمس، القاهرة، الجزء الثاني، 1986.

[59] حول إمارة كوكو راجع :

- أحمـــد ســـاحي، الزواوة : من القرن السادس حتى الثامن عشر عهد الإمارة 1512-1767 رسالة ماجستير، جامعة الجزائر.

[60] Grammont, Alger sous la domination, p49.

[61] إلتر، الأتراك العثمانيون، ص81.

[62] إينالجيك، تاريخ الدولة العمانية، ص57.

[63] إن الأخـــبار بشـــأن صـــباه المبكرة و الوسط الذي نشأ فيه قبل أن يؤسر ويؤتى به إلى الجزائر شحيحة للغاية ما عدا أنه من جزيرة سر دينيا، ويرجح أن ولادته كانت نحو عام 1489م.

أســـره خير الدين بربروسة في إحدى غزواته،على شواطئ تلك الجزيرة وهو في سن مبكرة. وغدا عـــبدا لخير الدين ويبدو من سير الأحداث، إنه سرعان ما اعتنق الإسلام مما جعل سيده يعتقه وأصبح مـــنذئذ يشرف على تربيته وتوجيهه. وقد أبدى الشاب الصغير من الفطنة والنباهة ما جعل خير الدين يســـند إليه مهمة تسيير ورعاية شؤونه ومصالحه الشخصية، بل وإدارة أمواله أيضا. فقد حظي بحظوة خاصـــة لديه ويذهب بعضهم إلى أن العلاقة بينهما كانت علاقة الأب بالابن. ثم أسندت إليه وظائف مدنـــية وعسكرية إلى أن ارتقى منصب الآغا، الذي يعد أعلى منصب في الجيش البري. فعرف حسن منذئذ بحسن آغا، إلى أن وافته المنية.

[64] يرى أحمد توفيق المدني أن فترة حكم حسن آغا تمتد من 1533-1544 في حين يذهب ابن أبي شـــنهو أن حســـن خلفه خير الدين وبقي في الحكم إلى غاية وفاته عام 1445. بينما تحددها الموسوعة التركية بالفترة الممتدة من: 1534-1542.

[65] Chevallier, Les trentes premières, p.80.

[66] غزوات عروج وخير الدين، ص 115.

[67] نقلا عن بسام العسلي، خير الدين بربروس – ط 2، بيروت 1983، ص 143.

[68]. غزوات عروج...، ص 115.

[69] نقلا عن، توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، 1492-1792، ط 2. الجزائر، ص 277.

[70] ولـيام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الجزائر، 1980، ص 37.

[71] ولف جون، الجزائر وأوروبا، تعريب وتعليق أبي القاسم سعد الله. الجزائر، ص 50.

[72] نقلا عن المدني، حرب الثلاثمائة، ص277.

[73] العسلي، خير الدين، ص 143.

[74] GRAMMONT , Alger sous la domination, p68.

[75] RUFF , La domination espagnole , p86

[76] نفســه. وانظر أيضا: الجديري التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة. نشرها سليم بابا عمر. مجلة تاريخ وحضارة بلاد المغرب. عدد 3، 1967، ص 15.

[77] غزوات عروج، ص 125.

[78] غزوات عروج، ص 116.

[79] غزوات عروج، ص 125.

[80] المدني، حرب الثلاثمائة، ص 337.

[81] مــولاي بالحمــيس، غــارة شرلكان على الجزائر، 948/ 1541 بين المصادر الغربية والمصادر الإسلامية، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 6، 1969، ص 45.

[82] غزوات عروج، ص125.

[83] GRAMMONT, Alger sous la domination, p 75.

[84] RUFF, La domination espagnole, p88

[85] Adrien, Berbrugger, Négociations entre Hassan Aga et le comte d'Alcandette 1541-1542". In.Revue Africaine, T.9 1865 pp.379- 385.

[86] Haedo, Histoire des rois d'Alger, p77.

[87] سبنسر، الجزائر في عهد رياس، ص 50.

[88] بالحميسي، غارة شرلكان، ص 54، 55.

[89] سبنسر، الجزائر في عهد رياس، ص 39.

[90] GRAMMONT , Alger sous , p 75.

[91] التلمساني، الزهرة النيرة، ص 19.

[92] Haedo, Histoire des rois , p79

[93] Ibid, p 80.
[94] Ibid, p 82.

[95] هذا ما ذهبت إليه بعض الدراسات،

[96] مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثالث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964. ص 74.

[97] RUFF, La domination espagnole, p86.

[98] إلتر، الأتراك العثمانيون، ص181.

[99] المدني، حرب الثلاثمائة، ص 337.

– ناصر الدين سعيدوني، عريضة أعيان قسنطينة في شأن صالح رايس، المجلة التاريخية المغربية، العدد التكريمي للأستاذ آحرون، 1996، ص 161-177.

[100] Haedo, Histoire des rois, p 98-99.
- GRAMMONT, Alger sous La domination p 82.
[101] GRAMMONT, Alger sous La domination, p 82.

[102] المدني، حرب الثلاثمائة، ص343.

– الميلي، تاريخ الجزائر، ص 84.

[103] Haedo, Histoire des rois, p108.
- GRAMMONT, Alger sous La domination, p 99.
[104] RUFF, La domination espagnole, p 174-175.
[105] Pierre BOYER, Beys et beyliks, essai sur les origines de l'administration provinciale dans la régence d'Alger, Atti del congresso internazionale di studi nord africani, 1965.p163-166.
[106] GRAMMONT, Alger sous La domination, p 99.

الفصل الثاني

النظم السياسية والعسكرية

المبحث الأول : النظم السياسية

من إعداد الأستاذة عائشة غطاس
و الأستاذة نعيمة بوحشوش

مرّت الجزائر منذ انضمامها للدولة العثمانية بأربع مراحل سياسية هامّة هي:

- مرحلة البايلربايات (1519 - 1587).
- مرحلة الباشوات (1587 - 1659).
- مرحلة الآغوات (1659 - 1671).
- وأخيرا مرحلة الدايات (1671 - 1830).

فبما تميّزت كل فترة ؟

أ. مرحلة البايلربايات (1519 ـ 1587):

خـــلال معظم فترة القرن السادس عشر كانت السّلطة تمارس من طرف البايلربايات مباشرة أو عن طريق نوابهم، وكانت سلطتهم تصل إلى باشوات تونس وطرابلس، وكانوا يتصـــرّفون باستقلالية[1] ويتمتّعون بثراء كبير [2]. وقد طغت في هذه المرحلة فكرة مقاومة الاحتلال الإسباني، سواء على الأرض الجزائرية أو في البحر الأبيض المتوسط. وظهر فيها تعـــاون وتفاهم رائعان بين مقر الخلافة اسطنبول والجزائر المنضمّة حديثا لحظيرة الدولة العثمانـــية، إذ جمع الطرفين فكرة الوحدة الجهادية لمواجهة التوسعات الاستعمارية للقرن السادس عشر، فالمصالح مشتركة بين الطرفين والعدو واحد.

بعـــد أن انضمّت الجزائر للدولة العثمانية عقب إرسال رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول وقبوله بالعرض الذي قدمه الجزائريون عيّن خير الدين بربروس أوّل

حـــاكم للجزائر بلقب بايلرباي[3]. وقد حكم خلال هذه الفترة حوالي 20 حاكما عاد عدد منهم إلى الحكم مرتين أو أكثر[4]، وكان عدد منهم يحملون لقب بايلرباي كحسن بـــن خـــير الديـــن، صـــالح رايس، علج علي، في حين كان آخرون عبارة عن خلفاء للبيلربايات ينوبون عنهم في الحكم عندما يستدعون من قبل السلطان[5].

كـــان الـــرجال الذيـــن يعيّنون على رأس الولاية أو الباشوية يمتازون بالشجاعة والذكـــاء وحسن التسيير، ويبدو أن السلطان كان يعيّنهم اعتبارا لشهرتهم في مقاتلة الأعداء كخير الدين بربروس، وحسن آغا بعد ردّه حملة شارلكان، أو لشهرة آبائهم كحســـن بن خير الدين ومحمد بن صالح رايس، أو لثقته الكبيرة فيهم كصالح رايس الذي كان قائدا للسفينة السلطانية قبل تعيينه في منصب بايلرباي. كما أن السلاطين العثمانـــيين قد يعينون حكاما للإيالة بعد استشارة العارفين بالإيالة وأحوالها، إذ نجد السلطان بعد تعيينه لحسن بن خير الدين للمرّة الرابعة وتوقعه عدم قبوله لهذا المنصب يوجه رسالة إلى علج علي قبطان الأسطول العثماني يستشيره فيمن يراه مناسبا لتولي هذا المنصب في حال تنازل حسن بن خير الدين عنه[6].

كان حكام الجزائر خلال فترة البايلربايات من أصول متعدّدة، إذ نجد منهم العلج كحســـن آغـــا وحسن قورصو، والتركي كقائد صفا ومحمد باشا تكرلي، والعربي كصـــالح رايـــس وعـــرب أحمد، والكرغلي كحسن بن خير الدين. ورغم وجود الأوجـــاق المشـــكل من الإنكشارية القادمين من القضاء العثماني فقد امتازت هذه الفـــترة بحكم رياس بحر كبار لم يكونوا يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب طائفة الرياس، ولم يكونوا يسعون لمعارضة الشخص الذي يقلّده السلطان إمرة الجزائر، وقد أدى بهم الأمر إلى حد الانضمام إلى مرشح السّلطان محمد تكرلي[7] ضد الإنكشارية، رغم عدم كونه من طائفة الرياس [8]، وساعدوه على الوصول إلى السلطة وفاء منهم للســـلطان الـــذي تربطهم به وحدة المصير في الصراع الإسلامي – المسيحي الذي شـــهده القـــرن السادس عشر. ويذكر بوايبه أنه لم يحدث أن حاولت طائفة الرياس فرض مرشّحها على السلطان أو الأوجاق[10].

عرفت فترة البايلربايات بروز شخصيات بارزة جد مؤثرة على ساحة الأحداث الداخلية والخارجية، أمثال خير الدين بربروس وحسن آغا وحسن بن خير الدين، صالح رايس وعلج علي، الذين ساهموا في تنظيم وتطوير البلاد والدفاع عنها وتحسين دفاعاتها وحصونها لصد الأعداء، كما ساهموا في الدفاع عن حدود الدولة العثمانية ومصالحها الحيوية.

ففي المجال الداخلي وضع البايلربايات أسس الجزائر الحديثة، إذ عزّزوا نفوذ السلطة المركزية، وعرفت الجزائر حدودا ثابتة وعاصمة رسمية. ففي عهد حسن بن خير الدين وُضعت الأسس الأولى للتنظيمات الإدارية الحديثة، إذ قسّم البلاد إلى مقاطعات عُرفت بالبايليكات (بايلك التيطري، بايلك الشرق، بايلك الغرب)، وخصت الجزائر بنظام خاص عرف بدار السلطان[11]. وسعى حكام آخرون إلى تطهير الأرض الجزائرية من الوجود الإسباني شرقا وغربا، فقد تمكن صالح رايس من تحرير بجاية والقضاء على الدولة الزيانية نهائيا في عام 1555 [12]، كما قضى على التمرّدات الداخلية، ووسّع نفوذ السلطة المركزية حتى الأقاليم الصحراوية[13].

وما دامت سلامة البلاد ترتكز على قدرتها على الصمود فقد اهتم حكام الجزائر خلال فترة البايلربايات بتحصين البلاد، وما دام الخطر يأتي غالبا من البحر، فقد عزّزوا الدفاعات البحرية، إذ بمجرّد تحرير حصن البنيون في 1529 هدّمه خير الدين بربروس وبنى ما عُرف بحوض خير الدين، وذلك لتأمين السفن من الرياح الشمالية الغربية، وأنشأ حصنا ذا أربعة طوابق، يشتمل على فوّاهات لرمي النيران لحماية المدينة وحوض السفن من أي خطر. وما فتئ خلفاء خير الدين يولون اهتماما كبيرا لهذا الميناء، باعتباره المنطقة الأكثر عرضة للخطر الأجنبي والملجأ الآمن لسفنهم ونقطة الاتصال الرئيسية مع العالم الخارجي، إذ أضيفت له تحصينات جديدة في 1556 ثم في 1568 و1573 [14]. أما المدينة فقد تمّ تحصينها كذلك بالأسوار والأبراج وحُفرت الخنادق[15].

عرفـــت فترة البايلربايات بروز شخصيات بارزة جد مؤثرة على ساحة الأحداث الداخلـــية والخارجية، أمثال خير الدين بربروس وحسن آغا وحسن بن خير الدين، صالح رايس وعلج علي، الذين ساهموا في تنظيم وتطوير البلاد والدفاع عنها وتحسين دفاعاتهـــا وحصونها لصد الأعداء، كما ساهموا في الدفاع عن حدود الدولة العثمانية ومصالحها الحيوية.

ففـــي المجـــال الداخلي وضع البايلربايات أسس الجزائر الحديثة، إذ عزّزوا نفوذ الســـلطة المركزية، وعرفت الجزائر حدودا ثابتة وعاصمة رسمية. ففي عهد حسن بن خـــير الديـــن وُضعت الأسس الأولى للتنظيمات الإدارية الحديثة، إذ قسّم البلاد إلى مقاطعـــات عُرفـــت بالبايليكات (بايلك التيطري، بايلك الشرق، بايلك الغرب)، وخصـــت الجزائـــر بنظام خاص عرف بدار السلطان[11]. وسعى حكام آخرون إلى تطهير الأرض الجزائرية من الوجود الإسباني شرقا وغربا، فقد تمكن صالح رايس من تحريـــر بجايـــة والقضاء على الدولة الزيانية نهائيا في عام 1555 [12]، كما قضى على التمرّدات الداخلية، ووسّع نفوذ السلطة المركزية حتى الأقاليم الصحراوية[13].

وما دامت سلامة البلاد ترتكز على قدرتها على الصمود فقد اهتم حكام الجزائر خـــلال فـــترة البايلربايات بتحصين البلاد، وما دام الخطر يأتي غالبا من البحر، فقد عزّزوا الدفاعات البحرية، إذ بمجرّد تحرير حصن البنيون في 1529 هدّمه خير الدين بربـــروس وبنى ما عُرف بحوض خير الدين، وذلك لتأمين السفن من الرياح الشمالية الغربـــية، وأنشـــأ حصنا ذا أربعة طوابق، يشتمل على فوّاهات لرمي النيران لحماية المدينة وحوض السفن من أي خطر. وما فتئ خلفاء خير الدين يولون اهتماما كبيرا لهـــذا الميـــناء، باعتباره المنطقة الأكثر عرضة للخطر الأجنبي والملجأ الآمن لسفنهم ونقطـــة الاتصـــال الرئيسية مع العالم الخارجي، إذ أضيفت له تحصينات جديدة في 1556 ثم في 1568 و1573 [14]. أما المدينة فقد تمّ تحصينها كذلك بالأسوار والأبراج وحُفرت الخنادق[15].

لم تــتركز نشـــاطات الـــبايلربايات على المجال الداخلي فقط، وإنما كانت لهم مســـاهمات معتـــبرة في الدفـــاع عن الجزائر ضد الحملات المعادية وفي المشاركة في الصراع العثماني- المسيحي وتوسيع النفوذ العثماني إلى غرب البحر الأبيض المتوسط ووضع خريطة جديدة لهذه المنطقة.

ففـــي مجـــال الدفاع عن الحدود الجزائرية تمكّنت الجزائر في 1541 من صد حملة شـــارلكان الصليبية وهي تحت حكم حسن آغا خليفة خير الدين [16]، وقد صدم نبأ صـــمود الجزائريين أمام شارلكان وإلحاقهم الهزيمة به أوروبا، وجعلها تفكر قبل أن تـــتجرّأ على إرسال حملة ضد الجزائر، وتبوأت الجزائر منذ ذلك الحين مكانة معتبرة، وأصبحت تدعى "الجزائر المحروسة".

غـــير أن المؤامـــرات في الخفـــاء بقيت مستمرّة من الجانب الإسباني، خاصة مع السعديين على الحدود الغربية للجزائر، لكن البايلربايات المتوالين على السلطة تصدّوا لها وتمكّنوا من تأمين الحدود الغربية للجزائر [17]. ولم يقف نشاط البايلربايات عند هذا الحد، فقد أبلوا البلاء الحسن خلال مساهمتهم في خوض الجهاد المشترك في المتوسط والذي انجرّ عنه توسيع النفوذ العثماني بالمنطقة على حساب النفوذ الإسباني.

فقـــد ساهمت الجزائر في عهد البايلربايات إلى جانب الدولة العثمانية في مجالين: يتمـــثّل الأول في طلـــب الدولـــة العثمانية من بايلربايات الجزائر تحديث الأسطول العثماني، وقد كان ذلك على يد خير الدين بربروس في 1533، إذ غادر الجزائر رفقة 17 رايســـا و18 سفينة، وتمكّن بعد تعيينه أميرالا للأسطول العثماني من إنشاء 61 مركـــبا بـــين باشترده وشيني [18]. أما بعد نكبة ليبانت عام 1571 فقد لجأ السلطان العـــثماني إلى بايلـــرباي الجزائر علج علي وعيّنه أميرالا للأسطول العثماني، وكلّفه بـــتجديد الأســـطول وتعويض ما دمّر منه، فتمّ ذلك في وقت قياسي، إذ في جوان 1572 خـــرج الأسطول العثماني الجديد بأكثر من 200 سفينة شيني و8 سفن قلاع

تحت قيادة علج علي[19]. وبذلك فوّت الفرصة على أعداء الدولة العثمانية في الإنتقام منها والقضاء عليها بعد تدمير أسطولها.

أمـــا فيما يخصّ المجال الآخر للمساهمة الجزائرية إلى جانب الدولة العثمانية، فتمثل في المشـــاركة في حصـــار مالطة 1565، وفي معركة ليبانت 1571، ونجدة فرنسا 1542 ـ 1543 وفي فتح تونس 1574 [20].

كانـــت إذن فـــترة البايلربايات مرحلة تنظيم داخلي، ونشأة لنواة كيان سياسي بحدوده وعاصمته وأقاليمه، وبروز في المجال الإقليمي ومساهمة في رسم خريطة غرب المتوســـط لصالح الدولة العثمانية، على حساب إسبانيا التي جنحت للسلم وعقدت هدنة مع العثمانيين في 1580.

ب. مرحلة الباشوات (1587.1659) :

في شـــهر جـــوان 1587 توفي علج علي[21] وكان يحتفظ بلقب بايلرباي رغم تركه الجزائر وتعيينه أميرالا للأسطول العثماني في1571، فقرّر السلطان مراد الثالث إلغاء نظام البايلربايات واستبداله بنظام الباشوات. فما الذي حمل السلطان على اتخاذ هذا القرار؟

يبدو أن الأسباب متعددة ولعل من أهمها خوف السلطة العثمانية في اسطنبول من تحـــوّل الجزائر نحو الاستقلالية خصوصا بعد أن عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع عدوّتها ومنافستها في البحر الأبيض المتوسط إسبانيا في 1580 [22] وبالتّالي تحول مجال سياستها نحو المشرق، وأصبحت التحديات هناك تقتضي منها حضورا أكبر، مما قد يشجع البايلربايات الذين كانت تخضع لهم تونس وطرابلس الغرب على ضم المغرب وتشـــكيل وحدة سياسية متماسكة تستقل عن مقر السلطة العثمانية في اسطنبول[23]. ويـــبدو أن هـــذه المخاوف غذاها السفراء الغربيون بعاصمة الخلافة [24] الذين كانوا يخشون من وقوع وحدة سياسية في الضفة الجنوبية للمتوسط.

كان الباشا يعين من طرف الباب العالي لمدة ثلاث سنوات مع إمكانية التجديد، وقـد قلّصـت الامتـيازات التي كانت سابقا للبيلربايات وحصرت مهمته في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن وتنفيذ تعليمات السلطان، وتجنيد الجيش أثناء الأزمات والجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية[25].

دامـت فترة الباشوات ما يقارب 72 سنة، تعاقب خلالها على الحكم حوالي 27 باشا، عاد بعضهم إلى الحكم أربع مرات[26]. وإذا كانت فترة البايلربايات قد عرفت تنوعا في انتماءات الحكام من أتراك وعرب وأعلاج وكراغلة فإن فترة الباشوات قد اقتصرت على العنصر التركي العثماني. ويمكن استنباط ذلك من خلال أسمائهم، مثل استانكويلي أحمد باشا [27]، بورصالي محمد باشا [28] سليمان باشا كاتانيالي [29].

سـادت فترة الباشوات فوضى كبيرة وعدم استقرار، فالباشوات المعينين لمدة ثلاث سـنوات تمكـن قليل منهم من إتمام عهدته، فقد كانوا أحيانا يضطرون للهروب بعد صـراعات مع الأوجاق أو طائفة الرياس [30]. ووجدنا في بعض الأحيان تناوب 2 إلى 3 باشـوات على السلطة في نفس السنة، فمثلا في عام 1594 مصطفى باي وخضر باشا، وفي عـام 1617 وجدنا كوسه مصطفى باشا، سليمان باشا والشيخ حسين باشا [31]. ويدل هذا على عدم الاستقرار الذي ميّز هذه الفترة. لكن ما هو سبب هذه الفوضى؟

لقـد تسبّب هذا التغيير في النظام السياسي وتعيين الباشوات الثلاثيين – الذين لا يملكون السلطة وهمّهم جمع الأموال، لا سيما وأن مدة حكمهم كانت محدودة – في أزمة مفتوحة [32]، فأفراد الأوجاق حاولوا الاستيلاء على السلطة الفعلية ونزعها من أيدي الباشوات، وأصبحت مهمة الباشا تتمثل في دفع أجور الإنكشارية، وإذا عجز عـن ذلـك يـثور ضدّه هؤلاء ويرمى في السّجن [33]. وإذا عُين باشا متسلّط فإن الإنكشـارية تقـيله مـن منصبه كما حصل في 1633 عندما سجن الشيخ حسين واستلم الديوان زمام السلطة، مما اضطرّ الباب العالي لإرسال باشا آخر [34].

وقـــد استمر الأوجاق في القضاء على صلاحيات الباشا بالتدريج حتى نُزعت منه مهمـــة دفع أجور الإنكشارية التي منحت لرئيس طائفة الرياس في تلك الفترة، وهو عـــلي بتشين [35]. وقد خشي الباب العالي من توسع سلطة هذا الأخير فأرسل له من يقـــتله، وعـــندما علم الأهالي بالأمر ثاروا، ممّا اضطر علي بتشين إلى التدخل لتهدئة الموقـــف، وأمام لباقته وحسن تصرفه ولّته السلطة العثمانية إمرة الأسطول، غير أنه مات قبل استلامه هذه المهام السامية [36].

لم يقتصر عهد الباشوات على الصراع على السلطة بين الأوجاق والباشا وإنما تجاوز ذلك إلى التأثير على الجوانب الاجتماعية، فالباشا الذي لا يمكث في الإيالة سوى ثلاث سنوات لا تكفيه هذه المدة لفهم تعقيدات الحياة السياسية والقضايا المطروحة في الإيالة [37] وبمجـــرد أن تشحّ أموال الخزينة، كان الباشوات يلجؤون إلى فرض الضرائب على المدن والأريـــاف، مثـــلما حـــدث في 1634 في عهد يوسف باشا [38]، مما يفتح المجال أمام التمرّدات التي تكاثرت في عهد الباشوات.

فقد ظهرت سلسلة من الثورات في منطقة القبائل الذين رفضوا دفع الضرائب في عهـــد خضـــر باشا (1589-1592)، وتجدّدت في عهد خلفه شعبان باشا، ثم في 1640 في عهد أبي جمال يوسف باشا، كما أدى سوء التسيير وثقل الضرائب كذلك إلى اشـــتعال الشرق الجزائري بالثورات، وامتنع الأهالي عن دفع الضرائب [39]. كما ظهـــرت أول ثـــورة للكراغلة في عهد الباشوات، وهذا بسبب سياسة الإقصاء التي انتهجـــتها الســـلطة، فـــإذا كانت فترة البايلربايات قد فتحت أبوابها لكل العناصر والشـــرط الوحـــيد هـــو القدرة والخبرة، فإن عهد الباشوات عرف طغيان العنصر العثماني وحده، وانتهت بمقتل عدد كبير من الكراغلة وفرار من تبقى [40].

هـــذه إذن هـــي أوضـــاع الإيالة الداخلية خلال فترة الباشوات، أما الأوضاع الخارجية فلم تكن بأحسن حال.

كانت الدولة العثمانية تحاول أن تفرض على الأوجاق والتجارة في الجزائر رؤيتها للسياســة الخارجــية حسب مصالحها، دون مراعاة للمصالح الجزائرية، وهو الشيء الذي لم يرق للأوجاق والبحّارة الذين يرفضون الامتثال لأوامر الباب العالي، وكانت العلاقات مع فرنسا من أهم المواضيع التي أذكت التراع بين الباب العالي والجزائر.

فابـتداء من عهد مصطفى باشا (1596ـ 1599) استفادت فرنسا من امتيازات قنصـلية في الجزائـر، غير أن وقوع تجاوزات في عهد خضر باشا جعلت الجزائريين يهدّمـون المركز التجاري الفرنسي بالقالة ويسجنون قنصلها. ثم عقدت معاهدة مع فرنسـا في عهـد محمد كوسة باشا تقضي بإعادة بناء مركز القالة وتحرير الأسرى الفرنسـيين، غير أن الديوان رفض تنفيذ هذه المعاهدة، فأرسل الباب العالي مندوبا لإقناع الديوان، ولكن هذا الأخير لم ينجح، بل ثار أهل الجزائر ورجال الديوان على المندوب وعلى الباشا ممثلَيْ الباب العالي[41]، واستمرت العلاقات بين الجزائر وفرنسا جد متوترة طيلة فترة الباشوات.

أمـا فيما يخص بقية القوى فقد شجعها بدورها حال الفوضى الداخلية والصراع بـين الأوجـاق والرياس من جهة والباشا والباب العالي من جهة أخرى، مما جعل الجزائر تصبح هدفا للاعتداءات الغربية خلال فترة الباشوات، ففي عهد محمد كوسة باشا (1603ـ 1605) تعرضت أزفون لهجوم إسباني، وفي 1607 هاجم الطوسكان عنابة وفي 1610 هاجم الإسبان جيجل، كما حضرت سفن هولندية أمام السواحل الجزائرية واضطر الديوان إلى عقد اتفاقية مع هولندا، كما عقد الديوان اتفاقية تجارية مع إنجلترا في عهد أحمد باشا (1653ـ 1655) بعد حملة إنجليزية على الجزائر[42].

رغـم الفوضى الداخلية وازدياد الأطماع الغربية فإن السلطان واصل طلب المساعدة مـن بحّـارة الجزائر وكان ذلك في 1639 عندما دخلت الدولة العثمانية في حرب مع البـنادقة، فذهـب الأسطول الجزائري بقيادة علي بتشين، وبسبب حدوث زوابع بحرية

شـــديدة لجأ الأسطول إلى خليج فالونا، فاغتنم البنادقة الفرصة وانقضّوا عليه ملحقين به خسائر معتبرة، وتمكن علي بتشين من إنقاذ بعض المراكب بصعوبة [43].

كانـــت هـــذه الحادثة منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات بين الباب العالي وبحّارة الجزائر، إذ أن هذه الأخيرة تقع في منطقة ثغر ولا يمكنها أن تبقى بدون أسطول، لأن الأخطـــار تحـــيط بهـــا من كل مكان، ومادام السلطان رفض تعويض بحّارة الجزائر ليتمكنوا من إعادة بناء الأسطول فقد قرّر هؤلاء عدم المشاركة مستقبلا في مساعدة السلطان في حروبه إلاّ إذا ضمن لهم التعويض عن الخسائر.

اعتبارا لكل ما سردنا يمكن أن نستخلص أن نظام الباشوات الذي فرضه السلطان على الإيالة ابتداء من 1587 كانت له نتائج وخيمة على البلاد والعباد، إذ تسبب في شيوع الفوضى والاضطرابات وفتح الباب للتراع بين الباشا (ممثل السلطان الذي لم يكن له دراية بشؤون البلاد والأوجاق والبحّارة، وأقنع هؤلاء بضرورة التخلص من ضغط الباشا، فكانت ثورة الأغوات التي شكلت فصلا آخر من فصول تطور النظام السياسي في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

ج . مرحلة الآغوات (1659ـ 1671) :

في عـــام 1659 قـــرر الجـــند حسم الصراع القائم بينهم وبين الولاة العثمانيين أي الباشوات حيث قرر الديوان[44] إلغاء منصب الباشا وإسناد السلطة إلى قادة الأوجاق[45]

وقـــد كانـــت سياسة الباشا ابراهيم[46] سببا مباشرا في ذلك وبمثابة الفتيل الذي أضـــرم نار ثورة الجند. إن امتناعه عن تسديد أجور الجند واقتطاع مبلغ من المكافأة الموجهة لطائفة الرياس من قبل السلطان، جعل المؤسسة العسكرية بشقيها تثور عليه وتقرر إلغاء منصب الباشوية[47]. ويمكن القول أن الجزائر منذئذ دخلت مرحلة حاسمة مـــرحلة ســـيطر فيها الجند على السلطة. ويعد هذا الحدث منعرجا حاسما في تاريخ

العلاقات بين الدولة العثمانية والمركز إذ كان تمردا واضحا على السلطان العثماني.

وبعد ما زج الجند بالباشا إبراهيم في السجن، أرسل السلطان الباشا علي ليستلم مهامه لكنه وجد وضعا سياسيا صعبا للغاية بسبب العصيان الصريح الذي أعلنه الجند ضد أي مظهر لتبعية السلطان فألقوا عليه القبض رفقة من رافقوه ووضعوهم على متن سفينة وعاد من حيث أتى[48]. ولما علم الصدر الأعظم محمد كوبرلو باشا بمجريات أحداث الجزائر أصدر أمرا بقتل الباشا علي الذي أخفق في فرض هيبة السلطان. وفي الوقت ذاته أرسل فرمانا شديد اللهجة إلى الجزائريين جاء فيه : "... لن نرسل إليكم واليا بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر ... إذا اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضيين ..." [49].

لكن الآغا خليل الذي حمل لواء الثورة لم يبق في سدة الحكم سوى سنة واحدة وكانت نهايته الاغتيال عام 1660 [50] وخلفه الآغا رمضان الذي بادر إلى إعادة العلاقات مع الباب العالي حيث رجعت العلاقات إلى وضعها الطبيعي[51] إذ أرسل الباشا إبراهيم عام 1661 [52]. لكن قبول الجند بالباشا كان مشروطا حيث جردوه من جل الصلاحيات مثلما لخص ذلك عزيز سامح إلتر : " سلموه إدارة خاصة به لكنهم قرروا أن الأحداث الأساسية والإدارة الفعلية بيد آغاهم ... "[53]. مما جعل النظام السياسي منذئذ يتميز بالازدواجية من الناحية النظرية أما في الواقع فقد كانت السلطة الفعلية بيد الآغوات.

ولم ينجح الآغا رمضان هو الآخر في الاستمرار في السلطة إذ لقي حتفه على يد الجند عام 1661 ؟ وفي أعقاب ذلك تولى السلطة الآغا شعبان الذي يظهر أنه استطاع أن يفرض نفوذه بمساعدة جماعة "الأوضاباشية"[54] وأن يمدد في عهدته حيث حكم نحو أربع سنوات رغم الأوضاع العصيبة التي كانت تمر بها البلاد سيما تأزم العلاقات الخارجية مع فرنسا لكن نهايته كانت الاغتيال على يد الجند عام 1665 [55]

وخلفه الحاج علي آغا الذي كان يهدف إلى وضع حد للفوضى ولعصيان الجند وقد نجح في فرض كلمته على الجند وعلى ممثل السلطان على حد سواء [56] مما سمح له بالبقاء في السلطة نحو ست سنوات 1665-1671.

وتشكل وفاة الحاج علي آغا منعرجا خطيرا في الحياة السياسية إذ شهد قصر الجنينة حالة من الفوضى والاضطراب لم يعرف نظيرا لها مما جعل الآغوات يمتنعون عن ترشيح أنفسهم لسدة الحكم.

وكانت السمة البارزة التي ميزت عهد الجمهورية العسكرية هي عدم الاستقرار وتوالي اغتيال الحكام إذ لم ينج حاكم واحد من النهاية الدموية. والحقيقة أنه من الصعب تفسير تلك الظاهرة، لقد أرجع البعض ذلك إلى تشبث الآغوات بالسلطة ومحاولة تمديد مدة الولاية المحددة بسنة واحدة[57]. بينما أرجع البعض الآخر ذلك إلى الديمقراطية القائمة في مؤسسة الأوجاق التي كانت تسمح لكل الضباط بالارتقاء إلى منصب الآغا الذي لا يدوم سوى شهرين[58] مما جعل كل أعضاء الأوجاق يطمحون للوصول إلى السلطة وكان ذلك سببا في تأزم الوضع السياسي.

د. مرحلة الدايات (1671-1830) :

عهد الدايات الأول 1671–1710 :

أخفق قادة الجيش الإنكشاري، الآغوات، إخفاقا واضحا في إرساء قواعد نظام جديد. إذ عجزوا عن تحقيق الاستقرار فتميز عهدهم بإراقة الدماء و الفوضى والاضطراب، وهي أوضاع لم تشهدها البلاد قط. و بعد تجربة الجمهورية العسكرية الفاشلة آلت السلطة إلى طائفة"رياس البحر" القوة المحلية المنافسة للجيش الانكشاري.

وتجدر الإشارة إلى أن ظروف انتقال السلطة من قادة الجيش البري إلى قادة الجيش البحري غير واضحة، و تفسريها محل خلاف بين المؤرخين[59] إذ ذهب فريق

إلى القـــول أن قادة الجيش الانكشاري حينما أدركوا خطورة تأزم الوضع السياسي انسحبوا من الحكم لصالح " طائفة رياس البحر"[60]. بينما يرى فريق آخر أن "طائفة رياس البحر" اغتنمت اضطراب الأوضاع و استولت على السلطة[61] وبالاستناد إلى الـــرأي نفســـه فـــإن ظهور نظام الدايات[62] يمثل انتصار قادة الجيش البحري على نظائرهم قادة الجيش البري في إطار التنافس الحاد بين القوتين، الذي تعود بداياته إلى عهد البايلربايات[63].

و هكـــذا فإن طائفة رياس البحر كانت وراء تأسيس نظام جديد أضحى يعرف بنظام الدايات وهو نظام قام على مبدأ الانتخاب دون تحديد للمدة الزمنية .

اســـتهل عهد الدايات بالقبطان الحاج محمد التريكي الذي كان من قدماء رياس الـــبحر. وبعد مضي أيام قلائل عين الديوان بابا حسان شاوش. وكان صهرا للداي لتســـيير دفـــة الأمـــور نظـــرا لهرم الداي الحاج محمد التريكي[64] ويظهر أن الجيش الانكشـــاري ابتعد عن التدخل في الحياة السياسية. مما ساعد على الاستقرار حيث دامت ولاية أول داي إحدى عشرة سنة (1671-1682) وهي فترة طويلة نسبيا إذ تعـــادل عهـــد الآغـــوات. كما أن نهايته لم تكن مأسوية مثلما كان الحال في عهد الآغـــوات. بل اعتزل السلطة[65]، فتولاها من بعده صهره بابا حسن. لكن الأوضاع الخارجية و بخاصة تصدع العلاقات بين الجزائر و فرنسا واحتدام الصراع بين البلدين عجل بنهاية الداي "بابا حسن"[66] .

فعلى إثر القصف الفرنسي الرهيب لمدينة الجزائر، تكبدت المدينة خـــسائر فادحة[67]. و في غضـــون تلك الأحداث أطاح الرايس الحاج حسين ميزومورتو[68] الذي كان يتصدر الطائفة وقتئذ بالداي بابا حسن و أصبح دايا. لكن الداي الحاج حسين الذي خاض غمار الحرب ضد جيوش لويس الرابع عشر "الملك الشمس" وأحرز الانتصار على الفرنسيين مما جعل السلطان العثماني يضفي عليه لقب باي لرباي[69]، اضطر إلى مغادرة مدينة الجزائر في شهر يوليو عام 1689.

ويظهــر أن ما تعرضت له المدينة من أضرار فادحة من جراء القصف الفرنسي، جعل الرأي العام ثائرا و غاضبا على تصلب و تعنت ميزومورتو إزاء الفرنسين.

وبالإضافة إلى ذلك فإن خوض الحرب ضد التونسيين أدى إلى تذمر و تمرد الجيش و تزعم التمرد الآغا شعبان واستولى على السلطة[70].

تــولى الــداي شعبان سدة الحكم في ظروف حرجة للغاية إلا أنه نجح في إحراز انتصــارات عســكرية حاسمة ضد خصومه. لقد انتصر انتصارا باهرا على السلطان المغربي مولاي إسماعيل في واقعة وادي الملوية، في 04 جويلية 1692 [71]. و يعد الداي شــعبان بــلا منازع أحد الحكام الذين نجحوا في فرض مكانة الجزائر الدولية وقتئذ. وعلى الــرغم مما حققه على المستوى الداخلي و الخارجي على حد سواء فإنه لم ينج من غضب الجند الذين اغتالوه عام 1695 [72] فخلفه الحاج أحمد (1695-1698) الذي كــان من قادة الجند الانكشاري و على إثر وفاة هذا الأخير بوباء الطاعون[73] خلفه حسان باش شاوش قارة برلي[74].

لكــن أحــداث تونــس ومــا تسببت فيه من تذمر في صفوف الجند أجبرته على الانســحاب من السلطة، وسمح له الديوان بمغادرة الجزائر فتوجه إلى طرابلس و منها إلى مصر[75] وخلفه الحاج مصطفى[76].

ويلاحــظ أن الضــغوط الخارجية التي واجهها الدايات الأوائل، أضعفت طائفة ريــاس الــبحر، وسمحت للجند بالتدخل ثانية في الحياة السياسية. وأضحى اختيار الدايــات وانــتخابهم يتم خارج طائفة رياس البحر. فكل الذين تولوا السلطة بعد الــرايس الحاج حسين ميزومورتو كانوا إما من الجند الانكشاري مثل الآغا شعبان والآغا الحاج أحمد، أو من الموظفين الساميين مثل حسان باش شاوش.

وواجه الدايات الذين تعاقبوا على السلطة في هذه الحقبة المشاكل نفسها والمتمثلة أساسا في : ازدواجية السلطة، وتوتر العلاقات الخارجية و تمردات الجند المستمرة.

عهد الدايات الثاني أو مرحلة الإنفصال عن الباب العالي 1710-1830 :

مــنذ أن وصل الدايات إلى السلطة، عملوا على القضاء على ازدواجية الحكم من خــلال إلغــاء منصــب الباشــا ممثل السلطان. وتعد محاولة الداي الحاج حسين ميزومورتو من المحاولات الأولى التي كانت تهدف إلى تأسيس حكم محلي بمنأى عن نفــوذ الســلطان. ففــي عام 1688 عارض بكل قوة قدوم الوالي العثماني الباشا اسماعــيل، الــذي عاد من حيث أتى، نتيجة الموقف المحلي الرافض لتبعية السلطان والــرافض لازدواجــية السلطة [77]. ويظهر أن الداي الحاج حسين نجح في الانفراد بالســلطة، حيث جمع بين سلطة الداي وسلطة الباشا في آن واحد [78] غير أن هذه التجربة لم تعمر طويلا ورجعت الجزائر إلى نظام الازدواجية.

وفي عــام 1710 حينما ارتقى الداي علي شاوش السلطة بادر إلى إلغاء منصب الباشــا ممــثل السلطان حتى يضع حدا نهائيا لازدواجية السلطة. فعندما حل الباشا إبراهيم شركان كأمير للأمراء بالجزائر عارض استقباله و لم يقدر الوالي العثماني على فــرض هيــبة السلطان[79]. ونجح الداي علي شاوش في إقناع السلطان أحمد الثالث بمساوئ ازدواجية السلطة. إن قوة الحجة لدى علي شاوش مع الهدايا الفاخرة أقنعت الســلطان بوجهة نظره[80]. ومنذئذ أقر السلطان الأمر الواقع و أضحى حكام الجزائر يجمعون بين منصب أمير الأمراء والداي بشخصهم. وغدا يستعمل في الفرمان الوارد من استنبول : " **إلى أمير أمراء الغرب ودايها** "[81].

إن الجمــع بين السلطتين واللقبين أكسب الدايات نفوذا كبيرا و فسح لهم المجال لممارســة سلطتهم بشكل فعلي. فالداي علي شاوش أدار البلاد بشكل جيد وفرض كلمــته على مؤسسة الديوان. حيث سار الديوان على ما أوصى به، فلما أصابه داء الملاريا وأدرك أن أيامه معدودة أوصى بأن يخلفه أحد وزرائه وهو محمد الخزناجي[82] بــن حسن الذي تولى السلطة في أفريل 1718 دون معارضة تذكر. ويعد هذا القرار

بمثابة خطوة حاسمة في سبيل وضع دعائم نظام سياسي بمنأى عن هيمنة الجند إذ أصبح تعيين الدايات يتم ضمن الوزراء. وسار الداي محمد بن حسن (1718-1724) على النهج الذي رسمه سالفه حيث عارض كل محاولات الباب العالي في التدخل في شؤون الجزائر. كما سعى إلى القضاء على نفوذ طائفة رياس البحر فثار الرياس ضده وقتلوه[83].

و في أعقاب وفاة الداي محمد الخزناجي أسندت السلطة إلى كرد عبدي (1724-1732) الذي كان يشغل منصب آغا العرب ويدير أيضا بايليك التيطري[84].

و قد عمل الدايات الذين تولوا السلطة خلفا للداي علي شاوش على الحفاظ على ما حققه هذا الأخير حيث تمسكوا بمبدأ الاستقلال عن الباب العالي، إذ عارضوا كل محاولات التدخل في شؤون الجزائر. كما رفضوا بشدة بالغة قبول الباشا المبعوث من طرف السلطان. ففي عام 1729 حينما حاول السلطان فرض نفوذه من جديد حيث أرسل باشا يدعى علي درناوي عارض الداي كرد عبدي باشا استقباله.[85] وكانت هذه المحاولة آخر محاولة من قبل الدولة العثمانية تهدف إلى فرض ممثل عنها. و عقب وفاة الداي كرد عبدي ارتقى إلى السلطة ابراهيم الخزناجي وأحرز هو الآخر على لقب الباشا [86].

و ابتداء من العقد الثاني من القرن الثامن عشر عرف نظام الدايات استقرارا واضحا وهو ما نلمسه في طريقه انتخاب الداي كما نلمسه أيضا في مدة الولاية إذ تعاقب على السلطة خلال مائة وعشرين سنة 1710-1830 سبعة عشر دايا[87].

وبلغ وسطي معدل البقاء في السلطة ثماني سنوات، وهو مؤشر على استقرار النظام السياسي. لكن أكثر الفترات استقرارا هي تلك الممتدة من العقد الثاني من القرن الثامن عشر إلى أواخر التسعينات من القرن نفسه 1710-1791 فخلال 88 سنة تعاقب على السلطة ثمانية دايات وهم على التوالي : "الداي علي شاوش 1710-1718 ومحمد بن حسن 1718-1724 وكرد عبدي 1724-1732 وابراهيم باشا

1732-1745 وابراهيم كوجك 1745-1748 ومحمد بكير 1748-1754 وعلي نقسيس أو بوصبع 1754-1766 ومحمد عثمان باشا 1766-1791 الذي يعد عهده أطول العهود قاطبة[88].

أما الفترة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر وتحديدا بعد الداي حسن الذي دامت ولايته سبع سنوات (1791-1798)[89] وكانت وفاته طبيعية إلى غاية انهيار الحكم العثماني فقد تميزت بعدم الاستقرار. إذ عاد الجند إلى سابق عهدهم، إلى العصيان و التمرد، و أضحوا يعينون ويعزلون الحكام حسب هواهم[90].

وكانت تداعيات ذلك جلية حيث انخفض معدل البقاء في السلطة إلى أربع سنوات. وهو ما يبدو جليا ابتداء من عهد الداي مصطفى باشا (1789-1805) الذي أطاح به الجند بعد ثلاث محاولات فاشلة[91]. ومنذئذ لم ينفك الجند عن التدخل الواضح في الحياة السياسية و يفيض كتاب الإخباري أحمد الشريف الزهار بالعبارات التي تنم عن مدى تعاظم دور الجند في تعين و عزل الحكام، حيث كثيرا ما نقرأ :

"استقدمه العسكر لدار الإمارة .... ".. و بعد ما ثار العسكر و قتلوه....." ولما قتلوا..... ذهبوا إلى القشلة و أتوا بـ...... "، " ثم وصل العسكر إلى دار الإمارة وأجلسوا ..... "[92].

وكانت نهاية معظم الحكام الاغتيال على يد الجند. فالداي الوحيد الذي كانت وفاته طبيعية هو الداي علي باشا في هذه الحقبة رغم ما اتسمت به سياسته من صرامة إزاء الجند. و يفسر ذلك بتغيير مقر السلطة من قصر الجنينة إلى القصبة، واضطهاد الجند[93]. كما استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على الأتراك بإسناده لجميع الوظائف إلى عدد هام من الكراغلة و الحضر. وكان يهدف من وراء ذلك إلى إزاحة العنصر التركي من الحياة السياسة والاستناد إلى قوة محلية[94].

و رغم حالة عدم الاستقرار التي ميزت هذه الحقبة بوجه عام فقد نجح الدايات الأقوياء في أن يعـيدوا للسلطة مظهرها القوي وهيبتها، ومن هؤلاء الحاج علي باشا (1809-1815) والـداي عـلي خوجة (1817-1818) والداي حسين (1818-1830)[95]. وشهدت البلاد في عهد الداي الأخير استقرارا سياسيا إذ دامت ولايته اثنتا عشرة سنة. وخلال هذه المدة انصبت جهوده على تنظيم أمور الدولة وتحقيق الأمن والاستقرار حيث قضـى على التمردات والثورات الداخلية سيما الثورة التيجانية بناحية عين ماضي. لكن الضـغوط الخارجـية التي جسدتها قرارات مؤتمر آكس لاشابيل القاضية بإلغاء ممارسة الاسترقاق والتوقف عن ممارسة الغزو البحري والحملة الإنكليزية عام 1824 ثم الحصار الفرنسي، عجلت بالقضاء على الكيان السياسي للجزائر.

الهوامش :

1. JULIEN. C.A, Histoire de l'Afrique du Nord, T2 de la conquête arabe à 1830. Tunisie, Algérie, Maroc, 2ème ed. revue et remise à jour par R. Letourneau, Payot, Paris, 1952, p266

2. BOYER. P, "Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger", Revue historique, Avril - Juin 1966, p 303.

3. تعني كلمة بايلرباي، أمير أمراء.

4. DIEGO DE HAEDO. F, Histoire des rois d'Alger, trad de l'espagnol et notes de Henri Delmas de Grammont, présentation de Abderrahmane Rebahi, ed Grand-Alger - livres, Alger, 2004.

5. « Les dirigeants de l'Algérie pendant la période turque (1515 - 1830)" extrait de l'Encyclopédie turque Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb, 1969.

6. يقـول السـلطان في هذه الرّسالة : "إذا لم يقبل المومى إليه (أي حسن بن خير الدين) بذلك المنصب فمن تراه أهلا من الأمراء وغيرهم بتلك الإمارة فلتعلمنا عن الشخص القادر على ضبط وربط تلـك الولاية، وعمّن يُحسن معاملة أهالي الغرب، كي يتم بموجب ذلك توجيه تلك الإمارة إليه، حتى يتسنى ضبطها على النحو المطلوب". انظر:

الدفاتر المهمّة، رقم 16 حكم 563 بتاريخ 11/06/ 979 هـ ص 319 ـ 320.

7. كـان ذلـك إثـر وفاة صالح رايس في 1556 وتعين الإنكشارية لحسن قورصو وعدم قبولهم بمبعوث السلطان.

8. BOYER, Introduction, Op.cit, pp 299 - 300

9. لمعلومات أكثر حول الموضوع أنظر:

DEVOULX. A, "La première révolte des janissaires à Alger" Revue africaine, T15, 1871, pp 1 - 6

10. BOYER, Introduction, Op. cit, p. 300

11. GAID. M, L'Algérie sous les Turcs, ed Mimouni, Alger, 1991, p 94.

12. سعيدوني ناصر الدين، "رسالة من أعيان قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح رايـس (963 هـ - 1555م)"، تحية تقدير للأستاذ شارل روبير آجرون، إعداد وتقديم عبد الجليل التـميمي، منشـورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات افترسي، زغوان، جوان 1996، ص 165 - 166.

13. نفسه، ص 164 ــ 165.

14. لمعلومـــات أكثر عن الموضوع انظر: بوحمشوش نعيمة، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1999، ص 74 - 75.

15. نفسه، ص 81 - 83.

16. انظـــر في هذا الشأن: بوعزيز يحيى، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500 – 1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون تاريخ، ص 45 - 46.

17. انظر لمعلومات أكثر:

VERONNE. C, de la "Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVe S. et le début du XVIIe S. (1554 - 1616)" in Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, n° 15 - 16, 1973, pp 391 – 402

18. KURDOGLU. F, Garb Ocaklarinin Tesekkülü, Oruç ve Hizir Barbarossa Kardesler. Deniz Matbaasi, Istanbul 1935, pp 279 – 281.

19. MANTRAN. R, "Echo de la bataille de Lépante à Constantinople" in l'Empire Ottoman du XVIe au XVIIIe S. London 1984, p 252.

20 . للمزيد من المعلومات انظر:

بوحمشوش نعيمة، المرجع السابق، ص 96 - 101، 102 - 117، 119 - 144، 146 - 169.

21. Garrot. A, Histoire générale de l' Algérie, Alger, 1910, p.441

22. كانت أوّل معاهدة في 1580 ثم جدّدت في السنوات الموالية

23. Boyer, Introduction, Op cit, p. 304

24. Ibidem.

25. إلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، دار النهضة العربية، بيروت 1989، ص 772.

26. Les dirigeants de l'Algérie Op cit

27. استانكويلي: من استانكوي، ضاحية في اسطنبول.

28. بورصالي: من بورصة، مدينة تركية.

29. كاتانيالي : من كاتانيا.

30. Boyer.P, "Des pachas triennaux à la révolte d'Ali Khodja Dey (1571-1817)" Revue historique, Juillet- Septembre, 1970, p 102.

31. Les dirigeants de l'Algérie Op.cit.

32. Boyer.P, "Alger en 1645" d' aprés les notes du R.P Herault", Revue de l' occident musulman et de la Méditerranée, 1er Sept 1974, p 19.

33. IBID, pp 19 - 20

34. المـــدني أحمـــد توفيق، الداي محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766ــ 1791، سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986، ص 38.

35. Boyer.P, Alger en 1645, Op.cit, p 21

36. المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص38

37. وولف.ج. ب، الجزائر وأوروبا، 1500-1830. ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 134.

38. Boyer.P, Alger en 1645, Op.cit, p 21

39. إلتر. ع. س، المرجع السابق، ص 356 ــ 357، 364 ــ 367.

40. Boyer.P, "le problème Kouloughli", Revue de l'Occident musulman et de la Mediterranée, 1970

41. المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص 33.

42. نفس المرجع، ص 33، 34، 36، 39.

43. بوعزيز يحيى، المرجع السابق، ص 73.

44. BOYER, P «la révolution dite des «aghas » dans la régence d'Alger (1659-1671) » Revue de l'Occident musulman et la Méditerranée, n°13 et 14, 1973. P163.

45. الأوجـــاق كـــلمة تركية تعني الموقد. وكان الجيش الانكشاري في الجزائر مقسما إلى وحدات صـــغيرة تدعـــى الأوجاق بلغ عددها أربعة وعشرين وأربعمائة أوجاقا . ثم صار المصطلح يطلق على مؤسسة الجيش الانكشاري بوجه عام . راجع :

Deny, J, Les registres de soldes des janissaires conservés à la bibliothèque nationale d'Alger, Revue Africaine, 1943.

- COLOMBE, M, «L'Algérie Turque» in initiation à l'Algérie , librairie d'Amérique et d'Orient , Paris,1957.

- COLOMBE, M, «Contribution à l'étude du recrutement de l'odjak d'Alger» Revue africaine, T87, 1943.

46. تولى الباشا ابراهيم السلطة عدة مرات في الفترة الممتدة ما بين 1656-1659.

47. سبنسر،وليم الجزائر في عهد رياس البحر،تعريب وتعليق عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1980. ص 73

48 إلتر، عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1984، ص200-201.

49. نفسه.

50. BOYER, «la révolution», Op. cit p163.

51. BOYER, «la révolution» p164.

52. BOYER, Pierre, «introduction à une histoire intérieure de la régence d'Alger » Revue historique, 1966-p301.

53 . إلتر، الأتراك العثمانيون، سبق ذكره، ص388.

54- BOYER, «la révolution, Op. cit p165.

55 - GRAMMONT, Henri de, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), présentation de lemnouar Merouche, Eds. Bouchène, Paris 2002.

56- DELPHIN, Georges, «Histoire des pachas d'Alger de 1515-1745». Journal Asiatique, série n° 19, 1922.

57. هذا ما ذهب إليه وليم سبنسر .

58 . GRAMMONT, Op. cit

59. سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، سبق ذكره، ص 74.

60. حول الموضوع راجع :

- BOYER, «la révolution», Op. cit
- GRAMMONT, Histoire d'Alger, Op. cit .

61. سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، سبق ذكره، ص 74.

62. كلمة تركية -عثمانية مفردها داي وتعني الخال أو الحامي.

63. حول التنافس راجع :

- BOYER, «la révolution», Op cit.

- GRAMMONT, Histoire d'Alger, Op cit.
- Albert, DEVOULX, «Assassinat du Pacha Mohamed.Tekelerli», Revue africaine, T15, 1871.

64. يشير صاحب تاريخ باشوات الجزائر إلى الحاج حسين التريكي.

65 DELPHIN, « Histoire des pachas», p 205.

66 حول الصراع الفرنسي الجزائري راجع :

- غطاس، عائشة، العلاقات الجزائرية —الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619-1694) رسالة ماجستير، الجزائر 1986.
- قنان، جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830 ، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.
- قنان، جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، الموسسة الجزائرية للطباعة، 1987.

67. غطاس، العلاقات الجزائرية، سبق ذكره.

- وولف، جون ب، الجزائر وأوروبا 1516-1830، ترجمة وتعليق : أبو القاسم سعد الله، الموسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

68. الداي **الحاج حسين ميزومورتو** إحدى الشخصيات البارزة ومن رياس البحر المتميزين. بدأ يبرز في النشاط البحري ابتداء من عام 1670. ونظرا لما حققه من انتصارات ذاع صيته. ارتقى إلى منصب الداي في ظروف غير عادية ففي غضون القصف الفرنسي الذي تعرضت له مدينة الجزائر في صائفة 1683 وبينما كان أحد رهائن المفاوضات، نجح بفضل حنكته في إقناع قائد الحملة الفرنسية دوكين بالإفراج عنه وإثر ذلك سارع إلى الإطاحة بالداي بابا حسن الذي نزل عند الشروط الفرنسية، حكم الفترة الممتدة من 1683-1689.

وانظر أيضا :

Merouche, l, recherches sur L'Algérie à l'époque ottomane, tome 2.
La course, mythes et réalité, Bouchène, paris, 2006.

69. سبنسر، المرجع السابق، ص 166.

70. الداي شعبان من أبرز دايات الجزائر عاصر السلطان المغربي مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر الملك الشمس، ملك فرنسا. إن الأخبار بشأن حياته قبل توليه سدة الحكم شحيحة وتتلخص في كونه كان أحد رياس البحر. تولى السلطة في أعقاب فرار الداي الحاج حسن ميزومورتو عام 1689 إلى غاية 1695. وتميز عهده بالصراع مع فرنسا من جهة ومع المغرب الأقصى وتونس من جهة أخرى.

- حول هذه الشخصية راجع :

- بالحميسي مولاي، إرشاد الحيران في أمر الداي شعبان، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، عدد2، 1896. ص 39-56.

- سعد الله أبو القاسم، من أخبار الداي شعبان 1695، مجلة التاريخ، عدد خاص 18-1985 ص 107-123.

Albert DEVOULX , Tachrifat , recueil de notes historiques sur l'administratuon de l'ancienne régence d'Alger , Imp du gouvernement , Alger , 1852.

71. سعيدوني ناصر الدين، « الداي شعبان 1695»، معجم مشاهير المغاربة ، جامعة الجزا 1995. ص 205-211.

72. EMERIT, Marcel, «un mémoire sur Alger par Pétis de la Croix, 1695 » 1953, extrait des Annales de L'I.E.O. Alger, carbonel. P

73. GRAMMONT, Histoire d'Alger, Op cit, 221.

74. DELPHIN, « Histoire des pachas, Op cit p 205

75. DELPHIN, « Histoire des pachas, Op cit p 206

76. الداي الحاج مصطفى حكم من 1700-1705 تميز عهده بتوتر العلاقات مع تونس والمغرب الأقصى على حد سواء.

77. GRAMMONT, Henri de, «lettre d'Ismaël pacha à louis XIV -1688 » Revue africaine, T28, 1884.p

78. DELPHIN, « Histoire des pachas p 205

79. إلتر، الأتراك العثمانيون، سبق ذكره، ص 463.

80. نفسه.

81. إلتر، الأتراك العثمانيون . بينما يقدم دي قرامون رواية أخرى عن ظروف اغتيال الداي إ نسب ذلك إلى الجيش الإنكشاري وذكر أن مدبر المؤامرة كان يقيم بالثكنة المعروفة بثكنة البحرية. انظر :

- GRAMMONT, Histoire d'Alger, Op cit p 231.

82. GAID, L'Algérie sous les turcs, Op cit p85.

83. DELPHIN, Histoire des pachas, Op cit p208.

84. GAID, L'Algérie sous les turcs, Op cit, p 157.

85. GRAMMONT, Histoire d'Alge, Op cit, p 233.

86. إلتر، الأتراك العثمانيون، ص 463.

87. وهم على التوالي : علي شاوش 1710-1718 ؛ محمد بن حسن ؛ 1718-1724 ؛ كرد عبدي 1724-1732 ؛ ابراهيم 1732-1745 ؛ ابراهيم كورجك 1745-1748؛ محمد بكير 1748-1754 ؛ علي نقسيس الملقب بوصبع 1754-1766 ؛ محمد عثمان 1766-1791 ؛ حسن 1791-1798 ؛ مصطفى 1798-1805 ؛ أحمد 1805-1808 ؛ علي الغسال 1808-1809 ؛ والحاج علي 1809-1815 ؛ محمد 1815 ؛ عمر 1815-1817 ؛ علي خوجة 1817-1818 ؛ حسين 1818-1830.

88. حول الداي محمد بن عثمان باشا راجع :

- الزهار أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف

- المدني أحمد توفيق، محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

89. الداي حسن باشا حكم في الفترة الممتدة من 1791-1798. يصفه الإخباري أحمد الشريف الزهار بمايلي : " ... كان عارفا عاقلا وله فطانة في الأمور غير أنه في بعض الأحيان كان يعتريه الحمق حتى يفعل أمورا لا تصادف محلا ..."

لمزيد من الأخبار حول الداي حسن راجع:

- الزهار، مذكرات، سبق ذكره، ص 63-70.

- GRAMMONT, Histoire d'Alger, Op cit, p 275, et sq.

90. خوجة، حمدان بن عثمان ، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 ص 149.

91. الزهار، مذكرات، ص 80، 88.

92. نفسه.

93. أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، الجزائر م.و.ك 1989، ص71.

- الزهار، مذكرات، سبق ذكره، ص 134.

- عبد القادر نور الدين، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث قسنطينة، 1965. ص 120.

94. دردو، الجزائر في مولفات، سبق ذكره، ص 71-72.

95. الداي حسين أخر دايات الجزائر 1818-1830 ولد بقرية Vurla الواقعة على الشاطئ الجنو لأزمير الـمتحق بالجزائر. تولى عدة مناصب إدارية إلى أن أصبح وزيرا ثالثا أي خوجة الخيل في عه الـداي عمـر 1814-1817 ثم في عهـد الداي علي خوجة وفي أعقاب وفاة هذا الأخير تولى سد الحكـم. وفي أعقاب الحملة الفرنسية توجه إلى فرنسا ليشكو ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم ثم انتق إلى إيطالـيا ويـبدو حسبما ذهب إليه البعض سعى إلى الرجوع إلى الجزائر لينظم المقاومة لكنه أخف فسار إلى الإسكندرية حيث توفي هناك عام 1838.

المبحث الثاني : الجيش الإنكشاري

من إعداد الأستاذة زلية زهرة.

مقدمة :

عرفـت الجزائـر إبـان الحقبة العثمانية تنظيما عسكريا يشبه إلى حد ما التنظيم المعمـول بـه في الدولة العثمانية. فالجيش الإنكشاري (يكيجري) [1] الذي لم يكن معـروفا في الجزائر أدخل إليها بعد التحاقها بالخلافة العثمانية ومع بداية إرسال أول دفعة من الجند الجديد إلى الجزائر في بداية القرن 16م.

والمراد من هذه الدراسة هو معرفة الأوطان التي كان يجند منها الجند الجديد، ومن المسؤول على هذا التجنيد، وتكاليف هذه العملية ثم وصول الجند الجديد إلى الجزائر فكيفـية تنظـيمهم ثم المهام التي أوكلت إلى الجيش الإنكشاري ودورهم في المجتمع الجزائري وأخيرا ما آل إليه هذا التنظيم العسكري.

عملية التجنيد :

وصلت أول فرقة من الجيش الإنكشاري إلى الجزائر عام 1520، وهي تلك الفرقة التي أرسلها السلطان سليم الأول (1515-1520) مع الوفد الجزائري الذي حمل له رسالة الجزائريين المعبرة عن رغبتهم في الإلتحاق بالباب العالي[2].

وكـان عـدد هذا الجيش 6000 جندي منهم 2000 من الجيش الإنكشاري المدرب والمتمرس على القتال إضافة إلى 4000 متطوع[3]، وقد أضيفوا إلى الجند الذي كان مع خير الدين في مدينة الجزائر من ضمنهم 5000 جندي جزائري[4].

أمـا عن كيفية التجنيد فإنها تتم بطلب من الداي ويكلف بالمهمة وكلاء الجزائر المقـيمين بـبعض مدن آسيا الصغرى أو جزر بحر إيجه منها مدينة سميرين وكريت وجـنقاله أو وفـود مكلفون بمهام من أفراد الجيش ويترأس كل وفد ضابط[5] وقد

تستغرق مدة التجنيد قرابة سنة أو أكثر. ففي 20 جمادي الأول من عام 1215 هـ توجه وفد متكون من 12 رجلا بأمر من الداي مصطفى باشا إلى رودس كان على رأسه بلوك باشي، وقد عاد الوفد إلى الجزائر بعد مرور تقريبا عام ومعه 117 مجندا جديدا، كما توجه وفد آخر في أول شهر ربيع الأول من نفس السنة (1215) نحو سميرن، وقد تكون الوفد هذه المرة من 22 فردا، وعاد الوفد إلى الجزائر في 17 ربيع الأول عام 1216 هـ ومعه 279 مجندا جديدا، أما في 2 رمضان من عام 1220 فقد أرسل وفد آخر إلى تركيا تكون هذه المرة من 24 رجلا وكان على رأس هذا الوفد ضابطا برتبة عشجي[6]، ونلاحظ من خلال الوفود الثلاثة المذكورين البالغ عددهم 58 فردا، 40 كانوا أتراكا، و3 جزائريين[7].

هذا وقد شارك بعض الأتراك المقيمين في الجزائر في عملية التجنيد إذ حين عودتهم إلى الجزائر بعد زيارة ديارهم وأهاليهم بتركيا أثناء عطلهم كانوا يصطحبون معهم البعض من شباب سكان منطقتهم ويساعدونهم على الانخراط في الجيش الإنكشاري[8].

تكاليف التجنيد :

وكانت عملية التجنيد في الأراضي العثمانية تكلف الكثير للخزينة الجزائرية فالمسؤولون على التجنيد سواء كانوا وكلاء أو مكلفين بمهام كان لزاما عليهم ربح ود وصداقة المسؤولين العثمانيين وأعوانهم، من أميرالات الأسطول ومساعديهم وولاة المقاطعات، والذين كانوا يتولون مهمة التجنيد في الأراضي العثمانية، وهذا حتى يسهلوا لهم المهمة، فكانوا يدفعون لهم هدايا باهضة ونقودا ففي سنة 1233هـ تلقى خسرو باشا وهو أميرال الأسطول العثماني هدية تضمنت معطفين من الفرو فورة ومسدسا وثلاث سبحات من المرجان وثلاث سبحات من العنبر وحزام وساعة وجلد أسد وجلد نمر وعبد أسود[9]، كما تلقى مساعدو الأميرال هدايا مماثلة من ساعات وسبحات وجلد نمر.

هذا وكلف الأميرال في نفس السنة شواشين لتجنيد الجند في كلا من كوزل حصاري وتيره ومغناسيه ومغلية وتلقوا مقابل خدماتهم هدايا تمثلت في نقود وشالات، وقد ذكرت في السجلات الخاصة بالجيش كالآتي :

كوزل حصاره عسكر تحريرنه عزيمت ايدين

باشا جاوشنه	غروش	شال
	200	1

تيره به ذلك		مغناسيه كذلك		مغليه كذلك	
غزوه	شال	غروش	شال	غروش	شال
1	1	200	1	1	1

كما تولى في بعض الأحيان ولاة المقاطعات مهمة التجنيد، نذكر هنا والي مقاطعة ايدين الذي تلقى مقابل خداماته عام 1233 هـ، هدية معتبرة تمثلت في ساعة ومعطف وجلد أسد وجلد نمر وحزام.

"يدنجي سفينه ايجيون عسكر جلبنه آيدين واليسنه ارسال اولنان

ساعت	حزام	جلد ارسلان	جلد قيلان	قوشاق[10]
1	1	1	1	1

إضافة إلى الهدايا والأموال التي تدفع إلى هؤلاء لأجل تسهيل مهمة التجنيد كان لابد من الاعتناء بالمجندين إلى غاية وصولهم إلى الجزائر[11].

أصل المجندين :

أشارت بعض المصادر الأوروبية إلى بعض المدن التي كان يجلب منها الجند الجديد، فقد ذكر فونتور دي بارادي Venture de paradis في القرن 18م بأن الجند يأتون من سميرن وقارامابي وأوستتاش.

« c'est ordinairement que à Snyrne et en Caramanie vis-à-vis d'Usuntach que font les recrues »[12].

وقـــد أصـــاب فونتور دي بارادي إلى حد ما في ذكر هذه المدن الثلاث، إلا أن التجنـــيد لم يقتصر على المدن الثلاث المذكورة بل شمل كل المقاطعات التابعة للدولة العثمانية سواء المتواجدة بأروبا أو آسيا.

فبالنســـبة للمقاطعات الواقعة بالقسم الأوروبي نذكر روملي ومورة، إضافة المـــدن تكيرداغ وسيليفري ومالقرة وادرنه وديموتيقة وقمورجينه وصالونيك ووان وروسجوق وطاطار بازارحيق وويدن وقستنديل وصوفيا[13].

أما مدن جزر بحر إيجه نذكر تدنيوس زمتيلاند وأوبه وقوس وكريت وقبرص ورودوس[14].

إلا أن أكـــبر عـــدد من المجندين كان يأتي من مدن الأناظول وهي فارس وفان وأرض الروم وطرابزون ودياربكر وقيريسوم وقارة حصار، وقربوت ومالطيه واونه وصامصـــون وطوقات وسيواس ومرعش واماسيا وجوروم ونجده واينهيولي وطاش وكويـــرى وطوســـيا وقيرشهر وجنكيري وأنقره وقونيه وقرمان وبولو واسكيشهر وكوناهـــيه وعفـــيون وقاره حصار وايسيارته وعلاليه وبوردور وانطاليه واستانبول وازميـــث وبورسه ويكي شهر وبندرمه وجناقلعه واندرميث إضافة إلى معظم مدن مقاطعـــات مانيسه وسميرت وايدين وموغله وهي : صومه وكركاغاج وأق حصار وبـــرغام وفوسه وقاره وبورون ومنمن وبايندر وألاشهر ويترى واوديمش وقوش ادا سي وبودروم ومعزي[15] والجدير بالملاحظة هنا أن معظم من وصل إلى سدة الحكم في الجزائر من مدن الأناظول.

هـــذا وقـــد ضـــمت صفوف إنكشارية الجزائر عناصر أخرى أتت من تونس وطـــرابلس وجبل طارق وليفورنه[16]، خاصة في الأعوام الأخيرة من تاريخ الجزائر العثمانـــية حين قل التجنيد من الأراضي العثمانية وبالأخص حين فرض الحصار على

الجزائر ابتداء من عام 1827، وبعد القضاء على فرقة الإنكشارية في الدولة العثمانية على يد السلطان محمود الثاني عام 1828 في الواقعة الخيرية المعروفة.

والجدير بالملاحظة أن عملية التجنيد قد خضعت لطبيعة العلاقات المتواجدة بين الجزائـــر والباب العالي، إذ كانت السلطات العثمانية تمنع التجنيد على الجزائريين في المقاطعات التابعة لها حين تسوء العلاقات بين البلدين.

أمـــا بالنســـبة للأوســـاط الاجتماعية التي ينحدر منها الجند الآتي إلى الجزائر وبالتالي الأسباب التي دفعتهم إلى التجنيد فإننا لا نملك عن ذلك إلا ما ذكرته بعض المصادر الأجنبية والـــتي وصفتها في بعض الأحيان بنوع من المغالاة "فهم ورعاة ومتشردون وأشقياء وبؤساء يـــأتون إلى الجزائر بحثا عن المال والشهرة" [17]. إلا أننا وفي غياب المصادر المحلية التي تفند ما قيل عنهم أو تؤكدها فإننا نكتفي بالقول بأن هذا الجند كان ينحدر من أوساط فقيرة وكان التجنـــيد بالنســـبة لهـــم فرصة للخروج من الوضعية المعاشة في ديارهم وهو الأمر الشائع والمعروف في التجنيد الطوعي في كل بلدان العالم.

أمـــا فيما يخص سن الجند الجديد فيبدو أنها قد ضمت " صغير السن والشاب وهـــو ما تعبر عنه الوثائق بـــ "لم يخصر شاربه أي أنه لم يحلق بعد شاربه" أو "بدأ يخصـــر شـــاربه" كما ضمت رجالا بدأهم المشيب. وهذا نموذج عن الجند الجديد أرسلوا إلى الجزائر عام 1245 من الإسكندرية[18].

موجـــب ما بالدفتر مبعوث بهذه الدفعة لحضرة دولتلو ولى النعم افند مز نفرات يلداشلر جديدة مرسوم اسماؤهم بهذه الجريدة بعثا وإرسالا.

كمـــا بدا يخصر شاربه، بداه المشيب، بداه المسيب، بدا يخصر مشاربه، علي بن محمد، محمد عثمان، محمد بن حسن، اسماعيل عثمان، بلدته وزير كيرلي، بولد ورلى تكـــالى، بورســـالي، مـــثله شاب، شاب، شاب، لم يخضر شاربه، مصطفى مظلم حســـين علي، ابراهيم سليمان، علي محمد، محمد مصطفى، كريللى، قنيالى تكدلي،

تكدلي، سوكالي، شاب صغير السن، لم يخصر شاربه، لم يخصر شاربه بداه المشيب، عــلي بن محمد، عمر حسن، سليمان خليل، عمر مصطفى، خليل همت، مادنيلي، فــريق عاجــلي، طرابزانلي، سنابلي، بوغازلي، صغير السن، شاب شاب، لم يخصر شــاربه، مــثله، وإلى خليل، على عثمان، صالح حسين، مصطفى اسماعيل، سليمان خليل، رودوسلى، طرابزانلي، قبرسلى، قلبه لي بالكسرلي، بداه المشيب، شاب، من يولداســثلار القديمــة، محمد محمد، خليل علي، 286 فارلى، بدانلي، محمد شاوش الســفينة المذكــورة، قــوش أضه سى حسن مصطفى، محمد مصطفى، قبرسلى، ازنكــيذلى، عــدد النفرات الجديدة 21 نفرا، عدد النفرات القديمة، من عسكر قلنم ثلاثـــة عدد أرسلهم مع سفينة باش أغا الإسكندرية للجزائر، صحبة شاوش السفينة الذي هو واحد منهم مصطفى قبطان خديمكم المقيم بمرسى الإسكندرية.

كيفية نقل الجند الجديد إلى الجزائر:

يجمع المجندين الجدد في موانئ استانبول وجناقلعه وسميرن والإسكندرية ورودوس وفي موانئ جزيرة كريت ويسجلون في قوائم نحمل اسمهم وعمرهم بالتقريب وبلدهم ويعـــني بايصالهم إلى الجزائر رياس الجزائر في سفنهم الخاصة أو في سفن بلدان أجنبية مثل فرنسا وهولندا وانجلترا.

ويبين لنا الجدول الآتي عدد الجند الجديد والمكان الذي جمعوا فيه والمسؤول على إيصالهم إلى الجزائر[19].

عدد الجند	المسؤول على إيصالهم	السفينة	البلد الذي جمعوا فيه أو أتوا منه	السنة
80	حافظ اسماعيل باش داي	فرنسية	سميرن	ربيع الثاني 1240
91	الحاج خليل أفندي	؟	؟	6 جمادى الثاني 1240
35	ارناووط أحمد أغا	؟	؟	15 رمضان 1240
1	؟	؟	تونس	15 شوال 1240
150	الحاج أحمد أفندي	؟	؟	20 ذي الحجة 1240
109	الحاج خليل أفندي	فرنسية	سميرن	25 صفر1240
136	الحاج خليل أفندي	فرنسية	سمرين	7جمادى الأول1241
76	الحاج علي ريس	؟	؟	21 رجب1241
55	قدور بازون	؟	؟	4رجب1241
40	ولد مصطفى	هولندية	؟	12 ذي القعدة1241
2	؟	؟	تونس	17 ذي الحجة1241
87	الحاج أحمد أفندي	؟	؟	22 محرم1242
157	عشجي أحمد	؟	؟	1ربيع الثاني1242
93	مصطفى ابن أخ أو	؟	سميرن	11شعبان1242
64	أخت عمار ريس	؟	؟	19شعبان1242
5	جاوش أوزون أحمد	؟	من تونس	21محرم1245
12	؟		مصر	
	حاجي محمود	؟		
7	صهر الخزناجي	؟	؟	21 ربيع الأول1245
25	ابراهيم خوجى	؟	؟	1 رجب 1245؟
8	محمد علي	؟	؟	15 شعبان 1245
19	باشا مصطفى ريس	؟	؟	10 رمضان 1245

وصول الجند الجديد إلى الجزائر:

عندما يصل الجندي الجديد إلى الجزائر، يسجل من قبل الباش كاتب في سجلات الإنكشارية، بحيث يقيد اسمه وبلده وأوصافه مثل لون بشرته وقامته وتاريخ انخراطه واسـم الثكـنة التي يعين فيها ورقم الاوجاق الذي ينظم إليه إضافة إلى اسم الأود باشى الذي يخضع لأوامره ولأجرة التي سيتسلمها[20].

ويسـلم البايلـيك لكل إنكشاري جديد بدلة متكونة من قميص مصنوع من القماش الخشن وصدرية وميبان ؟ وفوطة خضراء اللون وسروال وشاشية من صنع محـلي وشال أحمر اللون يستعمله كحزام وحذاء وغطاء مصنوع من الصوف، كما يسلم له البايليك سلاح يتضمن : بندقية وسيف ومسدس، ويعتبر هذا السلاح سلفة لأنه يسدد ثمنه فيما بعد من أجرته في حالة عدم ارجاعه [21] إضافة إلى هذا يعطى له ملح البارود وقطعة من الرصاص غير مدوبة يشكل منها بنفسه الخرطوش[22].

أماكن إقامة الانكشارية :

يقـيم الجـيش الانكشاري غير المتزوج، في الثكنات وبعض القلاع والحصون والأبـراج. وتسمى الثكنات في الجزائر بدار الانكشارية أو بيولداش أوده لرى. أو يكيجري أوده لرى أو قشلا في بعض الاحيان وعادة ما تأخذ الثكنة اسم منشئها أو المكان الذي تقع فيه.

تحتوي كل ثكنة على مجموعة من الأوجاقات (أوجاقلر) يوزعون على مجموعة من الغرف (أوده).

لقد بلغ عدد الثكنات في الجزائر ثمانية وهي :

1. ثكنة مقرر وتعرف أيضا بدار الانكشارية مقرين
2. ثكنة باب عزون وتعرف بدار الإنكشارية الكبيرة أو مْتَاعْ لَبَّانْجِيَة.

3. ثكنة صالح باشا.

4. ثكنة علي باشا.

5. ثكنة أوسته موسى وهي القريبة من باب البحر ولهذا تسمى بمتاع باب الدزيرة

6. ثكنة يالى بمعنى ثكنة الساحل أو الشاطئ وهي القريبة من باب الجهاد وتعرف هذه الثكنة بثكنة متاع الدروج وبثكنة متاع الدوامس.

7. اسكي يكسيجري أي الثكنة القديمة أو دار الانكشارية القديمة وتعرف بالفوقانية.

8. يكي (قشلا) أي دار الإنكشارية الجديدة وتعرف بالسفلانية او التحتانية[23].

وتخضع الانكشارية في الثكنات الى نظام عسكري محكم يصهر على تطبيقه مسؤلون من بلوك باشي وأوده باشي وباش يولداش الذين سيأتي الحديث عنهم.

لقد تمتعت الثكنة في الجزائر إبان العهد العثماني بحصانة فائقة بحيث لا يمكن لأحد اقتحامها مهما كانت وظيفته وهذا للقبض على لاجئ إليها سواء كان هذا الاخير تركيا أو عربيا أو مسيحيا أو يهوديا[24].

كما عرفت دور الإنكشارية باتساعها ونظافتها الفائقة[25] إذ صخر البايليك لخدمة الانكشارية في الثكنات الأسرى المسيحيين الذين كانوا يصهرون على نظافتها دائما. ولم يكن هؤلاء الأسرى ليشكوا من حالهم في الثكنات لأن الجند كانوا يعاملونهم معاملة حسنة ويعتبرونهم أصدقاء وليس خدم[26].

ونبين من خلال الجدول التالي كيفية توزيع الجيش في الثكنات[27] :

اسم الثكنة	عدد الغرف (أوده لر)	عدد الجند (بكيجري)	عدد الأوجاقات (أوجاقلر)
ثكنة مقرر	27	899	48
باب عزون	28	1661	63
صالح باشا	26	1266	60
علي باشا	24	1516	55
أوسطه موسى	31	1833	72
يالي (الدروج)	15	602	27
اسكي (القديم)	31	1089	60
يكي (الجديدة)	19	149	38

تنظيم الإنكشارية :

تنقسم الإنكشارية في الجزائر إلى فرق أو وحدات صغيرة تسمى أوجاق وهو اسم مـأخوذ مـن نظام الجيش الإنكشاري باستانبول مع اختلاف طفيف، لأن كلمة أوجـاق بتركيا تعني الجيش الإنكشاري كله. ولقد بلغ عدد الأوجاق (أوجاقلر) في مدينة الجزائر 424 أوجاقا، يحمل كل أوجاق رقم يعرف به، ويكون من مجموعة من الجند يختلف عددهم من أوجاق لآخر[28].

الرتب العسكرية :

تخضـع الإنكشارية إلى نظام محكم فكل واحد مسؤول أمام الآخر حسب رتبته والمهـام المخولـة له. وقد نص عهد الأمان[29] الذي يعتبر دستورا أساسيا للمؤسسة العسـكرية على احترام كل واحد لمنصبه والمهام المخولة له دون أن يكون تداخل في الصلاحيات.

أما عن الرتب العسكرية فنرتبها كالآتي :

1. يولـداش : وهو المجند الجديد الذي لا رتبة له، ويدعى بـ يكى يولداش أي اليولداش الجديد.

2. اسكي يولداش أو اليولداش القديم : ويتحصل على هذه الرتبة بعد مرور ثلاث سنوات من الخدمة كيكي يولداش.

3. بـاش يولداش : أو رئيس اليولداش ويتحصل على هذه الرتبة بعد مرور ثلاث سنوات من الخدمة كاسكي يولداش.

4. وكيل الحرج : وهو المقتصد ورتبته تعادل عريف أول وقد يتعدى عدد وكلاء الحرج في الأوجاق الواحد وهذا حسب أهمية الاوجاق.

5. وكيل حرج التي وهو وكيل حرج ثانوي.

6. أوده باشي : وهو مسؤول عن الأوده في الأوجاق ورتبته تعادل رتبة ملازم اول.

7. آشجي أو عشجي وهو الطباخ ويعمل تحت أوامر وكيل الحرج.

8. عشجي باشي أو رئيس الطباخين ورتبته تعادل رتبة بلوك باشي

9. بلوك باشي : وهو مسؤول عن الأوده في الأوجاق، ورتبته تعادل رتبة نقيب، ويـبدو أن البلوكباشية في أواخر العهد العثماني لم يعودوا يصنفون داخل الاوجاق وأصـبحوا يشـكلون جهازا مستقلا ويتولون بالتناوب قيادة (النوبة) بلقب آغا أو العمل تحت أوامر الأغا بلقب كاهية.

1. الكاهـية أوباش بلوك باشي : وهو أقدم ضابط في الجيش وهو خليفة الأغا، يـترأس اجتماعات الضباط المكونة من الياياباشية وعددهم 24 والتي تجتمع بالقرب مـن مترل الأغا. ويستطيع الكاهية اتخاذ قرارات في أمور بسيطة مكان الأغا، ومدة خدمة الكاهية شهرين.

2. يايابا‌شـــي: ويشــكلون فرقة مميزة، تضم أقدم ضباط المدفعية أو البلوكباشية القدامــى، وقــد تركوا مناصبهم لضباط شباب. ويايباشية هم مستشارو الديوان ويرافقون دوما الداي في الحفلات العمومية ويساعدون الأغا في حل الأمور المعقدة. وأقدم يايباشي يختار ليصبح كاهية ثم آغا، وكان صفراء الجزائر يختارون من صفوف اليايباشــية، كمــا كانوا يكلفون بحمل أوامر الداي إلى مختلف أرجاء الإيالة، وهم كذلك المكلفون بتفتيش السفن التجارية حين تتأهب إلى الرحيل. وكان الهدف من هذا التفتيش التأكد من عدم هروب الأسرى.

3. الآغــا : أو آغا العسكر وهو القائد الأعلى للجيش وهو بمثابة جنرال. ويعين الآغــا في منصبه لمدة شهرين فقط ولذا يعرف بآغا الهلالين ثم يحال على التقاعد أين يصــبح يدعــى بمــترول آغا أو معزول آغا. لا يترك الآغا الجزائر خلال مدة توليه المنصب، ويقيم في مترل خاص، أين تسلم له كل مساء مفاتيح المدينة. وتعطى باسمه الأوامــر لفرق الجيش ولا يحق له أثناء توليه المنصب اصطحاب النساء والأطفال ولا يغــادر مترله إلا لحضور اجتماعات الديوان ودفع أجور الإنكشارية التي تسلم باسمه مدة توليه المنصب. وكان الآغا عند الخروج يمتطي حصانا ومعه شواشين يهتفون في وســط العامــة وبصوت مرتفع "إحذروا إنه الآغا". ومن صلاحيات الآغا معاقبة الأتراك سريا بمترله سواء بالسجن أو بالضرب أو بالقتل إن أمره الداي بذلك.

عــندما يتولى الأغا منصبه يلبس قفطان التولية ويستلم وثيقة عهد الأمان وعندما يــترك منصبه يسلم بنفسه القفطان ووثيقة عهد الأمان لمن يتولى المنصب بعده. بعد إحالــته عــلى التقاعد يحضى معزول آغا بكل الاحترام[30]. ويحتفظ بحقه في حضور اجــتماعات الديــوان لكــن كملاحظ فقط وكثيرا ما أوكلت إلى الآغاوات بعد تقاعدهم مهام الإشراف على مؤسسة أوقاف سبل الخيرات كوكلاء.

من المفروض أن التقدم في الرتب العسكرية يخضع إلى مقياس الأقدمية إلا أن هذه القاعدة لا تحترم في بعض الأحيان فيبقى بعض الجند في رتبهم الأصلية خاصة أولئك الذيــن لم يكونــوا ضباطا، إلا غاية التقاعد أو يصنفون ضمن الجند الاحتياطي أو خــارج ســلك الجند، وفي بعض الأحيان يتسلق الجندي سلم الرتب بسرعة ودون احــترامه للأقدمــية وفي مــثل هذه الحالة كان يغير للإنكشاري أوجاقه ليحل محل الضــابط الذي أحيل على التقاعد تفاديا لغليان الإنكشارية. ويبدو أن الانتقال من رتــبة أوده باشي إلى رتبة بلوك باشي كان يتم بسرعة ففي خلال أربع سنوات من ســنة 1158 هــ إلى 1162 هــ بلغ عدد الذين تحصلوا على رتبة بلوك باشي 157 وهذا من مجموع 424 أوده باشيا[31].

مهام الجيش الإنكشاري :

للجــيش الإنكشاري مهمة أساسية، مهمة توكل لأي جيش نظامي في أي دولة كانت وهي حماية الدولة من أي عدوان خارجي والسهر على استتباب الأمن داخل أرجــاء الوطــن، إضافة إلى مهام أخرى سيأتي الحديث عنها. والجيش الإنكشاري يؤدي واجبه العسكري الذي يدوم قرابة 13 سنة في النوبات والمحلات.

فالنوبة هي فرق الجيش الإنكشاري التي تقوم بحراسة الحصون والقلاع والأبراج، ويســمى الإنكشاري الذي يقوم بالحراسة فيها بالنوباتجي. وينقسم الجيش في النوبة إلى صفرات[32]، وكل صفرة تحتوي على مجموعة من الجند يتراوح عددهم ما بين 11 و 16 رجلا[33]. وقد يتعدى عددهم هذا الرقم حسب أهمية المكان.

فكانت النوبات متواجدة في كل قطر الإيالة منها القل، زمورة، مستغانم، وهران، قســنطينة، عنابة، بسكرة، بجاية، تبسة، تلمسان، جيجل، برج حمزة، تامنفوست، كهــف الــرجالة، بني جنات، برج الفنار، برج علي باشا، مرسى الدبان، معسكر القصــبة والقصــر[34] ودلس ومهدية، وفي الحصول الأخرى المتواجدة على الساحل الجزائري[35].

إن أهـــم نوبة في مدينة الجزائر هي نوبة القصة والنوبة التي تحرس القصر وتتشكل النوبتان من الأتراك فقط ولا يحق للكراغلة الانخراط فيها، ويختاروا أفراد نوبة القصر ونوبـــة القصبة من مجموع الإنكشارية الموجهة في السنة إلى المحلات ويشرف الداي بنفسه على اختيار أفراد نوبة القصر[36].

فنوبة القصبة تتكون من ثلاث صفرات :

الصـــفرة الأولى وتـــتكون مـــن أغا وأدوه باشي ووكيل حرج و11 انكشاري وعشجي المجموع 15 فردا.

الصـــفرة الثانـــية تـــتكون من كاهية وأوده باشي ووكيل حرج و16 انكشاريا وعشجي المجموع 20 فردا.

الصـــفرة الثالـــثة: وتتكون من أوده باشي ووكيل حرج وعشجي وباش طوبجي المجموع 20 فردا [37].

وكانـــت مهمة نوباتجية القصبة حراسة الخزينة بالتناوب منذ طلوع الفجر إلى غاية اغلاق الخزيـــنة عـــلى الساعة الواحد والنصف زوالا، ويقضي نوباتجية القصبة الليل بالقصبة حيث يتكفل البايليك بطعام العشاء والقهوة التي تسلم لهم ثلاث مرات في اليوم[38].

أما نوبة القصر فتتكون من صفرتين :

الصـــفرة الأولى : تتشـــكل من أغا وأدوه باشي ووكيل حرج و 16 انكشاري المجموع 19.

الصـــفرة الثانـــية : تـــتكون من خوجة النوبة وأوده باشي ووكيل الحرج و 15 لمجموع 18 [39].

ويـــترأس نوبـــة القصر بلوك باشي وأوده باشي وهذا عندما يكون باب القصر مفتوحا أما عند اغلاقه فيترأسها الخوجة الذي لا يترك القصر ويحتفظ بمفاتحه ويقضي

نوباتجية القصر الليل به ماعدا البلوك باشي والأوده باشي فينصرفان بعد اغلاق باب القصـــر وتـــتولى نوبة القصر حراسته من طلوع الفجر إلى غاية إغلاق باب القصر، ومـــن مهام نوباتجية القصر حراسة الداي أيضا . ففي فترة تسليم الأجور يقومون بتفتـــيش الـــيولداش الذين يتقدمون للحديث مع الداي ويتأكدون من عدم حملهم للسلاح [40].

وتعطـــى للنوباتجية عطلة يومي الثلاثاء والجمعة، ومدة خدمتهم عام واحد، ويحق للنوباتجي أن يغير نوبته بنوبة أخرى كأن يغير مثلا من نوبة مهدية إلى نوبة عنابة أو مستغانم، إلا أنه لا يسمح له بالتغيير عندما يتعلق الأمر بنوبتي القصر والحصن بمدينة الجزائر[41].

أما المحلة فهي فرق الجيش الإنكشاري التي تتوجه إلى البايليك الثلاثة سواء لجباية الضـــرائب والـــتي تتم في شهر أفريل من كل عام أو لمعاقبة القبائل الثائرة، وتعسكر المحلات أمام وادي الحراش[42] قبل تحركها بـــ 10 أو 12 يوما[43].

ينقســـم الجـــند في المحلـــة إلى خـــيم وتتألف كل خيمة من مجموع بمجموعة من الصـــفرات وتضـــم كل صفرة بمجموعة من الجند[44] يتراوح عددهم من 11 إلى 16 رجـــلا[45]. يترأس كل محلة ضابط برتبة ياياباشي ويحمل لقب آغا أثناء أداءه المهمة ولهذا يسمى بأغا المحلة ويساعده بلوك باشي وأوده باشي وخوجة وشواشين وسقاء باشي وعشجي باشي ووكيل الحرج. ويبدوا أن المحلة المتوجه نحو بايليك الشرق هي الـــتي كانـــت تضم أكبر عدد من الجند نظرا لصعوبة الطريق وللمشاكل التي كانت تـــتلاقاها المحلـــة في طريقها نحو قسنطينة، فقد تكونت في أواخر القرن 18 من 60 خيمة احتوت كل خيمة صفرة ضمت 16 رجلا[46].

ولقـــد مس عهد الأمان على كيفية تموين المحلات أثناء أداء واجبها وذكر مناطق معيـــنة لذلـــك فمحلة الشرق تتلقى مؤنها من لحم وزبدة بعمراوة أما محلة الغرب

فتتلقاها بمليانة[47]. إلا أن هذا القانون لم يكن يحترم إذ كانت المحلات تأخذ مستلزماتها من الأهالي برضاهم أو غير رضاهم[48].

تختلف مدة مهام كل محلة عن الأخرى فتبقى المحلة الموجة نحو بايليك التيطري شهرين[49] لأنه بايليك صغير وفقير ثم تعود إلى الجزائر وتبقى تلك المواجه إلى معسكر أي بايليك الغرب أربعة أشهر أما المحلة الموجهة نحو قسنطينة فتبقى ستة أشهر[50]. والملاحظ هنا أن الإنكشاري لابد عليه أن يؤدي واجبه في المحلات الثلاث ثم يعين بعد ذلك في النوبات[51]. عندما يريد الإنكشاري البقاء في البايليك الذي أرسل إليه يسمح له بذلك[52].

فرق الزواوة :

تساعد فرق الزواوة الجيش الإنكشاري في أداء مهامه، وفرق الزواوة ليست جيش نظامي بل هم الرجال الذين توفرهم القبائل الموالية للبايليك وتستدعى فرق الزواوة للإنضمام إلى الجيش الإنكشاري في حالات خاصة وهي عندما تكون حرب بين الجزائر وبلد آخر[53] فيشكلون أكبر عدد في هذه الحالة[54] أو عندما يخرج الجيش في محلة ضد القبائل الثائرة أو عندما تخرج المحلة لجباية الضرائب. وتشكل فرق الزواوة الفرسان بينما الأتراك والكراغلة يشكلون فرق المدفعية[55]. ويبدوا أن فرق الزواوة كانت تقيم في المحالات في خيم منفصلة عن الجيش الإنكشاري فقد شكلت فرقتهم المرسلة إلى أوطان الشرق 30 خيمة[56].

يسلم البايليك لأفراد الزواوة أثناء أداء مهامهم زيانيا واحدا في الشهر بينما يسلم إلى الجيش الإنشكاري زيانين. كما يعاملهم البايليك معاملة خاصة مقابل الخدمات التي يقدمونها ويقدم لهم تسهيلات وامتيازات كإعفائهم من الضرائب[57].

أجور وعوايد الجيش :

يتلقى الجيش الانكشاري أجرة[58] تسلم كل شهرين في القصر وتتراوح هذه الأجرة بين 14 و160 صيمة[59]. ويبدوا أن الأجرة تبدا ضئيلة ثم تزيد كلما صار الإنكشاري قديما في سلكه، كما تزيد الأجرة حين يعين داي جديد أو يكون هناك انتصار كبير إلا أنها لا تتعدى 160 صيمة[60]، ويذكر في هذا الصدد قنصل أمريكا بالجزائر ويليام شالير بأن أجرة **اليولداش** الجديد لا تتعدى نصف دولار في الشهر ثم مع مرور الزمن ترتفع لتصل إلى 8 دولارات وهو أعلى مرتب[61] ويبدوا ان الأجرة تستقر بعد 13 السنة من الخدمة[62]. تدوم مدة تسليم الأجور 40 يوما حتى يتسنى للجميع الحصول عليها[63].

تدفع الأجور بحضور الداي والآغا والكاهية والبلوك باشية والخوجات الثلاث والشواشين والخزناجي ومعه حضريان يعدان النقود ويولداش وباش يولداش واثنين من وكلاء الحرج[64]. وأول من يتسلمها هو الداي[65].

لابد على كل واحد أن يمتثل أمام الآغا للحصول على الأجرة، إلا أنه يحق لليولداش الذي يكون في المحلة أو النوبة بأخذ أجرته عندما يعود كما يحق لليولداش الذي يتغيب ثلاث مرات من توكيل من يأخذ بدله الأجرة، إلا أنه لا يسمح لوكيله أخذ الأجرة الرابعة فعليه أن يتقدم بنفسه لتسلمها، أما اليولداش الذين يكونون في راحة أي ليسوا في الخدمة فكثيرا ما كانوا يكلفون اليهود بذلك إذ يسلم لهم اليهود قيمة الأجرة مسبقا وبفوائد كبيرة ثم يقوم اليهود بدورهم بالتفاوض مع أحد الشواشين بسحب الأجرة ويسلمها لهم مقابل هذا العمل يتسلم الشاوش بياسترة واحدة على كل أجرة، لكن في الأجرة الرابعة لابد على الإنكشاري الغائب أن يحضر بنفسه لتسلمها[66].

إن أجرة الإنكشارية وإن بدت هزيلة وغير كافية فإن العوايد التي كانت تقدم لها كانت تكفي لتغطية حاجاته وبالتالي تكوين ثروة عند بعض أفراد الإنكشارية خاصة أصحب الرتب العالية.

عوائد الجيش :

يوفر البايليك للجيش إضافة إلى الأجرة الخبز مجانا كي يتلقى كل إنكشاري أربع خبزات يوميا[67] أما الجند المتزوج الذي يسكن خارج الثكنات في منازل خاصة فإنه يحرم من الخبز إذ يرسل الكاهية مع الإنكشاري المتزوج شاوشا عند العشجي باشي الذي يشطب اسمه من قائمة اليولداش الذين يتسلمون الخبز من البايليك[68] ويسلم البايليك لليولداش المتزوج مقابل الخبز صاع من القمح[69] وإن حدث وطلق اليولداش زوجته أو توفية وأراد الاستفادة ثانية من خبز البايليك فعليه أن يثبت ذلك بنفسه إلى الكاهية الذي يأمر العشجي باشي بتثبت اسمه من جديد في قائمة المستفيدين من خبز البايليك. وكانت جماعة الجيجلية هي المكلفة بتوفير خبز الإنكشارية والعبيد[70]. كما يقدم البايليك إلى الإنكشارية مساعدات أخرى كتخفيض في أسعار المواد الاستهلاكية مثل اللحم الذي يباع لهم بثلث السعر العادي[71]. كما يتلقى الجيش علاوات في الأعياد الدينية وعند تنصيب داي جديد أو اعتلاء سلطان جديد سدة الحكم أو انتصار في حرب.

كيفية معاقبة الجيش :

لا نعرف الكثير على كيفية معاقبة الجيش الإنكشاري فالوثيقة الوحيدة التي تطرقت للموضوع هي عهد الأمان وإن ركز على المحلّة التي تخرج لجباية الضرائب فبنسبة لآغا المحلّة فإنه إذا ارتكب خطأ في أداء واجبه يعزل من منصبه ويؤجل معاقبته إلى غاية عودة المحلّة إلى الجزائر أين تجرى تحريات في قضيته ثم يبث الحكم النهائي أما

بنسبة لجند المحلّة فإن ارتكب خطأ أثناء أداء المحلّة لواجبها فإن الجندي يمثل أمام آغا المحلّة وهو الذي يقرر في أمر معاقبته أم لا، اما إذا هرب المتهم وبقي غائب لمدة ثلاث أيام فيشطب اسمه من دفتر المحلّة ويمنع عليه الانخراط ثانية في أوجاق الإنكشارية، وإن حدث وعاد الجندي الفار إلى المدينة بعد مرور فترة من الزمن فيقبض عليه ويجلد حتى يموت. هذا وإن تسببت المحلّة بأكملها في إحداث الفوضى والشعب فإن كل أفرادها يعاقبون وذلك بمنعهم من دخول المدينة وتعتبر محلّتهم محلّة مفقودة[72].

ويبدو أن تعسكر المحلات هو فرصة للفارين من العقوبة للعودة إلى صفوف الانكشارية بحيث يذهبون إلى أفراد المحلّة وينضمون إلى صفوف الإزبانطوط التابعة للبايليك الثلاثة. ويبقوا فيه حتى يسمح لهم أو ينسى أمرهم[73].

أما إذا قتل انكشاري رجلا فإنه يفر إلى ضريح الولي سيدي عبد الرحمان الثعالبي ثم ينخرط في صفوف الإزبانطوط التابعة للبايات، أما إذا كانت جريمة شنعاء فإن الداي يمنع تزويده بالماء والطعام حتى يضطر إلى الخروج فيقبض عليه ويقتل، لكن في كثير من الاحيان يسكت على ما اقترفه الانكشاري فينسى أمره ويعود ثانية إلى المدينة بعد مرور ستة أشهر أو سنة[74].

الجيش خارج الثكنات :

لم يعش أفراد الجيش الإنكشاري في عزلة عن بقية أفراد المجتمع الجزائري بل اندمجوا في أوساطه سواء بالمصاهرة وهذا ما سمح بوجود شريحة جديدة في المجتمع الجزائري عرفت باسم الكراغلة، أو بممارسة نشاط اقتصادي. فلقد وجدنا الكثير من أفراد الجيش الإنكشاري من زاول حرفة منها ما كانت لها علاقة بالجانب العسكري كالجقماقجية ومنها ما كانت بعيدة عن هذا الجانب مثل الخياطة والحفافة والحياكة[75].

كما لعب الجيش الإنكشاري دور كبير في الوقف، إذ كانت إسهاماته في الوقف

معتبرة من حيث الأملاك التي حبّسها على مختلف المؤسسات الدينية والمشاريع الخيرية. فقد قام الجيش بتأسيس مؤسسة أوقاف سبل الخيرات وكثيرا ما كان الجيش يحبس على الأوجاق الذي كان فيه أو الأوده الذي سكنها[76].

محاولة القضاء على الإنكشارية :

قام الجيش الإنكشاري بدور مشرف في الدفاع على الجزائر وفي صد الغارات الخارجية المتكررة عليها. وأظهر شجاعته في القتال ووفاءه للوطن وقد شهد له بذلك اللورد إكسموث أثناء حملته على الجزائر عام 1816م، إذ ذكر بأنه لم ير في حياته عدوا أكثر صمودا وأكثر تشبثا بأسلحته ولا حماس مثل حماس الجزائريين في القتال فلا أحد تراجع ولو بخطوة واحدة[77].

إلا أن هناك جانب سلبي يؤخذ عليه الجيش الإنكشاري منذ بداية تواجده على أرض الجزائر وهو تورطه في المؤامرات على الحكام وللإطاحة بهم واغتيالهم، فكان الجيش يولي من يشاء ويعزل من يشاء ويغتال من يشاء، فانحرف بذلك عن مساره وكان سببا في عدم وجود الاستقرار السياسي في الجزائر.

فكر بعض الحكام في القضاء على هذا التنظيم العسكري مثل الداي عمر باشا (1814-1816) لكن محاولته باءت بالفشل[78]. وعندما تولى الحكم الداي علي خوجة (1816-1818) كان على دراية أن الجيش الإنكشاري الذي ولاّه الحكم قد يطيح به، ولهذا بدأ منذ توليه الحكم بتصفية المحيطين به، فقتل الآغا ونفى الخزناجي إلى تلمسان وخوجة الخيل إلى مستغانم وأولى مكانهم أفراد يثق فيهم ومن هؤلاء حسين خوجة الذي سيتولى الحكم بعده إذ عينه في منصب خوجة الخيل[79]. كما قام بنقل مقر إقامة الحكام من قصر الجنينة إلى القصبة وحمل معه إلى مقره الجديد كل الأموال والأشياء الثمينة المودعة في الخزينة الجزائرية[80]. وأحاط نفسه بفرقة من الجزائريين للدفاع عنه[81].

لما أراد الجيش الإنكشاري الإطاحة بالداي علي خوجة كان هذا الأخير قد أخذ احتياطاته فصوب مدافع القصبة نحو الثكنات وقبض على المتآمرين عليه في ثكنة الخراطين. وقطعت رؤوسهم أمام باب القصبة تنكيلا بهم[82]، وبعد ذلك دس في أوساط الجيش جواسيس ينقلون له الأخبار[83]. إلا أن الجيش الإنكشاري واصل محاولته في الإطاحة بالداي، فنصب شاوش محلة الشرق وهي عائدة بالدنوش برج حمزة وعندما وصلت المحلة إلى عين الربط كان خبر المؤامرة قد وصل إلى الداي، فضربهم شر ضرب بالمدافع ثم برج تافورة، فلجأ جيش المحلة إلى ضريح الولي الشيخ ابن عبد الرحمن فضربهم من جهة البحر، وأمر الداي بمكافأة كل من يأتيه برأس تركي أو كرغلي من المحلة التي تآمرت عليه، فتشتت شمل جيش المحلة فقتل بعضهم وسيق البعض منهم إلى القصر فمنهم من قتل على يد الداي ومنهم من بني عليه جدار، أما شاوش المحلة الذي أجبر على قبول أمر الإنكشارية فقد أعاده الداي إلى تركيا[84].

لقد لقي الكثير من أفراد الجيش الإنكشاري حتفه في هذه التصفية حتى قيل أن عدد قتلاهم قد بلغ حوالي 500 رجلا[85] وهكذا كانت مبادرة الداي علي خوجة الجريئة درسا لمن تبقى من الجيش الإنكشاري في الجزائر.

الخاتمة :

أدى الجيش الإنكشاري دوره في الجزائر كتنظيم عسكري يسير وفق قوانين خاصة في صد الهجومات الخارجية على الجزائر وأبرز بسالته في القتال في عدة معارك شهد له بذلك عدة كتاب. كما ساهم أفراد الجيش الإنكشاري كفئة من الفئات الاجتماعية المشكلة للمجتمع الجزائري في مجال الاقتصادي والاجتماعي وذلك من خلال النشاط الحرفي والتجاري الذي مارسه خارج الثكنات أو من خلال إسهامه في الأعمال الخيرية أي في مجال الأوقاف.

إلا أنه يعاب على المؤسسة العسكرية في الجزائر خلال العهد العثماني (ونقصد هنا الجيش الإنكشاري) عدة أمور نذكر منها حرمان العنصر المحلي من الانخراط في صفوفها إذ بقيت حكرا على العنصر التركي والكرغلي فكبرت الهوة بين الحاكم والمحكوم وازداد الشعور بالحرمان وتمييز بين مختلف الفئات الاجتماعية المكونة من المجتمع الجزائري. وحتى فئة الكراغلة لم يسمح لها بالوصول إلى أعلى الرتب العسكرية في الجيش فكان هذا من الأسباب التي أدت إلى اصطدامات عديد بين الأبناء والأباء انتهت في معظم الأحيان بإراقة دماء كثيرة. أضف إلى ذلك أن الجيش الإنكشاري كان وراء اغتيالات الحكام الذين تولوا حكم الجزائر فانحرف بذلك عن مساره ولهذا قام الداي علي خوجة باستإصال شوكة الجيش الإنكشاري وكبح جماحه ووضع حد لتجاوزاته المتواصلة وهذا بالقضاء على معظم أفراد الجيش الإنكشاري في الجزائر فكان مؤشرا لبادية نهاية هذا التنظيم العسكري الذي قضي عليه نهائيا في الدولة العثمانية عام 1826 في الواقعة الخيرية على يد السلطان العثماني محمود الثاني.

الهوامش:

1. تتكون كلمة يكيجري من جزئين فيكي (وتقرأ يني) وتعني جديد وجيري تعني جند وأول ما ظهر هذا التنظيم العسكري في الدولة العثمانية منذ نشأتها في القرن ويتبع الجيش الإنكشاري الطريقة الصوفية المعروفة في الدولة العثمانية وهي الطريقة البكداشية. أنظر :

WEISSMANN Nahoum, Les Janissaires. Etude de l'organisation militaire des Ottomans. Thèse pour le Doctorat d'Université, présenté à la faculté des lettres de l'Université de Paris, Paris, 1938.

2. TEMIMI. A., «Lettre de la population algéroise au Sultan Selim I en 1719 », Revue de l'Histoire Maghrébine, n° 05, 1976, pp. 75-101.

3. CHEVALIER. C., Les trentes premières années de l'Etat d'Alger, 1510-1541, Alger, Office des Publications Universitaires, 1988, p. 38.

4. HAEDO. p.17.

5. COLOMBE. M., « Contribution à l"étude du recrutement de l"odjak d"Alger dans les dernières années de l"histoire de la Régence d"Alger », Revue Africaine, 1943, pp. 173-174.

6. Ibid., p.173.

7. Ibid., p. 173 n[te] 26

8. KHODJA. H., Le Miroir, Paris, Sindbad, 1985, p. 103

9. COLOMBE. M., Op.cit., p. 173.

10. Ibidem.

11. VENTURE DE PARADIS, Alger au XVIIIè siècle, Tunis, Bouslama ed., p.58.

12. Ibid., p. 59.

13. COLOMBE. M., Op.cit., pp. 171-172.

14. Ibid., p. 172 n[te] 17.

15. Ibid., p. 179.

16. SHALER. W., Esquise de l'Etat d'Alger, Saint-Denis, Bouchene, 2001, p

17. أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، ملف 3190، وثيقة رقم 344.

18. COLOMBE. M., Op.cit., pp. 182-183.

19. VENTURE DE PARADIS, Op.cit., p. 58.

20. Ibid., p. 57.

21. KHODJA. H., Op.cit., p. 104.

22. أنظر عن هذه الثكنات:

DENY. J.,« Les registres de solde des janissaires conservés à la Bibliothèque Nationale d''Alger », Revue Africaine, 1943, pp. ; DEVOULX. A., « Les casernes des janissaires à Alger », Revue Africaine, 1858-1859, pp.

23. VENTURE DE PARADIS, Op.cit., p. 85.

24. Ibid., p.83 ; SHALER. W.,Op.cit., p. 45.

25. VENTURE DE PARADIS, Op.cit., pp. 83-84.

26. DENY. J., Op.cit., pp. 36-37.

27. Ibid., p. 41.

28. أنظر نص عهد الأمان في :

« AHAD AMAN, ou règlement politique et militaire », Revue Africaine, n° 19, 1859, pp. 211-219.

29. أنظر عن الرتب العسكرية :

VENTURE DE PARADIS, Op.cit., ; KHODJA. H., Op.cit ; SHAW, Voyage dans la régence d'Alger par le docteur Shaw, traduit de l'anglais par J. Mac Carthy, Tunis, Bouslama ed., ; TACHRIFAT, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, par A. DEVOULX, Alger, Imprimerie du Gouvernement, 1852. ; AHAD AMAN, Op.cit.,

سبنسر ويليم، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980.

30. DENY. J., Op.cit., pp. 43-44.

32. وتعني الصفرة المائدة

33. TACHRIFAT., Op.cit., p. 26.

34. Ibid:, pp. 31-32.

35. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 64.

36. Ibid., pp. 67-68.

37. TACHRIFAT., Op.cit., p. 32.

38. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., pp. 67-68.

39. TACHRIFAT., Op.cit., p. 32.

40. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 68

41. Ibid., p. 64.

42. Ibid., p. 69. ; SHALER. W., Op.cit., p. 69.

43. HAEDO., Op.cit., p. 79.

44. Ibid., pp. 69-70. ; TACHRIFAT., Op.cit., p. 26.

45. TACHRIFAT., Op.cit., p. 26.

46. HAEDO., Op.cit., pp. 79-80 ; VENTURE DE PARADIS., Op.cit., pp. 69-70. ; KHODJA., Op.cit., p .121.

47. AHAD AMAN, Op.cit., pp. 315-316.

48. HAEDO., Op.cit., p. 79.

49. أربعة أشهر حسب VENTURE DE PARADIS, p. 64.

50. KHODJA., Op.cit., p . 120.

51. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 64.

52. KHODJA., Op.cit., p . 121.

53. TACHRIFAT., Op.cit., p. 32.

54. SHAW., Op.cit., p. 193.

55. SHALER. W., Op.cit., p. 55.

56. TACHRIFAT., Op.cit., p. 32.

57. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 13.

58. تسـلم هذه الأجرة لكل تركي وكرغلي مقيم في الجزائر سواء كان مسجل أو غير مسجل في قوائم الإنكشارية، أنظر: TACHRIFAT., Op.cit., p. 26.

59. TACHRIFAT., Op.cit., p. 26.

60. سبنسر ويليم، نفسه، ص 59.

61. SHALER. W., Op.cit., p. 45.

62. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 65.

63. Ibid., p. 62.

64. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p.59. ; سبنسر ويليم، نفسه، ص 59.

65. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 61.

66. سبنسر ويليم، نفسه، ص 59.

67. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., pp. 66-67. ; 70-71.

68. Ibid., p. 87.

69. Ibidem.

70. KHODJA. H., Op.cit., p. 104.

71. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p.87.

72. SHAW., Op.cit., p. 184.

73. AHAD AMAN, Op.cit., pp. 215-216.

74. VENTURE DE PARADIS., Op.cit., p. 65.

75. Ibid., pp. 85-86.

76. SHUVAL. T., La ville d'Alger vers la fin du XVIIIe siècle : Population et cadre urbain, Paris, CNRS ed., 1998, p.

77. انظـــر على سبيل المثال الوثائق التالية : الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 12.

78. PLAYFAIR. R. L., « Episodes des relations de la Grande-Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête Française », Revue Africaine, 1980, p. 34.

79. الـــزهار الحـــاج أحمـــد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص 131.

80. نفسه، ص 132.

81. نفسه، ص 132-134. SHALER . W., Op.cit., p. 141.

82. SHALER. W., Op.cit., p. 141.

83. الزهار، نفسه، ص 134 و 136.

84. نفسه، ص 136.

85. نفسه، ص 136-137.

86. SHALER. W., Op.cit., p 114.

من إعداد الأستاذة نعيمة بومشوش

أ. طائفة الرياس ومميزاتها :

1. التعريف :

تشـــمل مجمـــوع الذيـــن يعيشون على القرصنة وكانت تشمل بالدرجة الأولى الريّاس، مالكي السفن وكذلك البحارة وعمال الصيانة كالنجارين والجلافطة[1]. وقد اســـتعملت هذه الكلمة خلال الفترة العثمانية بالجزائر للدلالة على بحرية إيّالة الجزائر وعـــبرت عن كل من له صلة بالبحر. وكان لهذه الطائفة دورا أساسيا في مصير هذه الإيّالـــة. فمن هم هؤلاء الرجال يا ترى؟ وما هي الوسائل التي أوصلتهم إلى الشهرة التي حظيوا بها ؟ وما الدور الذي اضطلعوا به داخليا وخارجيا ؟

2. أصل أعضائها :

كانـــت التركيبة البشرية للبحرية الجزائرية غنية ومختلفة المشارب، يوحّدها الجهاد في سبيل الله. وقد تكوّنت من خليط ممتاز من العناصر المحلية إضافة إلى أعلاج أوروبا الذيـــن أسلموا وانضمّوا إلى بحرية الجزائر. يضاف إليهم بحارة من المشرق الإسلامي وآخـــرون قدموا من الأندلس[2]. وهذا ما اكسب الجزائر نفسا جديدا وقوة متجددة وتقنيات إضافية في مجال المعدات خصوصا.

فالبحّارة المحلّيون والأندلسيّون والمشارقة الذين تولّوا الحروب البحرية قبل التحاق الجزائـــر بالدولـــة العثمانـــية شكّلوا حقا العمود الفقري لقوّة سفن القرصنة[3]. أمّا الأعـــلاج والذين ينتمون لكل الأمم المسيحية فقد بدأ توافدهم على الإيّالة ابتداء من القرن السادس عشر. ويلاحظ بوايي أنه خلال هذا القرن كانت غالبية الأعلاج من بلـــدان البحر الأبيض المتوسط مع أكثرية من المدن الإيطالية. أما خلال القرن السابع

عشر فقد ظهرت عناصر جديدة من الأعلاج والذين ينتمون إلى البلدان الغربية كالألمان، الدانمركيين والفلامان الخ...[4]

3. كفاءتهم وانضباطهم :

لم يكن رجال طائفة الريّاس بحارة عادين باعتراف الكتاب الغربيين أنفسهم، بحيث أبهرتهم حنكتهم وشجاعتهم ونظامهم. إذ يذكر هايدو (Hædo) أن رجال البحرية الجزائرية كانوا يجوبون البحار من الفجر إلى الغروب، وخلال الشتاء والربيع، دون خوف، ويسخرون من السفن المسيحية وكأنهم يخرجون لصيد الأرانب[5].

ويقول كاتب غربي آخر أنه على عهد الإخوة بربروسة كان بحارة الجزائر يشكلون إحدى قوى الحوض الغربي للمتوسط الرئيسية، وقد تزايدت سطوتهم بعد 1560، بحيث شكلوا أساطيل حقيقية تمكنوا بواسطتها من مهاجمة سواحل غرب الأندلس، الغابري، صقلية، نابولي، ليفورن... الخ[6].

ويقول غرامون (Grammont) أن ريّاس الجزائر لا نظير لهم في الحرب التي كانوا يخوضونها، فقد أظهروا حماسة لا تتوقف وجسارة كانت تكلّل في أغلب الأحيان بالنجاح[7]. ويضيف أن سفنهم كانت تشكل القسم البحري الغربي للسفن العثمانية[8]. ولم يقتصر هذا الأسطول على الجهاد البحري والدفاع عن السواحل بل مثل دورا في السياسة الأوروبية[9].

ومن المؤرّخين المسلمين يتحدث التمقروتي عن إقدامهم وشجاعتهم، بحيث شاهدهم عند مروره بالجزائر خلال المهمة التي قادته إلى اسطنبول ما بين 1589 و1591م، فيقول أن قباطنة السفن الجزائرية يمتازون بشجاعة وجلد، فهم يمتازون بنفاذ البصر الذي لا يخيب أبدا، إنهم أرعبوا المسيحيين في بلادهم[10]. كما يذكر بأن هؤلاء الريّاس أكثر قوة ومهارة عسكرية، بحيث كان يخشاهم العدو أكثر من قباطنة

اسطنبول[11]، الذين ذكر أنهم فشلوا في الحيلولة دون حدوث تمرّد للمسيحيين الذين كانوا يعملون بالسفينتين اللتين سافرتا إلى اسطنبول[12]. وكان على متن إحداها ملاحظا. ويؤكد التمقروتي أن هذا لم يكن ليحدث أبدا لقباطنة الجزائر، أما قباطنة اسطنبول فهم متراخون[13]. وكانت هذه الشهرة تعود إلى النظام والالتزام الذي يعتمدونه.

فقد كان النظام محكما على متن السفن الجهادية الجزائرية، إذ شكلت بحرية إيّالة الجزائر مدرسة لتكوين الرجال. فنظرا للموقع الاستراتيجي الهام – إذ كانت الجزائر ثغرا في المواجهة المباشرة مع الغرب المسيحي– كانت التدريبات والاستعدادات والمناوشات مستمرّة دائما، لذا فالتكوين كان جد صارم، لأن أي تراخ أو خطأ يكلّف غاليا.

ويصوّر غرامون جيدا هذه الوضعية، إذ يقول أن الرّايس يعتبر القائد الأوحد على متن السفينة التي يقودها، سواء كان مورسيكيا أو أسودا أو كرغليا، كان الجميع يخضع له حتى الانكشاريون الذين على ظهر السفينة[14]، فمن اللحظة التي تلمس فيها المجاديف مياه البحر يصبح ممنوعا أيُّ تحرّك خشية تعكير توازن السفينة والإنقاص من سرعتها، ولا يبقى سوى النادل (comite) يتنقل في السفينة من الأمام إلى الوراء لمراقبة طريقة التجديف. أما الرّايس ففي الجهة الخلفية للسفينة كان يسيّر ويصدر أوامره[15]. وكانت السفينة عند كل خروج إلى البحر تنظف وتلمّع كليا وتشحّم حتى تصبح كأنها جديدة[16]. كل هذه الأشياء جعلت من سفينة الجزائر أداة حرب جد متفوّقة مقارنة بالتي تملكها بقية الأمم[17].

ب. مقوّمات قوّة طائفة الريّاس :

1. السفن المستعملة :

كانت السفينة – أداة الجهاد الأساسية لدى طائفة الريّاس– تحظى باهتمام بالغ. وتتحدث الوثائق العثمانية عن الأنواع التي كانت تستعمل في الجزائر والتي تمثل في

الشينيات والفرقاطات[18]، والباشردات[19]، وغيرها.. وتتحدث المصادر الغربية عن أنواع متعدّدة كذلك.

فخلال القرن السادس عشر كانت السفن المفضلة هي سفن الشيني التي تتميز بكونها طويلة وسريعة الحركة، سهلة التوجيه، ذات صارية واحدة تسير بالأشرعة والمجاديف، ويتراوح عدد مقاعدها ما بين 24 و28، ولكل مقعد مجدافان، ويقوم على كل مجداف أربعة إلى خمسة رجال[20]. ونظرا لاستوائها وعدم ارتفاعها فإنها كانت عرضة لأن تبلّل بالأمواج بمجرّد أن يضطرب البحر[21]. وتنزع منها كل أدوات التزيين ولا يوضع في الأمام سوى مدفع المقدمة. ويوجد في هيكل السفينة فتحات لتمرير المجاديف التي تمنح سرعة إضافية عند المتابعة والانسحاب[22]. وقد جعلتها خفّتها تنزلق فوق الماء حتى شبّهها البعض بالعصافير، لحركتها السريعة واندفاعها المفاجئ نحو أهدافها[23]. وقد اعتمدت بحرية الجزائر طريقة التجديف (a scallacio) التي تقتضي أن يجدّف الجالسون على مقعد واحد بمجداف واحد، وهو ما يعطي للسفينة سرعة أكبر[24].

واعتمدت طائفة الريّاس إضافة إلى الشينيات على سفن أخرى صغيرة وخفيفة كالغليوطات والشراعيات (brigantin)، والتي دأبوا على تسميتها فرقاطة[25]. وكانت الغليوطات والسفن ذات الأشرعة الطويلة تصنع لتكون سريعة وسهلة القيادة وذات مرونة في توجيهها، إذ كانت هذه السفن تصنع دائما بطريقة تجعل هيكلها مسطحا وغير غائر قدر الإمكان وأملسا، وبدون زخارف غير ضرورية، وبناء على نماذج السفن ذات المرونة والسلاسة في القيادة، وكان جوف هذه السفن دائما ممسوحا[26].

بحلول القرن السابع عشر حصل تغيير جذري في تشكيل الأسطول الجزائري، إذ عوّضت السفن ذات المجاديف بالسفن المستديرة ذات 74 مدفعا وBlacks وBricks. لكن هذا لم يمنعهم من الاحتفاظ ببعض سفن الغليوطات لحماية الميناء وللسير في

المتوسط[27]. فحسب بوابي كان الأسطول الجزائري يتشكل من عنصرين متباينين من جهة السفن المستديرة التي تشكل الغالبية العظمى من السفن، خصوصا الربع الأول من القرن 17 والقطاع التقليدي المشكل من الشينيات[28].

وبحلول القرن الثامن عشر انتهت ملحمة السفن المستديرة وسجّلت عودة إلى سفن الشيني إضافة إلى الشبق. وفي القرن التاسع عشر أصبحت طائفة الريّاس تمتلك والفرقاطات وCorvettes وBricks وChaloupes وGoélettes وPolacre وشبق[29].

وكانت كل هذه السفن تأتي من مصدرين رئيسيين، إمّا عن طريق بناء السفن أو إعادة تجهيز السفن المعادية المقبوض عليها. وتشكل المصادر الرئيسية لاستخدام الطبقة العاملة الجزائرية، والنقص في اليد العاملة ذات المهارة كان يملأ من طرف الأسرى أو المرتزقة كنجّارين وصانعي مدافع وصانعي الأسلحة التي عليها طلب كبير[30].

2. الترسانات :

بحلول القرن السادس عشر أصبحت مدينة الجزائر تتوفّر على أحواض لصناعة السفن تمكّنها من صنع الغليوطات ذات 22 مقعدا للتجديف. وبمرور سنوات قليلة أصبحت المراكب والزوارق وغيرها من السفن تصنع في المراسي الجزائرية الأخرى[31]. ولم يكن ميناء خير الدين موجّها لأن يكون ملجأ سفن فقط، وإنما كان ترسانة لصناعتها أيضا[32].

كانت المراكب الكبيرة تصنع على ساحل باب الوادي، في حين تنشأ السفن الأقل كبرا على ساحل باب عزون[33].

وتذكر المصادر ترسانة باب عزون بشيء من التفصيل، إذ هي عبارة عن حوض مستدير الشكل تقريبا، يصل قطره إلى حوالي 80 قدما، ويبعد عن الرصيف بحوالي

300 قدم[34]. وتوجد هذه الترسانة الصغيرة الآن بعد امتداد مدينة الجزائر في المكان المعروف بساحة السلطة[35].

أما الترسانة الثانية الواقعة داخل الميناء بجوار رصيف السفن قبالة باب الوادي[36] فكانت في بادئ الأمر عبارة عن شاطئ صغير حوّل إلى ترسانة لصنع السفن الكبيرة.[37]

وبالإضافة إلى هاتين الترسانتين كانت هناك ترسانة قريبة نسبيا من مدينة الجزائر، هي ترسانة شرشال التي تبنى فيها السفن من نوع الفرقاطة والبرغانطي ذات 8 إلى 13 مقعدا، والتي كان ينشئها الأندلسيون[38]. كما كان بميناء الأزقاق المجاور لساحل مدينة عنابة ترسانة أخرى لصناعة السفن أقل أهمية من ترسانة الجزائر[39]، بحيث لا تصنع فيها سوى السفن البسيطة من نوع الشبق والمسطحات وبعض القوارب التجارية[40]. و لم يتوقف إنشاء السفن بالجزائر حتى في أسوأ أيام التقهقر[41].

3 . مصادر التموين :

أما بالنسبة للمواد الأولية التي كانت تستعمل لصناعة هذه السفن، فقد كانت الأخشاب تنقل إلى ترسانة الجزائر من نواحي شرشال[42]. كما كانت غابات القل الغنية بأشجار البلوط الأخضر تموّل هي الأخرى ترسانة الأيالة بالأخشاب الضرورية لصناعة السفن[43]. ولا تماثلها سوى غابات اليدوغ وبني صالح والقالة وضواحي السيبوس التي تموّل ترسانة الجزائر بالأخشاب والراتنج خاصة[44]. وكانت أخشاب غابات القالة أكثر ملاءمة لصنع أقفاص السفن لقابليتها للانحناء والتقوّس[45].

وليتسنّى التموين بصفة منتظمة وبأثمان معقولة أبرمت الحكومة مع الشخصيات المحلية اتفاقيات استفاد منها الطرفان، فتعهّد آل مقران بمجانة بقطع الأشجار وإرسالها حسب المقاييس المحدّدة مسبقا. وكانت مصلحة تعرف بالكراسطة تنشط ببجاية،

حيث مركز الفرز والشحن، ثم انضمّت كل من جيجل والقل إلى العملية[46]. وإذا حصل نقص فإن الطائفة تتفاداه عن طريق الحصول عليه كغنيمة عند اعتراض سبيل السفن المعادية المحمّلة بالأخشاب الملائمة لصناعة السفن[47]، أو عن طريق استرجاع بعض السفن التي يغنموها وتحويلها بكل براعة[48]. وبما أن الصناعة البحرية تحتاج إلى مواد أولية كثيرة وأن بعضها ينقص، فإن الطائفة عقدت اتفاقيات مع بعض الدول لتزويدها بما تحتاج إليه. فقد كانت السويد والدانمارك تقدّم خشب الشمال، هولندا تقدّم الحديد، النحاس، الأسلحة والكبريت... الخ. أما الباب العالي فكان يقدّم ردا على الهدايا التي تقدّمها له الجزائر مواد خاصة بالأسطول، مثل أخشاب البناء، حاملات المدافع، دفات المراكب، صالبات المراكب، والمجاديف... الخ[49].

كما كانت الطائفة تحصل على ما تحتاج إليه عن طريق مبادلة الزيت والقمح وبضائع أخرى بالعتاد الذي يدخل في صناعة السّفن.

وقد نجحت الطائفة في توفير ما تحتاج إليه إلى حد جعل شو (Shaw) يستغرب أن يكون للأيالة أسطول بذلك الحجم، وهي لا تتوفر إلا على القليل من خشب البناء ولا توجد به صواري ولا حبال ولا قماش الأشرعة ولا الزفت ولا الأنجر[50].

ج. دور طائفة الريّاس :

لقد اضطلعت هذه الطائفة بدور أساسي في تاريخ إيالة الجزائر سواء كان ذلك في المجال الداخلي أو الخارجي.

1. المجال الداخلي :

عرفت طائفة الريّاس أحسن أوقاتها خلال القرن السادس عشر، حيث سيطرت على المجال السياسي. فقد برز البايلربايات من الريّاس ليس فقط في المجال الإقليمي وإنما في المجال المتوسطي كله، أمثال خير الدين بربروس، صالح رايس، حسن بن خير

الدين، علج علي..الخ. وقد أثروا على نظام الحكم، إذ تزايد نفوذهم بفعل أرباب الجهاد البحري على حساب فرق الأوجاق في الفترة التي عرفت ازدهار البحرية 1518 - 1671، وكان الدايات أيضا يختارون من ريّاس البحر (1659 - 1671)، وعندما ضعفت البحرية وقلّت أهميتها أصبح الدايات يعيّنون من بين ضباط الجيش البري المكون من فرق الأوجاق التي تشكل النوبات والمخلاّت[51].

أما في المجال المالي والاجتماعي فقد كان لهم دور في تخفيف عبء الضرائب على سكان المدن والأرياف، إذ كلّما زادت مصادر الدخل البحري خفّت الضرائب على الأهالي ونقصت الانتفاضات وحركات العصيان[52]. وتسبب النشاط البحري لطائفة الريّاس في رفاهية مجتمع المدن وزاد في غنى الحضر، وتجمّعت ثروات طائلة في أيدي البحارة والتجار[53]. وعليه فدور طائفة الريّاس في فترات قوتها كان يشكل متنفسا للدولة ولخزينتها وللأهالي.

2. المجال الخارجي :

عرفت بحرية الجزائر خلال الفترة العثمانية مرحلتين متباينتين في علاقتها مع الدولة العثمانية، وبالتالي مع دول أوروبا "مرحلة التحالف أو توافق المصالح ومرحلة تناقض المصالح". فخلال الفترة الأولى كانت المصالح مشتركة بين طائفة الريّاس والدولة العثمانية، إذ كان الخطر مشتركا يتمثل في الخطر الإسباني، لذا تضافرت الجهود للقضاء عليه، فكانت مجموعة من المعارك الكبرى في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر انتهت برسم خريطة جديدة في هذه المنطقة.

فقد استدعت الدولة العثمانية بايلرباي الجزائر خير الدين باشا[54] في 1536 وكلّفته بقيادة الأسطول العثماني، وغادر الجزائر مع مجموعة من خيرة بحارته. وقد أدى تطور العلاقات الدولية واحتدام الصراع بين الدولة العثمانية وإسبانيا إلى حدوث سلسلة من الحروب الكبرى منها معركة بريفيزا 1538[55] التي انتصر فيها

الأسطول العثماني، ثم التدخل لمساعدة فرنسا في حربها ضد شارلكان 1542 - 1543[56]، فحصار مالطا 1565[57] التي كانت تشكل خطرا على المصالح الإسلامية والإخفاق في فتحها، ثم معركة ليبانت 1571[58] التي رغم انتهائها بهزيمة الأسطول العثماني فإن الجناح الذي مثل الجزائر والذي كان يقوده علج علي باشا[59] خرج غير متضرر من المعركة التي عرف كيف يسيّرها، بل أكثر من ذلك، فقد تمكن علج علي بايلرباي الجزائر — والذي عيّن نظرا لحنكته وقدراته أميرالا- من إعادة إنشاء الأسطول العثماني المحطم خلال المعركة، ولم يترك مجالا لأعداء الدولة العثمانية لينالوا منها، إذ ما إن حلّ الربيع موسمُ الإبحار حتى وجد العالم المسيحي نفسه أمام أسطول أقوى وأحدث من الذي سبق، وإن دُمّر[60] فجنَحت البندقية[61] أهم أطراف الحلف المقدس للسلم[62]. وفي 1574 فتحت تونس وضمت للدولة العثمانية، ولهذا أصبح كل الساحل الشمال الإفريقي يعترف بالسيادة العثمانية باستثناء المغرب الأقصى، واقتنعت إسبانيا بأن استنزاف قواها في حروب كبرى لا طائل منه فعقدت معاهدة صلح مع الدولة العثمانية في 1580 وجُدّدت في سنوات 1581، 1584، 1587[63].

بعد عقد هذه المعاهدات مع إسبانيا توجهت اهتمامات الدولة العثمانية ومصالحها إلى منحى آخر، و لم تعد مصالحها ومصالح طائفة الريّاس مشتركة بالضرورة، إذ استمرت الحروب مفتوحة بين الجزائر وإسبانيا، خصوصا وأن أجزاء من الأرض الجزائرية كانت ما تزال ترزح تحت وطأة الإسبان، فانتهجت طائفة الريّاس إستراتيجية جديدة في مواجهاتها لإسبانيا وحلفائها، تتمثل في شنّها حرب استنزاف ضدها لمحاولة إلحاق أضرار اقتصادية وعسكرية بها، غير أن الدول الأوروبية التي حققت تقدما تقنيا وصناعيا وبدأت تفكر في مد يدها على المنطقة الإسلامية لم تكن تنظر بعين الرّضا لنشاط هذه البحرية التي تمنعها من تحقيق أغراضها، لذا كانت الجزائر عرضة لسلسلة من الهجمات والاستعراضات البحرية لمحاولة الاستيلاء عليها أو على الأقل تقليم أظافرها وتقزيم دورها، فكانت حملات متعددة منها الهولندية في

1620، 1623، 1624، 1662، 1672، 1679. والإنجليزية 1620، 1622، 1655، 1661، 1671، 1678، 1816، 1824. والدانمركية في 1770، 1772، والإسبانية 1603، 1775، 1783، 1784. والفرنسية 1621، 1623، 1634، 1664، 1665، 1682، 1688، 1689، 1827 - 1830 الحصار ثم الاحتلال. هذا إضافة إلى الحملات المشتركة [64].

أما الدولة العثمانية فقد استمرت في اعتمادها على قوة بحرية الجزائر في مواجهة أعدائها، غير أن مساعدة طائفة الريّاس لها أصبحت مشروطة، خصوصا بعد معركة فالونا valona 1638 والتي تكبدت فيها الجزائر خسائر معتبرة، ولم تأبه بها الدولة العثمانية ولم تساعد الجزائر على تداركها، ممّا جعل الريّاس يقرّرون عدم الذهاب لمساعدة السلطان إلا بعد الحصول على ضمانات. فالجزائر بحكم موقعها لم تكن قادرة على البقاء بدون أسطول أو بأسطول منقوص، والموقع والظروف الدولية يفرضان عليها على الدوام امتلاك أسطول قوي مجهز وقابل للحركة في أي وقت. لذا فاعتبارا من هذه الواقعة صارت طائفة الريّاس تطلب التعويض عن الخسائر وفي بعض الأحيان حتى المساعدة المسبقة.

الهوامش :

[1]. الجلافطة : وهم الذين يسدون حزوز السفن بالزفت أو بمادة عازلة.

[2] Devoulx. A; La marine de la régence d'Alger in revue africaine, T13, 1869, p387.

[3] وولف. ح. ب، الجزائر وأوروبا، ص 106 – 107.

[4] Boyer.P, "les renégats et la marine de la régence d'Alger" in R. O. M. M, Revu de l'occident Musulman et de la méditerranée. 1985. Pp 97 -98

[5] Haedo. F. D. DE, "topographie et Histoire générale d'Alger". trad de l' espagnol par Dr Monnereau et A. Berbrugger." in RA, T15, p45.

[6] Bennassar. B, AP Jacquard. J, Le XVIe Siècle. Paris, Armand glin, 1972. p217.

[7] Grammont. H. D. DE, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515 – 1830). Paris, Ernest lerox, 1887; p50.

[8] Ibidem.

[9] Klein. H, Feuillets d'Eldjazair, Alger. L. Chaix, 1937, p. 107.

[10] Et Tamegrouti. A. H. B. M, En naffha el miskiya fi sifara et Tourkia (Relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589 – 1591) trad. et annotée par le lieutenant el. Henry de Castries, Paris, Paul Geuthner, 1929, p77.

[11] ibidem.

[12] ذهب التمقروتي من المغرب الأقصى على رأس سفارة إلى اسطنبول، وقد مرّ على الجزائر أثناء ذهابه. وبعد إقامة مطوّلة باسطنبول حملته سفينتان إلى الجزائر، ليكمل بعد ذلك سفره إلى المغرب الأقصى على متن سفينة جزائرية. وأثناء عودة السفينتين التركيتين إلى اسطنبول وقع على متنها تمرّد للمسيحيين الذين كانوا يعملون على متنهما واستولوا عليهما وعلى ما بهما من عباد وأموال. انظر Ibid p78 – 79.

[13] Ibid, p. 80.

[14] - حصل الإنكشارية على حق التواجد على متن السفن في سنة 1569.

[15] De Grammont (H. D), "Etudes algériennes : la course, l'esclavage et la redemption à Alger" in Revue Historique, Mai – août ; 1984, T25. Paris, ancienne librairie Germer Bailliére et Cie, felix Alcan, 1884, P19.

[16] De Grammont (H. D.) De,"Etudes", op. eit, P19.

[17] Ibidem.

[18] M. D N°14, H. 603, P. 423

M. D N°12, H. 15.

[19] M. D. N° 10, H. 14.

[20] Coulet DE Gard. R, La course et la piraterie en mediteranée, Paris, 1980, Pp. 90 -91.

[21] Grammont. H. D. DE, "Etudes.." op. cit, P18.

[22] Coulet DE Gard. R, op. cit, P. 91.

[23] Grammont. H. D. DE, " Etudes…" op. cit, P. 18

[24] Boyer. P, op. cit, P. 97.

[25] Haedo. F. D. DE, "op. cit" T14, P518.

26 ولف، ج. ب، الجزائر وأوروبا، 1500 – 1830 ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986. ص 193 – 194.

27 Boyer, P, "op. cit", P. 98.

[28] Ibidem.

[29] Boyer. P,op. cit, Pp 102 – 103.

[30] سبنسر. و، الجزائر في عهد ريّاس البحر. ص62.

[31] وولف. ج. ب، المرجع السابق، ص 192.

[32] Laye. Y, le port d'Alger, Alger, MVMLI, p. 28 ;

Lespes. R, Alger étude de géographie et d'histoire urbaines, paris, librairie felix alcan col du centenaire, 1930, P 112.

Lacoste. l, "la marine algérienne sous les turcs", l'amirauté d'Alger à travers l'histoire" ; in. Revue Maritime, 1930, P 477.

[33] بلحميسي. م. "صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك (ق16 – 19). مجلة الدراسات الأثرية، معهد الآثار، العدد الثالث، 1995، ص 51".

Belhamissi. M, Histoire de la marine algérienne (1516 – 1830) Alger, Enal, 1983, P 50.

[34] Devouly.A, A, "Alger, Etude archéologique et topographique sur cette ville aux époques romaine (icosium) arabe (Djezair Beni mezrana, Turque (El djazair)" RA, T20, 1876, P 251.

[35] Lespes/ R, Op. cit, P 112 note N° 1.

[36] Devolux. A, Alger… Op. cit, P 251.

[37] Ibidem ; Belhamissi. M, Op. cit, P 50.

[38] Haedo. F. D. DE, Op. cit, T15, P. 51.

[39] سعيدوني ناصر الدين، "الحياة الاقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني". الأصالة، عدد 34 – 35، 1976، ص 99.

[40] Derdour. H, Annaba, 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, T1, Alger, Sned, 1982, P. 336.

[41] La coste. L, "op. cit", P. 303.

[42] Haedo. F. D. DE, " Op. cit", T15, P41.

[43] La primaudiaie, E, "" le commerce et la navigation de l' algerie avant la colonisation francaise", in R. A. C, T3, 1860, P. 262.

[44] سعيدوني ناصر الدين، "الحياة الاقتصادية..."، ص 99

[45] Laprimandaie. E. DE, Op. cit, T2, 443.

[46] بلحميسي. م، المرجع السابق، ص 53.

[47] نفس المرجع، ص 55 – 56

[48] نفس المرجع، ص 57 – 58

[49] Lacoste. L, Op. cit, P 304.

50 Shaw. D, voyage dans la régence d' alger ou description géographique physique, philologique ect.. de cet état, trad de l'anglais par J. Mac Carty, 2ème ed, Tunis, Bouslama, S. D, Pp 194 – 195.

51. سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص200.

52. نفس المرجع، ص200 - 201.

53. نفس المرجع.

54. خير الدين باشا: (1466 - 1546) بحار مشهور وأمير الأسطول العثماني، بدأ نشاطه بنقل البضائع على متن سفينته إلى صاروس، سالونيك ونيقربون، بعد وصول سليم الأول إلى العرش ترك شرق المتوسط وتوجه نحو غربه، أين مارس الجهاد البحري مع أخيه عروج، وقد عينه السلطان العثماني بايلربايا على الجزائر بعد انضمامها للدولة العثمانية.

55. بريفيزا (1538) : تواجهت فيها الدولة العثمانية من جهة والحلف المقدّس عن الجانب المسيحي، انتهت لصالح العثمانيين، وفتح الباب على مصراعيه لتنامي النفوذ العثماني بالمتوسط، وشلّ الجانب المسيحي لمدة تزيد عن الثلاثين سنة.

56. مساعدة فرنسا : في (1543 – 1544) قام الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بالتوجه إلى فرنسا لمساعدتها في حربها ضد شارلكان وعسكر في طولون، ولم ينسحب إلا بعد عقد صلح كريسبي بين فرانسوا الأول وشارلكان في نهاية 1544.

57. حصار مالطا 1565 : شكلت مالطا خطرا كبيرا على الملاحة الإسلامية منذ منحها من طرف شارلكان لقراصنة رودس 1530، لذا قرر السلطان سليمان القانوني تطهيرها من القراصنة كما طهر رودس من قبل في 1522. غير أن مسعاه خاب ولم تفتح مالطا.

58. ليبانت 1571 : بعد فتح العثمانيين لجزيرة قبرص في 1570 عُقد حلف مقدّس ضدهم وصار الأوروبيون يحاولون تدميرهم لكي لا يتقدموا أكثر نحو الغرب، وحانتهم الفرصة في 1571 حيث هُزم الأسطول العثماني، غير أن ذلك لم يؤثر عليه حيث لجأ السلطان مرة أخرى لقائد تكوّن في الجزائر هو علج علي، ليعيد بناء بحريته، وقد أبرزت الأحداث أنه أحسن الاختيار.

59. علج علي باشا : ولد بكلابريا حوالي 1500، وقع في الأسر صغيرا، وبعد إسلامه اتخذ لنفسه اسم علي. كان في بداية حياته خليفة للرّايس درغوث، لكن بعد استشهاده آل إليه حكم طرابلس حتى 1568 عندما عُين بايلربايا على الجزائر. في 1569 ضمّ تونس للدولة العثمانية مؤقتا، وفي 1571 قاد الأسطول الجزائري في معركة ليبانت وأنقذه من الهزيمة. عينه السلطان العثماني أميرا للأسطول العثماني اعترافا بكفاءته.

60. كان علج علي قد استحدث سفن القلاع (Galèasse) التي لم تكن في الأسطول العثماني من قبل والتي كانت سببا في انتصار الأسطول المسيحي في المعركة. انظر:

Lesure .m ,lépante ,la crise de l'empire othman, juliard, Paris, 1972 p.229 ; Mantran. R, « écho de la bataille de lépante à constantinople », L'empire Othman du XVIes au XVIIIes. London, 1984, p 252.

61. البندقية: كانت تتربع على إمبراطورية تجارية في البحر الأبيض المتوسط تمتد على استريا، شواطئ دلماشيا، الجزر الأيونية وكريت. وبحلول القرن الخامس عشر حصلت من السلطان العثماني على حق احتكار التجارة بالإمبراطورية العثمانية على حساب بقية الجمهوريات التجارية. في 1489 اكتسحت جزيرة قبرص بهذا سيطرت تجاريا على شرق البحر المتوسط. انظر :

DESCOLA. J, « la bataille de lépante » in les grands tournants de l'histoire T3, L'aube des temps modernes. Paris 1970, p 128.

62. Djuvara. T. G, cent projets de partage de la Turquie, Alcan, Paris, 1914, p 105 ; Lapeyre. H, Les monarchies européennes du XVIes. P. U. F, Paris, 1973, p 105.

63. lapeyre.H, Op.cit, p 215.

64. سعيدوني ناصر الدين، ورقات، المرجع السابق، ص205-209.

الفصل الثالث

النظم الإدارية المركزية

إعداد الأستاذة عائشة غطاس

خصص هذا الفصل للنظم الإدارية المركزية، حيث يسمح بمعرفة آليات التسيير والتنظيمات التي استحدثها العثمانيون وتلك التي أبقوا عليها واستندوا إليها. رغم افتقارنا إلى المصادر المحلية[1] التي تتعرض إلى هذا الجانب الهام باستثناء دفتر التشريفات[2].

النظم المركزية

I. جهاز الإدارة المركزية :

شكلت مدينة الجزائر العصب الحيوي، إذ تمركزت بها جل مؤسسات الحكومة مما جعلها تأخذ شكل المدينة الدولة "la cité-Etat" [3].

1. مؤسسة الديوان أو مجلس الحكومة :

رغم افتقارنا لمعلومات دقيقة حول تاريخ إنشائها وحول مهامها في العهد الأول آلا أنه يمكن القول أن تأسيسها يعود إلى عهد خير الدين بربروسة مثلما ذكره صاحب "غزوات عروج وخير الدين"[4]. أما الأسير الاسباني "هايدو" فقد تحدث عن عدد هام من المستشارين المساعدين للباشا في إدارة وتسيير الحكومة[5]. وعلى الرغم من عدم وضوح النص إلا أنه يوحي بوجود هيئة مساعدة للباشا ولعلها الديوان.

ومن المؤكد أن "هيئة الديوان" أضحت أهم مؤسسة على مستوى الحياة السياسية ابتداء من مطلع القرن السابع عشر إذ ذكر الدبلوماسي الفرنسي "دي بريف" DEBREVES أن جل القضايا المتصلة بالسياسة الخارجية والأوامر السلطانية وما إلى ذلك كانت تعرض على الديوان[6]. كما اعتبرها البرتغالي "كرفالومسكارنياس" أعلى سلطة بمدينة الجزائر.

"...*la principale autorité de la ville d'Alger, la première en toutes choses, aussi bien dans la paix que dans la guerre est le Divan* [7] "

وفي سياق حديثه عن الديوان، وصف نظام الحكم العثماني القائم وقتئذ بالجزائر بالجمهوري كما هو الشأن في جمهورية البندقية "..... إنها جمهورية على غرار جمهورية البندقية..." [8].

ولا يمكن الحديث عن ديوان واحد بل عن ديوانين : الديوان الصغير والديوان الكبير. يضم الأول كبار ضباط الانكشارية وعدداً من الموظفين الكبار ويرأسه الباشا، وكان في بادئ الأمر يمسك بالسلطتين التشريعية والتنفيذية في آن واحد، دون تدخل لهيئة الديوان الكبير. أما الديوان الكبير فيضم ضباط أو قادة الجند ويضم ممثلي السلطة الدينية كما يحضره ممثلون عن طائفة "رياس البحر" وعدد من أعيان ووجهاء المدينة ويمكن القول أنه يضم عدداً كبيراً يربو عن ألف شخص، ويرأسه القائد الأعلى للجيش الانكشاري[9]. لكنه يبدو أن هيئة الديوان الصغير تضاءل شأنها نتيجة ضعف الباشوات، وبذلك فسح المجال أمام الديوان الكبير. الا أنه مع بروز بعض الدايات الأقوياء سيما مع مطلع القرن الثامن عشر شعروا بضرورة العودة إلى تأسيس ديوان خاص موازي لديوان الانكشارية وهو ما يشير إليه "فانتوردي بارادي" - الذي تعد ملاحظاته في غاية الأهمية والدقة - : توجد مؤسستان: الديوان الخاص، والديوان العام[10] بينما اكتفى القنصل الفرنسي "فيليب فالير" بالإشارة إلى ديوان واحد وهو "*conseil d'Etat*"[11].

و استنادا إلى رواية الأسير الإنكليزي " فرانسيس نايت"- وهو أحد أرقاء البلاط - فإن الديوان كان يجتمع يوم السبت بالقصبة ويوم الأحد صباحا بدار الإمارة[12]، ويضيف أن جلسات الديوان كانت مفتوحة خلال أيام الأسبوع كله.

أما إبان القرن الثامن عشر، فقد كانت تتم أربع مرات في الأسبوع في أيام الاثنين والأربعاء والخميس والسبت في دار الإمارة.

وكــان أعضاء الديوان يضعون قطعة من خيط الذهب تلصق في مقدمة عمائمهم للتعريف بمقامهم القانوني[13].

2. الموظفون السامون أو مجلس الحكومة :

شــكل مجلس الحكومة أو هيئة الموظفين السامين الجهاز الأساسي الذي ارتكزت عليه الحياة السياسية ابتداء من مطلع القرن الثامن عشر ويتصدره الداي[14].

1. الداي :

كــان وصول الداي إلى سدة الحكم يتم من الناحية النظرية عن طريق الانتخاب على مستوى هيئة الديوان بيد أن الواقع العملي كان أكثر تعقيدا من ذلك[15].

لقد سعى الدايات منذ اعتلائهم السلطة عام 1671 إلى الإفلات من قبضة الجند مــن ناحــية والى رفــض مبدأ الانتخاب وإحلال محله نظام يسمح بانتقال السلطة بطريقة آلية من ناحية أخرى، محاولين بذلك تأسيس حكم محلي وراثي على غرار ما أحدثــه البايات في تونس[16]. لكن تمردات الجند المتكررة حالت دون تحقيق ذلك. ومــن ثمة خضع تعيين الداي إلى الظروف المحيطة بوفاته. فإذا كانت نهايته الاغتيال على يد الجند فإن هؤلاء يعينون خليفته وواضح أن الفئة الأكثر قوة ونفوذا هي التي تفــرض مرشحها أما إذا كانت وفاة الداي وفاة طبيعية فغالبا ما كان يتولى السلطة من رشحه الداي لخلافته سواء ضمن وزرائه أو ضمن المقربين إليه[17].

وفي الثمانينات من القرن الثامن عشر كان الداي يختار ضمن الوزراء الثلاثة وهم الخــزناجي وآغــا المحلة وخوجة الخيل في حين لم يكن في استطاعة وكيل الحرج أو وزير البحرية الارتقاء إلى منصب الداي إلا إذا تولى أحد المناصب المشار إليها[18].

و الشخصية الأولى التي أضحت مؤهلة لتولي منصب الداي هي "الخزناجي" ففي أعقــاب وفــاة الداي علي شاوش[19] خلفه محمد بن حسين الذي كان خزناجيا[20].

رشيئا فشيئا أصبح [illegible] الزهار : "... وفي عادتهم إذا مات الأمير يتولى مكانه الخزناجي..."[21]

ومــن بين الشخصيات التي ارتقت من منصب الخزناجي إلى منصب الداي نذكر علــى سـبيل المــثال لا الحصر : علي باشا نقسيس الذي كان خزناجيا لمدة سبع سـنوات 1748-1754[22] ومحمــد بن عثمان باشا، وحسن الخزناجي، ومصطفى الخزناجي[23].

ويعــد ذلك انتصاراً للدايات على "الأوجاق" حيث نجحوا في ترسيخ هذا التقليد لكــنه بعــد أزمة 1805 واغتيال الداي مصطفى باشا[24]، رجع الجند من جديد إلى الاستبداد بالسلطة وأضحوا أصحاب الحل والعقد، يعينون ويعزلون الحكام حسب هواهم والأمثلة بهذا الشأن عديدة مثلما نقرأه في مذكرات الإخباري أحمد الشريف الــزهار، إذ كثيرا ما ترددت عبارة "...استقدمه العسكر لدار الإمارة....فأجلسوه على سرير الملك..."[25] والأمر نفسه أكده حمدان بن عثمان خوجة : "... وهكذا صــارت تلك الميليشيا المسلحة التي لا مبدأ لها صارت ترتكب المخالفات...ثم قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثورات وقلب قادة الدولة بحسب هواهم.."[26].

2. الخزناجي[27]

يتبوأ الخزناجي المكانة الأولى على مستوى هيئة الوزراء، نظرا لإشرافه على جانب حــيوي وهــو خزينة الدولة. مما جعل القنصل الفرنسي فاليير يصفه بالوزير الأول وبالمدير العام للشؤون المالية[28] فهو إذن المشرف على المالية من خلال مراقبة خزينة الدولــة، مــن حيث استلامَ المداخيل التي كانت تصل من مختلف أنحاء البلاد سواء كانت عينية أو أشياء أخرى ثمينة، وإيداعها بالخزينة. وكانت عملية استلام المداخيل تــتم بحضــور الــداي والكتاب الأربعة[29] وبحضور الديوان. وهو بكلمة واحدة المشــرف على مراقبة مصادر الدخل، والمشرف أيضا على مراقبة وجوه الاتفاق[30].

ورغم الصلاحيات المنوطة بشخص الخزناجي إلا أنه لا يسمح له بالاحتفاظ بمفاتيح الخزينة بل يحتفظ بها الداي[31] .

وعادة ما كان يتم التعيين لمنصب الخزناجي من قبل الداي وأعضاء الديوان. ويخضع ترشيحه لاعتبارات منها أن يكون مخلصا ومواليا لهم[32] ويساعد الخزناجي موظف يدعي "contador"، أي الصايجي أو العداد وتحت أوامر هذا الأخير أربعة موظفين، اثنان يهوديان يراقبان النقود المغشوشة[33].

ويلاحظ أن "منصب الخزناجي " عرف تطوراً ملحوظا فبعدما كان في العهد الأول مجرد موظف يشرف على الخزينة خاضع لأوامر الكتاب الأربعة الكبار أضحى مع أوائل القرن الثامن عشر يتبوأ المرتبة الثانية في نظام الحكم [34] وأصبح الشخصية الأولى المؤهلة لتولي منصب الداي مثلما مر بنا.

3. آغا المحلة : Mehellé Agasi أو آغا الصبايحية[35]

وهو الوزير الثاني[36] والقائد الأعلى للحرب البرية [37]"Général de la guerre pour la terre"

أما دفتر التشريفات فقد عرف مهام آغا الصبايحية على النحو التالي: "... إنه مكلف بإدارة العرب وبالإشراف على الفرسان وهو الذي يترأس عادة الحملات الموجهة ضدهم..." [38]. ولا يختلف عنه كثيرا التعريف الذي أعطاه له فالبير : "...إنه القائد الأعلى لكل فرق المملكة الفرسان منهم والمشاة وبمجرد مغادرته مدينة الجزائر يصبح يدعى ملك الأرياف. وهو بالفعل يتمتع بالسلطة المطلقة على المناطق الداخلية..." [39].

وتمتد سلطة الآغا إلى المناطق الواقعة ما بين بحلوان إلى يسر ويخضع له سبعة قيادة ممن يديرون الأوطان وهم : قائد بني خليل وقائد بني موسى وقائد الخشنة، وقائد بني جعد وقائد بني سليمان وقائد عريب وقائد حجوط، وكان هؤلاء القياد من العنصر التركي[40].

ويخضع جل الموظفين على مستوى إدارة الوطن إلى الآغا[41] ويساعده أربعة كبراء وهم باش شاوش والكاهية وباش علام وباش مكاحلي، وهم من العنصر المحلي. وأنيطت بهم مهمات منها : السهر على تبليغ الشكارب للآغا وتعيين فرسان الصبايهية، وجباية الضرائب وفرض الأمن وما إلى ذلك[42].

4. خوجة الخيل أو آت خوجة سي At cogeasi

وهو الوزير الثالث وكان من المرشحين لتولي منصب الداي مثلما أشار إلى ذلك فانتور دي بارادي *Parmi lequels roule **l'élection du dey lorsqu'il n'y a point** de révolte, chose qui devient plus rare*[43]

وتتمثل مهامه في الإشراف على مدا خيل الأراضي التابعة للسلطة أو أراضي البايليك، بل هو المسؤول على إحيائها وإصلاحها[44] . كما يشرف على ما يقدمه البايات عينا من خيول ومواشي إلى دار الإمارة الأمر الذي جعل سلطته تمتد إلى عرب الصحراء، ومن أهم النجوع التي كانت خاضعة لنفوذه: نجع رحمان ونجع الزنافرة ونجع ألبوا عيش ؟[45].

وكان لخوجة الخيل أعوان يساعدونه في أداء مهامه من بينهم قائد يدعى "قائد العرب" يقيم بسهل متيجة. وكان تحت أوامره هو الأخر زمرة من الأعوان والشيوخ أوكلت إليهم جباية المطالب المخزنية أي الضرائب. وفضلا عن ذلك كانت تحت تصرفه مجموعة من الفرسان يعرفان بالسرارجة[46]. ومن أبرز من تولى منصب خوجة الخيل الداي حسين : "...وكان وزيراً ثالثا يكنى بخوجة الخيل"[47] ومن بينهم أيضا خليل خوجة الذي عاصر الداي حسين[48].

كما سمحت لنا عقود المحاكم الشرعية بالتعرف على البعض منهم مثل السيد سليمان خوجة الخيل[49] والسيد عمر خوجة الخيل[50].

5. بيت المالجي أو الناظر على مؤسسة بيت المال[51] :

يعود منصب بيت المالجي أو الناظر على شغل المواريث المخزنية، إلى الستينات من القرن السادس عشر ومن بين الأسماء الأولى التي أطلعتنا بها وثائق المحاكم الشرعية يمكن الإشارة إلى القائد عادل بن خيضر التركي، والقائد سعدي خوجة والقائد صفا بن عبد الله[52].

وتمثلت مهمته مثلما حددتها الوثائق في : "... النظر على شغل المواريث المخزنية وبيع ما هو على ملك بيت المال من الدور والأراضي والأجنة داخل الجزائر وخارجها" ومن ثمة يتولى بيت المالجي مراقبة تركات أو مخلفات جميع من يتوفى دون عقب، أو دون عاصب، ومن يطول غيابه كالأسرى فيعدون بذلك في عداد الموتى أو غريب أو مجهول. ولا يؤذن بدفن أي ميت إلا بأمر من بيت المالجي الذي يشرف في الواقع على إحدى أهم المؤسسات القائمة بمدينة الجزائر وقتئذ، وهي مؤسسة بيت المال.

وهناك مجموعة من الموظفين يسهرون على تسيير مؤسسة بيت المال. ومن أهم المساعدين للناظر قاض وموثقان وكاتبان ومسجلون.

ففي أعقاب حمل الميت إلى مثواه الأخير، يتوجه الموثقان إلى مقر إقامة المتوفى، حيث تتم عملية إحصاء وجرد ما اشتمل عليه البيت من مكونات، وتحفظ الأشياء الثمينة من مجوهرات وغيرها خشية ضياعها إلى غاية حضور جميع الورثة[53].

ولا بد من الإشارة إلى أن تصفية التركات على يد الناظر على مؤسسة بيت المال كانت غالبا ما تتم بعد الأربعين[54].

وكان منصب بيت المالجي منصبا حساسا وخطيرا في آن واحد، وتولاه المنخرطون في الجيش. ففي العهد الأول كان يقع اختياره ضمن صنف القياد، ثم

انتقل إلى صنف الآغوات، مثل الحاج مصطفى آغا ابن محمد التركي 1672م والحاج مرتضى آغا ابن على التركي 1675م والأمين المعظم الحاج محمد آغا 1702 م.

ومع نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر أصبح بيت المالجي يختار ضمن صنف البلكباشية كالحاج أحمد بلكباشي بن ولي التركي 1747 والحاج علي البلكباشي بن رمضان التركي1786.

وتجدر الملاحظة إلى أن منصب بيت المالجي كان يدر أموالا طائلة على أصحابه، فقد بلغت ثروة الحاج علي المتوفى قبل شهر جويلية 1792 ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وثلاثة عشر ألف ريال وهي ثروة مذهلة! كما خلف حسين بيت المالجي ثروة ضخمة بل يعد أغني واحد في الفترة ما بين 1817-1826[55].

ويظهر من سجلات المحاكم الشرعية أن الحاج حسين بن محمد التركي تصدر مؤسسة بيت المال مرتين : 1768-1773و 1799-1803[56].

6. وكيل الحرج أو وزير البحرية :

تحت إدارة إشرافه كل ما يتصل بشؤون البحرية والغزو البحري والعلاقات الخارجية...

وتحت أوامره اثني عشر بولوكباشيا يراقبون المحلات المعدة لعتاد تجهيز السفن كما يخضع لسلطته الأميرال أو القبطان وقائد الميناء والحراس ورياس البحر[57].

وارتبطت مكانته بنشاط الغزو البحري، ففي الثلاثينات من القرن السابع عشر - وهي الفترة التي تتوافق والعصر الذهبي للغزو البحري- كان وكيل الحرج أحد أبرز الموظفين السامين، حيث يلي مباشرة الكاهية ويسميه فرانسيس نايت "Alliman"[58] وحينما تقهقر الغزو البحري، فقد مكانته.

3. هيئة الكتاب الكبار :

تضم هذه المجموعة أربع كتاب يقع اختيارهم وتعيينهم من قبل الداي. يدعى الكاتب الأول : باش دفتر، أما الكتاب الثلاث فيعرفون على التوالي بباش مقطاعجي، والمقطاعجي والرقمجي[59].

ويشرف هؤلاء الموظفون على الدفاتر الصادرة عن السلطة وتخص قوائم الجند، ودفاتر الجباية ودفاتر الجمرك أو الديوانة تتعلق بكل ما يصل من واردات من الدول الأوروبية.

ويتمتع هؤلاء الكتاب بصلاحيات واسعة ولآرائهم وزن وتأثير في حل القضايا، لكنهم لا يقررون شيئا دون أمر من الداي[60].

وفضلا عنهم وجد كاتبان آخران يعرف الأول بوكيل الحرج الكبير ويعرف الثاني بوكيل الحرج الصغير[61].

4. هيئة الخوجات :

تتميز هذه الهيئة بكثرة عددها وتنوع مهامها حيث ضم نحو ثمانين خوجة. يتصدرهم موظف يدعى "باش خوجة" أي رئيس الخوجات ويلاحظ أن ثمة دقة متناهية في تحديد مهام كل خوجة ونذكر منهم : خوجة العيون، وخوجة مخزن الزرع وخوجة الملح وخوجة الفحم وخوجة جمرك باب عزون وخوجة التوت[62] وخوجة الجلد، وخوجة الشطبة[63].

5. هيئة القياد :

تطلعنا الوثائق بعدد من الموظفين عرفوا بالقيادة أنيطت بهم مهام شتى، ومن هؤلاء نذكر قائد العبيد وقائد الزبل وقائد الشوارع، وقائد الفحص، وقائد الدخان[64].

6. موظفو القصر:

اشتمل القصر على عدد هام من الموظفين أنيطت بهم مهام عديدة ومتنوعة على مستوى السرايا فهناك وظائف تتعلق بالتسيير وأخرى بالخدمات[65].

1. **الصراف أو الصايجي** : يتولى وظيفة الصايجي على مستوى القصر شخصان، يختاران عادة من العنصر المحلي (أي من غير الأتراك). وتتمثل مهمتهما في مراقبة ووزن كل ما تشتمل عليه خزينة الدولة، ويتم ذلك بحضور الخزناجي[66].

2. **الترجمان** : يقع اختياره هو الأخر من العنصر المحلي ويشترط فيه أن يحسن اللغتين العثمانية والعربية[67].

3. **الكاتبان** : ويتم اختيارهما من العنصر المحلي أيضا وعرف هذا المنصب بخوجة العرب، حيث تتمثل مهمتهما في قراءة ما يرد إلى القصر من رسائل باللغة العربية سواء من الخارج أو من الداخل وهما اللذان يكلفان بالرد عليها[68].

4. **الخزندار** : أو أمين الخزنة، وهو غير الخزناجي، إذ هو بمثابة أمين الداي الخاص، حيث يقوم بالحفاظ على ممتلكات الداي الخاصة من أسلحة وأثاث. أي كل ما كان تحت تصرف الداي الخاص على غرار ما كان ساريا في الدولة العثمانية[69].

5. **أهجي باشي**[70] : (اتشى باشي) : ورد ذكره في الوثائق المحلية على هذا النحو اهجي باشي مثال ذلك صاري حسن اهجي باشى المتوفى عام 1787. واهجي مصطفى طباخ باشى المتوفي في السنة نفسها. وتحت أوامره عدد كبير من الطباخين ويساعده طباخ يدعى كيهية. ويكشف لنا استقراء دفاتر المخلفات أن عدد الطباخين على مستوى القصر كان هاماً[71].

6. **البسكري سيدنا** : وهو من العناصر الوافدة من مدينة بسكرة، وهو خادم الباشا" أو الداي" الخاص[72] ويعرفه الزهار "*بخادم الأمير الذي يقال له البسكري متاع الباشا*[73]

7. **خوجة باب القصر** : وهو المكلف بفتح أبواب القصر في كل صباح، ويحتفظ بالمفاتيح إلى غاية ما بعد صلاة العصر حيث يسلمها ثانية للداي أو الحاكم[74].

8. **المطرب باشي داي** : وهو رئيس المطربين[75].

9. **الشواش** : وهم مجموعة تضم اثني عشر شاوشا من العنصر المحلي، يتصدرهم باش شاوش من العنصر التركي[76] ويظهر أنه وجدت مجموعة ثانية من الشواش مقصورة على العنصر التركي. وتمتد صلاحيات المجموعة الأولى إلى العرب والمسيحيين واليهود وذلك وفقا لما يأمر به الداي[77] بينما لا تتعدى صلاحيات المجموعة الثانية العنصر التركي. ويقتصر دور هؤلاء الشواش على أداء بعض المهام داخل المدينة من ذلك مهمة الفلقة على مرتكبي المخالفات...

10. **كاتب أو خوجة حرس الداي** :

وهو النوبتجي خوجسي cogeasi Neubetgi لا ينال هذه الوظيفة إلا من كان يحظى بثقة كبيرة على مستوى القصر. وهم من الموظفين الذين لا يبرحون القصر ليلا ونهاراً. وكانت هذه الوظيفة من الوظائف التي تسمح لأصحابها بالارتقاء والوصول إلى أعلى المناصب[78].

وتتشكل مجموعة النوبتجية من اثنين وثلاثين نفراً يقع اختيارهم من جند الحاميات، وليس من المنخرطين في المحلة. وتدوم خدمتهم على مستوى القصر سنة واحدة. وأنيطت بهم مهمة حساسة تتمثل في السهر على ضمان الأمن على مستوى القصر سيما أمن الداي.

11. **منظفو القصر**: أنيطت مهمة تنظيف القصر بالأرقاء المسيحيين وبلغ عددهم نحو أربعين أسيرا[79].

II- إدارة وتسيير المدينة :

1. مؤسسة مشيخة البلد :

إن الأخبار بشأن "مشيخة البلد" بمجتمع مدينة الجزائر إبان القرن السادس عشر.لقد نفى الأسير الاسباني "هايدو" وجود أية مؤسسة تسهر على المصلحة العامة وكذا أية سلطة شبيهة بسلطة شيوخ البلد، أو رؤساء النقابات أو أي نوع من الإدارة المدنية كمصلحة الشرطة، وهو رأي لا بد من دحضه[80] فمصادر القرن السابع عشر سواء كانت رسمية أم غيرها تؤكد وجودها[81].

إن أول إشارة إلى منصب شيخ البلد وردت في مخطوط "قانون على الأسواق". إذ جاء ذكر شيخين في آن واحد وهما : سي محمد الفقير والحاج محمد بن النيا في الصلح الذي تم بين أمين التبانين وأمين الصباغين عام 1695[82]. وتسترعي ظاهرة الشيخين كل الاهتمام، لا سيما أن دراسات عديدة ركزت على افتقار المدينة العربية إلى تنظيمات مدنية-حضرية محكمة. ويظهر أن مدينة الجزائر عرفت دون غيرها من المدن العربية ازدواجية التسيير على مستوى هذه البنية الحضرية طيلة العهد العثماني[83]

لكن ما مرد هذه الازدواجية ؟ فهل كان لكل واحد منهما مجال معين ومحدد بصلاحياته واختصاصاته. أم أنهما مارسا معا، جنبا إلى جنب، مهامهما. يظهر من استقراء اتفاقات ومحاضر الجماعات الحرفية التي تضمنها القانون. وغيرها أن الشيخين؟ اشتغلا سويا، فقد أسهما معا في البت في النزاعات والخلافات التي كانت تنشب بين الجماعات الحرفية بين الفنية والأخرى، كما قاما معا جباية الضرائب المستحقة على الحرف هذا كما امتدت صلاحيات شيخ البلد إلى المجال العقاري أحيانا حيث شارك في ذلك رفقة عدد من الموظفين[84].

ونعتقد أن مؤسسة مشيخة البلد ميزها تسيير ثنائي –جماعي مع صلاحيات محددة لكل منهما. ولعل أحدهما له صلاحيات اقتصادية وثانيهما له صلاحيات إدارية – اجتماعية ممثلة على الخدمة العمومية وما يتصل بها.

خضع تعيين شيخ البلد لأعلى سلطة ممثلة في الباشا أو الداي ويقع اختياره من العنصر المحلي " الداي".

ويبدو جليا أن العنصر الأندلسي أدى دورا مميزا في الوظائف الحضرية بمدينة الجزائر حيث تقاسم على أهم هيئة في تسيير المدينة مع العنصر الجزائري القح أي"الدزيري" بل يبدو أن الغلبة كانت له. ويحق لنا أن نتساءل عن غياب الأسر البارزة كأسرة سالم التومي والثعالبي وأسرة سيدي السعدي وكيوان ومحمد الشريف الزهار وغيرها[85].

ورغم صعوبة جمع الأخبار المتناثرة إلا أنه يمكن القول أن المنصب أصبح وراثيا منذ 1708-1709 في أسرة الشيخ إبراهيم التمام التي احتكرت مشيخة البلد لأزيد من إثنين وسبعين سنة. كما تولتها أسرة عاشير الأندلسية لفترة وجيزة قبل 1745 [86]. ومن الأسر التي أسندت إليها مشيخة البلد، نجد أسرة بوضربة الأندلسية التي تعد إحدى العائلات البارزة والثرية في مجتمع مدينة الجزائر الأمر الذي فسح لها المجال لتبوأ مؤسسة حضرية في مثل هذه الأهمية[87]. وتولتها أيضا عالة بن الطبال الاندلسية. ولم تكن على مايبدو مشيخة البلد وراثية في كل الأسر التي تولتها.

ومن خلال وقوفنا عند أسماء العائلات التي تولت هذه المهمة والألقاب المهنية التي صاحبتها يظهر إن التجارة فسحت مجال الارتقاء الاجتماعي، فالثرة حينئذ كانت سبيلا للوصول إلى السلطة.

تمتع شيخ البلد باختصاصات وصلاحيات واسعة فهو صاحب المدينة مثلما يعرفه البعض والمسؤول عن كل ما يحدث فيها. والمشرف الأعلى على شؤونها. ومن مهامه

أيضا السهر على الجانب الأخلاقي فهو الذي يعاقب المستهترين، ووضع تحت تصرفه سجن خصص لذلك الغرض[88]. كما امتدت صلاحياته إلى المجال الاقتصادي من ذلك مراقبة الحرف والصنائع وجباية الضرائب المستحقة على أصحاب الجماعات الحرفية[89]. ونظرا لاتساع مهمات شيخ البلد، فقد عاضده موظف عرف "بالشاوش". وكان شيخ البلد بمثابة همزة وصل بين سكان المدينة والسلطة، وتخضع لإشرافه مختلف المصالح المدنية من نظافة، وصيانة الطرقات وتوفير المياه وما إلى ذلك. حيث خضع لسلطته جميع الموظفين الساهرين على تلك المصالح والذين عرفوا عادة "بالقياد"، كقائد العيون وقائد الشوارع وقائد الزبل.

وعن مؤسسة مشيخة البلد يقول القنصل الأمريكي "وليام شالر" : "توجد حكومة محلية تشمل شيخ البلد، أو الحاكم المدني وجميع الموظفين في هذه الإدارة من الأهالي... " [90].

مما سبق يمكن القول إن تسيير مؤسسة مشيخة البلد ميزته الثنائية مع صلاحيات محددة لكل واحد منهما، أحدهما له صلاحيات اقتصادية وثانيهما له صلاحيات إدارية – اجتماعية ممثلة في السهر على الخدمات العمومية وما يتصل بها.

مدير الشرطة :

تحدث شالر عن مدير أو رئيس الشرطة الذي تمتد صلاحياته إلى مراقبة الحمامات وأماكن الدعارة[91] ولعله الكاهية الذي كان بمثابة المحافظ العام للشرطة La haute surveillance de la police وكان تابعا للداي مباشرة[92].

أما كاهية الخزناجي فتحت إشرافه الرقابة العامة للشرطة النهارية بينما أنيطت الشرطة الليلية بالمزوار. ويساعده قائد زواوة الذي أسند إليه جانب منها، ولم يكن هذا الأخير من العنصر الزواوي بل كان تركيا[93]. ووجود منصب سوباشي الذي أسند إلى أعضاء الجيش الانكشاري[94] كما وجد موظف آخر وهو " قول آغا" أو

"آغـــا القل" وهو بمثابة مدير الشرطة الذي شملت دائرة اختصاصاته مراقبة الحمامات ومـــنازل الدعارة، وكان يشرف على نحو أربعين شخصا مكلفين بالشرطة الداخلية للمدينة أثناء الليل ويخضع للخزناجي مباشرة[95].

المحتسب :

ارتبطـــت مهام المحتسب بالحسبة وهي في الأصل وظيفة دينية بحتة نابعة من الأمر القـــرآني القاضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو يستمد سلطته من مصلحة الدين العليا. وهو الحارس والمسؤول عن السير الحسن للمدينة على المستويين المادي والأخلاقي. وارتبطت وظيفته في الدولة الإسلامية في جميع عصورها بوجود الأسواق[96].... إن السوق بما يتضمنه من بضائع وأسعار ومعاملات يدخل في دائرة مسؤولية المحتسب، فالمحتسب بمثابة الناطق الرسمي للقاضي[97].

لقـــد حصـــر دفتر التشريفات صلاحيات المحتسب في السهر على تنفيذ أسعار الأسواق ومراقبة جودة الخبز، ومعاقبة المخلين بالنظام بالجلد على الفور[98]. "كما يسهر على المصلحة العامـــة لسكان المدينة، كصيانة الشوارع ومنع كل ما من شأنه إعاقة حركة المرور وعرقلتها بالمديـــنة[99] وـــله صلاحيات الأمر بتدمير البنايات القديمة المهددة بالانهيار ويسهر أيضا على إنارة المدينة. ويعود تقلص مهامه بمدينة الجزائر إلى دور كل من القاضي وأمين الأمناء وشيخ البلد فوظيفة الحسبة وإن ظلت قائمة لم تعد منوطة بشيخ المحتسب وحده بل أصبح يشاركه فيها أطراف عديدة، مما قلل من شأنه.

المزوار:

لقد أبقى العثمانيون على المنصب[100]، لقد كانت وظيفة المزوار في الثمانينات من القـــرن السادس عشر عظيمة الشأن إذ خضع تسيير المدينة وإدارتها لسلطتي المحتسب والمزوار[101] استنادا إلى ما ذكره الأسير الإسباني "هايدو".

غـــير أن مهامـــه تقلصت وأضحت محصورة في الحراسة الليلية وغدا في أواخر العهد العثماني يعرف بقائد الليل[102]. وكان يعاضده في مهمته قائد يدعى "قائد زواوة"[103]. وكـــان له سجن خاص يقع بسوق المقفولجية، يزج فيه من يقترف أخطاء كالخروج إلى شـــوارع المدينة بعد صلاة العشاء دون استعمال الإنارة[104]، كما أنيطت به مهمة تنفيذ عقوبة الإعدام والجلد على كل مرتكبي المخالفات من الأهالي.

ومع نهاية القرن الثامن عشر، قل شأن الوظيفة وغدت غير مستحبة لما أنيطت بها مراقبة نساء الدعارة. وتأكد جل المصادر الغربية وتركز على أن هذه الوظيفة القليلة الشأن لم توكل سوى للعناصر المحلية، وفي الواقع فإن الإدارة المحلية بوجه عام أنيطت بالعنصر المحلي.

وفي ظـــل نظام ميزته ثنائية المدني —العسكري وطبعته الصرامة عرف الوضع العام الهدوء وعاش المواطن الراحة والاطمئنان. ولم تشهد المدينة اضطرا بات أو قلاقل"... ولا وجود للصوص إلا نادرا، والجرائم والاغتيالات تكاد تكون منعدمة ولا يمكن إن تلفـــت أيـــة جريمة. وتنير المدينة مصابيح خافتة قليلة، وهي بعيدة بعضها عن بعض وتغلـــق كل الشوارع تقريبا بباب وهو الشيء الذي وفر الأمن والراحة للمواطن في منزله..." [105]. ونوه القنصل الأمريكي "شالر" كل التنويه بفعالية نظام الشرطة الذي جعل المدينة تعيش في آمان واطمئنان حيث كتب واصفات ذلك : "لا توجد مدينة في العالم تبدي فيها الشرطة أكبر مما تبديه الشرطة في الجزائر التي لا تكاد تلفت عنها رقابة جريمة، كما أنه لا توجد بلد يتمتع فيه المواطن ممتلكاته بأمن أكبر"[106].

كمـــا أشـــاد الفرنسيون في أوائل الاحتلال بنظام الشرطة وفعاليته حيث كتب يقول : "لقد كانت الشرطة قبل الاحتلال نشيطة حازمة ومهابة، الشيء الذي جعل الـــناس لا يعرضون أنفسهم لتحمل مثل تلك العقوبات إلا نادرا"[107]. على ضوء ما سبق عرضه يتبين أن السهر على السير الحسن للمدينة وتحقيق الأمن غير مقصور

على شخص واحد، إذ لا أحد له الإشراف المباشر على ذلك. فمهام الشرطة تقاسمها مثلما مر بنا موظفون مدنيون وآخرون عسكريون.

وصفوة القول : لقد تميزت التنظيمات المركزية بدقة متناهية في تحديد المهام، كما أن التأثيرات العثمانية تبدو جلية ليس هذا فحسب بل نجدها أحيانا صورة مصغرة لما كـــان ساريا في المركز. وإذا كانت الوظائف السامية على مستوى الإدارة المركزية حكرا على العنصر التركي العثماني فقد فسح المجال للعنصر المحلي للإسهام في تسيير المؤسسات الحضرية.

الهوامش:

1. إن مصـــادر الإخباريين لا تتعرض إلا نادرا إلى التنظيمات الإدارية بوجه عام ما عدا مذكرات الحـــاج أحمـــد الشريف الزهار لكننا نتوفر على رصيد زاخر من الوثائق المحلية سيما سجلات المحاكم الشرعية التي وردت فيها إشارات عرضا إلى بعض الوظائف والمناصب.

2. DEVOULX , A, Tachrifat , recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger , Imp du gouvernement , Alger , 1852.

3. ولـيم سبنســـر، الجزائـــر في عهد رياس البحر،تعريب وتعليق د. عبد القادر ربادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص53.

4. مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تحقيق وتقديم نور الدين عبد القادر المطبعة الثعالبية، 1934.

5. Diego de HAEDO, Topographie et histoire générale d'Alger, Bouchène, Paris, 1998, p228.

6. Le sieur de BREVES, Relation des voyages de Brèves tant en Gréce, Terre sainte, qu'aux Royaumes de Tunis et d'Alger,Grasse, Paris, 1682, pp374-375.

7. Carvalo Mascarenhas, Esclave à Alger1621-1626, préface, traduction de Paul Teyssier, Paris, 1999, p 97.

8. Ibid.

9. Pierre BOYER, « Introduction à une histoire intérieure de régence d'Alger » Revue historique,1966,p 301.

- Claude BONTEMS, Manuel des institutions Algériennes, de la domination turque à l'indépendance, Ed cujas, Paris, 1976,T1, p…

10. Venture de Paradis, Tunis et Alger au XVIII siècle, mémoires et observations rassemblés par joseph cuoq, sindbad, Paris, 1983, p216.

11. Lucien CHAILLOU, l'Algérie en 1781, Mémoire du consul C ph.Valliére,Imp.nouvelle,Tonlon,p2.

12 Knight,A relation of seven years slavery under the turks of Argere suffered by an English captive merchant,London,1646.

13. سبنسر،سبق ذكره، ص64.

14. Bontemps, Op.cit ,p…

15. BOYER,Introduction,p 306.

16. حول الموضوع راجع :

Mohamed-Hédi CHERIF,Poucoir et société dans la Tunisie de H'usayn bin Ali,1750-1740, P.U.Tunis,1984, 2Tomes.

17. Venture de Paradis, Op.cit p205.

18. نفسه.

19. من أبرز دايات الجزائر حكم الفترة الممتدة من 1710-1718.

20. LAUGIER DE TASSY, Histoire du royaume d'Alger .un diplomate français à Alger en 1724, Ed Loysel, Paris, 1992, p135.

21. أحمــد الشريف الزهار، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق وتقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص51.

22. نفسه.

23. حول دايات الجزائر راجع:

Henri de GRAMMONT, Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830), présentation de Lemnouar Merrouche,Ed Bouchène, Paris, 2002.

– عزيــز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1984.

24. حكــم الداي مصطفى باشا في الفترة ما بين 1798– 1805. وتشكل هذه الحقبة منعرجا خطيرا في تاريخ الجزائر الحديث .

25. الزهار، سبق ذكره، ص95 وغيرها.

26. حمدان بن عثمان خوجة،المرآة، ص

27. لا بد من التنبيه إلى أن منصب الخز ناجي، هو غير منصب "الخزنة دار". وقد ورد المصطلحان في كــل من دفتر التشريفات ومذكرات نقيب الأشراف ولكل منصب خصوصيته وسنتعرض إلى ذلك في عنصر موظفي القصر.

28. CHAILLOU. Op.cit p5.

29. LAUGIER DETASSY.Op.cit. p141.

- Thomas SHAW, Voyage dans la régence d'Alger, traduit de l'Anglais par J.Mac.cartty, 2e edition, Bouslama, Tunis, 1980, p167.

30. حول الموضوع راجع : ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800–1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

31. عزيز سامح إلتر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، د ار النهضة العربية، بيروت، 1984.

ناصر الدين سعيدوني "موظفو الإيالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر" ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص220.

32. نفسه، ص220.

33. Venture de Paradis Op.cit .p216.

34. سعيدوني "موظفو الإيالة".

35. السبايهي وجمعها السبايهية أو الصبايهية، وهم الخيالة أو الفرسان في الجيش العثماني، راجع :

ســهيل صــابان، المعجــم الموســوعي للمصــطلحات العثمانيــة التاريخيــة، مكتبة الملك فهد الوطنية،الرياض،2000، ص132.

36. لابــد مــن التنبيه إلى أن آغا المحلة، لا يقوم مقام آغا العسكر، وثمة دلالات عدة تؤكد ذلك، مــنها التســمية، إذ ورد مصطلح آغا العسكر في مختلف المصادر المحلية، سواء كانت وثائق أو كتب الإخباريين .وهو إحدى الدلالات على التمييز القائم بين الهيئتين العسكرية والسياسية.كما أن ما ورد في نص أحمد الشريف الزهار يبرز ذلك بجلاء:"...ثم دعا الديوان وآغا العسكر والوزراء...." وواضح أنه كانت له من الناحية التشريفية الصدارة، لكنه لم يكن يعتبر ضمن الوزراء ويستنتج مما أورده "شاو" الطبيــب الــرحالة الإنكليزي– أن سلطة آغا العسكر وصلاحياته لا تتعدى الجند المقيمين بالثكنات والحامــيات القائمة بمدينة الجزائر. ولا تدوم عهدته سوى شهرين مما جعله يعرف بآغا القمرين أو آغا الهلالــين. ويفسر قصر المدة بحرص الجند على تطبيق مبدأ التداول على المنصب. وهو أيضا الذي يقوم بمهمــة قاضي العسكر. وخصص له محل للإقامة ولا يغادره سوى لحضور جلسات الديوان وللإشراف على تسليم جرايات الجند.

37. Shaw, Op.cit .pp158-159.

- Venture de Paradis, Op.cit p214.

39. Tachrifat,Op.cit p20.

40. Chailloux, Op.cit .p5.

41. الزهار، سبق ذكره، ص48-49.

42. Shaw, Op.cit ,p162.

43. Venture de Paradis, Op.cit p214.

44. Tachrifat, Op.cit p20.

45. الزهار سبق ذكره، ص49. للمزيد حول الموضوع راجع :

Nacerdine SAIDOUNI, L'Algérois rural à la fin de l'époque ottomane 1791-1830 Dar el Gharb Alislami , Beyrouth , 2001.

46. الزهار سبق ذكره، ص49. كما تحدث الدكتور "شاو" عن السراجة ويعرفهم على هذا النحو :

"Les Sagairds ou Sagairdis sont des turcs armés de lances" p 163.

47. نفسه، ص141.

48. نفسه، ص49.

49. الأرشيف الوطني الجزائري .سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 37.

50. نفسه، علبة 25.

51. عـــلى خـــلاف المناصب المشار إليها أعلاه -والتي تفتقر حولها إلى المعطيات الوافية والدقيقة، بحيـــث من العسير على الباحث الوقوف عند الشخصيات التي تولتها، من جهة ومعرفة تاريخ ظهورها على نحو دقيق من جهة أخرى.

52. غطـــاس عائشة،الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر1700-1830 مقاربة اجتماعية-اقتصادية - أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث،جامعة الجزائر،2002، الجزائر، الجزء الأول،ص124.

53. حمدان خوجة، سبق ذكره، ص134.

54. هذا ما توحي به العديد من الوثائق المحفوظة في سجلات المحاكم الشرعية وكذلك دفاتر التركات.

55. غطاس، الحرف،ص127-128 و ص334 وص139.

56. نفسه، ص324. هامش6.

57. Venture de Paradis, Op.cit pp216-217.

58. Knight, Op.cit .p142.

59. Tachrifat Op.cit. pp19-20.

60. Laugier DETASSY, Op.cit p141

61. Ibid .

62. Tachrifat Op.cit pp20-21

63. الأرشيف الوطني الجزائري،سلسلة بيت المال، دفتر رقم 74، 77.

64. نفسه، وكذلك سلسلة المحاكم الشرعية.

65. راجع دفتر التشريفات والمصادر الغربية المعتمدة في الدراسة.

66. Venture de Paradis, Op.cit, pp 212-213.

67. تختلف المصادر الغربية حول أصل الترجمان حيث يشير فانتور دي بارادي إلى أنه من العنصر المحلي،بينما ذكر لوجي دي تاسي بأنه من العنصر التركي.

68. Venture de Paradis, Op.cit, pp213-214

69. LAUGIER DETASSY, Op.cit, pp143-144.

70. وهو معلم الطباخين في القصر، صابان، المعجم الموسوعي، ص15.

71. لقد قمنا باستقراء أزيد من سبع دفاتر .

72.,Tachrifat, Op.cit , p24

73. الزهار،سبق ذكره، ص39.

74. Venture de Paradis, Op.cit, p214

75. Ibid

76. LAUGIER DETASSY, Op cit ., p 140.

77. SHAW,Op.cit, p171

78. Tachrifat. Op.cit

79. الزهار، سبق ذكره، ص39.

80. ابن عبدون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب،اعتنى بتحقيقه ودراسته الأستاذ ليفي بروفنسال مطبعة المعهد العلمي للآثار الشرقية، 1955، القاهرة.

ARIE, R « Traduction annotée et commentée des traités de Hisba d'In Abd al Rauf , Hesperis Tamuda,1960 »

81. HAEDO, «Topographie et histoire» , p 468.

82. أنظر : Tachrifat . Op.cit.

– قانون على الأسواق. وسلسلة المحاكم الشرعية : العلب التالية، 40، 50، 129، وغيرها.

83. غــير أن المصدر المحلي: دفتر التشريفات ذي الهمية البالغة لم يشر سوى إلى شيخ واحد كان تحــت إشــرافه ورقابته عددا من الجماعات الحرفية .وإننا نغزو غياب الإشارة على الشيخين معا إلى الترجمة الجزئية التي قام بها ألبير دي فو « DEVOULX» في القرن الماضي.

84. جاء في إحدى الوثائق تخص إثبات ملكية عقارات خارج باب عزون مايلي : "...كان وقف علــيها وكيل الحرمين المعظم السيد عمر بن المرحوم السيد محمد والسيد الصادق شيخ البلد في التاريخ بــن السيد الحاج مسعود والسيد إبراهيم أمين الجيارين كان والسيد عبد الحق أمين الجبارين في التاريخ ...1208"م ش، ع 26.

85.

86. اســتنادا إلى عقــد بيع دار وعلوي بين ورثه الحاج عاشير العطار ومحمد المقايسي صناعة بن الحاج محمد .

87. لقــد مارســت هذه العائلة التجارة الدولية على نطاق واسع سيما مع أوروبا حول الموضوع أنظر: عائشة غطاس "التجار الجزائريون من خلال سجلات القنصلية الفرنسية 1686-1830"

أنظر : غطاس : الحرف والحرفيون، سبق ذكره .

– ابــن حمــوش، المديــنة والسلطة في الإسلام، نموذج الجزائر في العهد العثماني، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.

88. Shaw , Op.cit, p167

89. م.ش، ع32 و42.

90. شالر، مذكرات سبق ذكره،ص77.

91. نفسه، ص77-78.

92. Tachrifat, Op.cit, p20.

93. م ش، ع45/1 و38.

94. إذ جــاء في الوثيقة ما نصه : "...المعظم السيد حسين الانكشاري سباشي في التاريخ ابن بابا إبراهيم به عرف أو أيل شوال 1200هـ" لكن الوثيقة لم تشر إلى مهماته وصلاحياته.م ش،ع3 و14

95. MONITEUR ALGERIEN.1844.

96. MARCAIS,G. « considération sur la ville Musulmane et le Muhtasib » Recueil de la société Jean Bodin,vol.6,1954.p256.

97. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, » Mélanges sur quelques ouvrages de la hisba », Journal Asiatique,1+938. p451

98. حــول المحتسبة والمحتسب في بلاد المغرب انظر لقبال موسى، الحسبة للنهبية في بلاد المغرب العربي،نشأتها وتطورها، الجزائر، ش،و،ن،ت،1971.

99. DEVOULX, Tachrifat,Op.cit, p22

100. PICHON , Le baron Alger sous la domination française, son état présent et son avenir, Paris Barroirs,1833, p168.

101. كــان المزوار في العهد الموحدين يقوم مقام المحتسب، إذ كانت مهماته وثيقة الصلة بالحسبة وهــي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسهر على الجانب الأخلاقي.وعقب انهيار دولة الموحدين، ظــل المنصب قائما حيث ورثة الحفصيون والمرينيون والزيانيون. غير أن وظيفته تغيرات تماما إذا تحول المــزوار إلى حاجب لكنه ظل يقوم بدور المنفذ للآوامر والقرارات الصادرة عن الأمير والقاضية بمعاقبة المخلين مما جعله يحافظ على جانب من مهام المحتسب التي كان يؤدها المزوار في العهد الموحدي .لمزيد من التفاصيل انظر:

DHINA, A .Les états de l'occident musulman aux XIII-XIV siècles. Institution Gouvernementales et administratives Alger, O.P.U, ENAL, 1984.p 148-149.

102. HAEDO. « Topographie et histoire », Op.cit ,p 469.

103. DEVOULX,Tachrifat,op.cit, p22.

104. SHAW, voyage dans la régence, Op.cit,p175-176

105.VALLIERE,C.ph.Mémoire sur Alger 1781, publié par L.chaillou.Toulon,Impnouvele1974, p14.

106. شالر، مذكرات، سبق ذكره، ص77-78.

107. GENTY DEBUSSY, (M.P) de l'établissement des Français dans la Régence d'Alger, 2T, 2Ed,Paris, 1839.T2, p 404.

ROZET, M, Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique du Nord, 3T, Bertrand, 1833.T3, p11.

الفصل الرابع

النظم الإدارية المحلية

توطئة :

لا شك أن موضوع النظم الإدارية يكتسي أهمية بالغة حيث يسمح بالوقوف عند طبيعة الحكم العثماني وخصائصه كما يتيح فهم طبيعة العلاقة القائمة بين الحكام والمحكومين.

وتستدعي دراسة طبيعة الحكم العثماني بالجزائر إبداء جملة من الملاحظات : لقد دام الوجود العثماني بالجزائر أزيد من ثلاثة قرون 1519-1830. وإذا تمعنا في الإمكانيات العسكرية التي كانت في حوزتهم فإننا نندهش لقلة عددها، حيث لم تتجاوز عشرة آلاف. وهذه القوة وإن بدت ضئيلة، مقارنة بشساعة البلاد الجزائرية، إلا أنها كانت كافية، بل وناجعة حيث سمحت للعثمانيين ببسط نفوذهم وسلطانهم على مختلف أرجاء البلاد. ومرد ذلك أنهم عملوا على تدعيم نفوذهم بكل قوة في المدن، بينما عمدوا في حكم وإدارة الدواخل إلى الحكم غير المباشر. وقد أدى هذا الأمر بالبعض إلى القول بأن الحكم العثماني لم يتعد سدس البلاد، وأدى بالبعض الآخر إلى نفي أن تكون للعثمانيين سياسة إدارية واضحة المعالم في الدواخل، حينما روجوا فكرة"... لقد جاء العثمانيون من البحر وظلوا ينظرون إلى البحر..."

من إعداد الأستاذة سعدية سرقين

الإدارة بدار السلطان :

لم تكن البلاد مقسمة تقسيما متساويا ولا متميزا[1]. -أقلم الأتراك نظامهم الإداري وفقا للظروف حيث اكتفوا بما هو موجود ولم يحدثوا الجديد إلا ما فرضته عليهم الظروف وربطوا كل حدث اجتماعي خاصة بوصفة ملائمة [2] إذ كانوا يسيطرون على مدينة الجزائر وضواحيها بدون منازع مع التحكم في باقي المدن الأخرى [3] وأدركوا أنه لا يمكن إدارة لأرياف والمدن[4] بنفس الطريقة. هذا النوع من الإدارة كان مركزه مدينة الجزائر وبعض المدن إلى جانب هذه الأخيرة توجد احيانا مناطق خاضعة تماما أنشئت فيها دوائرتسمى باللأوطان والتي يصعب علينا تحديدها، نقول فقط أن الأوطن المثالي هو أوطن متيجة، وعرفت فيه القبائل تفككا، وقهرت الى درجة أنها فقدت شخصيتها فأمحيت القبيلة وتركت مكانها لمجموعات صغيرة من السكان تخضع مباشرة للشيوخ وتعرف في العادة باسم الجماعة التي تعيش بالأحواش ومزارع متيجة والساحل، وقبلت أن تصف تحت زعيم واحد في دائرة مشتركة مع عناصر بعيدة عنها كل البعد تم المزج بشكل حتى أن الأوطن لم يعد يسمى باسم القبيلة الأكثر عددا وانما باسم اليوم الذي ينعقد فيه السوق، مثلا أوطن السبت- حجوط- غرب البليدة إلا أنه المثل الوحيد الذي يمكن ذكره[5] وحسب المؤرخ- بوديكور-يتكون الأوطن من عدة قبائل، يحمل اسم القبيلة الأهم أو اسم جبل أو واد أو ناحية وتتغير مساحته وكثافته السكانية حسب الظروف[5]، في أغلب الأحيان لم يعد الأوطن الا اقليم للقبيلة المعنية وفي هذه الحالة لم يتمكن من التطور بل بالعكس ألصق بالقبيلة التي لم تتغير، وهذا النموذج من الأوطان يوجد بمنطقة المدية حيث القبائل التي يشملها يحكمها قياد أتراك[6] وما استخدام مصطلح الأوطن الا ليدل ببساطة على القبائل في اللغة الادارية لذالك العصر، وتشكل القبائل النمط

الحقيقي للمجتمع السكاني الذي كان يستخدم في كل إطاراداري، اجتماعي، مالي، وقضائي. .الخ[6].

إذا كانت القبيلة في الأصل تقسيم عرقي، حيث ينحدر جميع أعضاء القبيلة من سلف مشترك تحمل اسمه في أغلب الأحيان مثلا بني كذاو كذا ولكن في الحقيقة مع مرور الزمن تطورت القبيلة نحو خليط من الفرق ذات أصل متنوع من طبقات اجتماعية غير متساوية اذا أن بعض القبائل كانت ذات تكوين حديث متعددة العناصر وتحمل اسم القبيلة الأهم أو اسم يذكر بموقعها الجغرافي مثل قبائل الظهرة في منطقة الظهرة أو تحمل اسم يذكرنا بوضعيتها الاجتماعية مثل العبيد-(العبيد السود) لوادي ساباو، دويرة التطري، زمول وادي شلف[7].

كان ينظر للقبيلة من وجهة نظر معينة على أنها اطار مفتعل ومادام هذا الاطار هو الوحيد المعروف الذي أحتفظ به واستعمل كدائرة متعددة التكافؤ وفي الحالة العادية تحكم القبيلة من قبل الأسرة الأقوى التي تنتمي الى الجزء المسيطر، وفي بعض القبائل تتصارع عدة أسر من أجل الزعامة، كما حددت الزعامة منذ زمن بعيد في قبائل أخرى بأن يحمل زعيمها لقب شيخ أو شيخ الشيوخ وفي الميدان كان لقب القائد يستعمل في القبائل التي لها علاقة بالسلطة المركزية.

إذا كانت القبيلة خليط غريب مكون من فرق فان هذه الأخيرة تمثل بالعكس وحدة حيوية مؤكدة كانت الفرق تشكل تجمعات متينة وكان التضامن العرقي يلعب دورا كبيرا، كما كانت الفرقة الخلية الاجتماعية الحقيقية لمجتمع الأهالي[7]. وقبل أن نشرع في تصنيف القبائل نتناول السياسة المتبعة من قبل الأتراك إزاء القبائل فقد اتبعوا السياسة المعروفة لدى الانسان منذ أن وجد على وجه الأرض أي سياسة فرق تسد اذ حاولوا دمج بعض القبائل مقدمين بعض الاغراءات وذالك لأمرين اما لقرب هذه القبائل من مركز السلطة أولقوتها وفي كلتا الحالتين تفاديا لمشاكل هم في غنا عنها، ولكي لا ينشغلوا بأمور ثانوية وهذا كله على حساب بعض القبائل الأخرى.

تصنيف القبائل :

لم يكن لأغلبية القبائل إلا علاقات متباعدة مع البايليك كما كانت هذه العلاقات مبنية على القوة. ويمكن تصنيفها إلى مجموعتين كبيرتين:

أ. **القبائل الحليفة** : وكانت تشغل عموما مناطق وعرة وهي قبائل المخزن المتعاونة مع الأتراك اعتمدوا عليها في نشاطاتهم العسكرية عندما فرض نظام دفاعي ووزعت على المواقع الاستراتيجية خاصة القريبة من المناطق الجبلية وبلاد القبائل ومن أجل ذالك كله طوقت تلك المناطق بحزام أمني على شكل حصون وأبراج مثل برج منايل، برج ساباو، برج تيزي اوزو، برج بوغني، برج حمزة وبرج سور الغزلان. فأصبحت تشكل منطقة عازلة بين مناطق الرعية والقبائل المستقلة،كما وجد اتفاق بينها وبين البايليك مقابل بعض الاتاوات وادارة شؤونها بحرية[8].

ومن المهام التي أوكلت لقبائل المخزن أيضا ابقاء قبائل الرعية تحت رحمة الأتراك والقيام بدور الجندرمة لحراسة الطرق والممرات و نقاط العبور ويكون قيادها أتراكا[9].

ب. **القبائل المستقلة** :هذه الأخيرة المتمركزة في المناطق الجبلية كبلاد القبائل، الظهرة، والونشريس، والتخوم الشبه الصحراوية تدين بالطاعة لزعمائها المحلين وإذا كان دايات الجزائر قد حاولوا استباب الأمن بين القبائل المنظمة في الأوطان ومنع النزاعات أو الخلافات الداخلية فيما بينها والتي يمكن أن تعرقل سير عملية جباية الضرائب، فقد قاموا عكس ذالك مع القبائل المستقلة إذ سعوا إلى المحافظة على الخلافات فيما بينها من أجل أضعافها[10] و منعها من التكتل قد يشكل خطرا. وكما وأن رأينا تشكل مناطق عازلة بين القبائل الخاضعة والقبائل المستقلة. إن القبائل الضعيفة أو الواقعة على مرمى القواعد التركية كانت خاضعة.أما القبائل الأقرب قد فككت ووضعت في الأوطان مثل قبائل الرعية التي كان يحكمها قياد أتراك الدين تراكبوا على شيوخها، وكانت تتحمل الجزء الأكبر من عبء الضرائب[11].

علاقة القبائل بالسلطة العثمانية :

إن الأقلية التركية تمكنت من الإستحواد على السلطة في إيالة الجزائر وأنها تعمل لحسابها الخاص، رغم اعترافها بسلطة السلطان العثماني في القسنطنية ويعود دالك إلى فترة خير الدين أول بايلارباي الجزائر عندما سمح له بتجنيد المتطوعين من تركيا. كان نظامهم الإداري ذا طابع عسكري، احتكرت الأقلية التركية العمل العسكري والتسيير الإداري المركزي. وأتضح أن حضور هذه الأقلية التركية أقل من عشرة ألف نسمة [12]، وهدا العدد كان كافيا من أن يمكنها من التحكم في إدارة البلاد الجزائرية إذ ركزت سلطتها على بعض المدن وأدارت ما تبقى من البلاد بوسائل غير مباشرة وكان هدا الحضور كافيا لدرجة جعلها تحدد وتقلل من إشراك ألأكثرية الممثلة في السكان المحلين والتي لم تدعى للمساهمة في ممارسة السلطة إلا في المناطق الصعبة، والتي تعذر على الأتراك القيام بها، وكان احتقار الأتراك للعنصر المحلي كبيرا والدليل على دالك عدم تشجيعهم الاختلاط بهم أو الزواج منهم وإن حدث فتكون العواقب والعقوبة كبيرة،إذ يفقد الفاعل كل الإمتيازات التي يتمتع بها عادة الأتراك في الجزائر، وأما عن خلفه أو ما يسمى بالكراغلة فهم غير معترف بهم ولا يمكنهم الارتقاء في مناصبهم العسكرية خاصة، كما لا يمكنهم الحصول حتى على الإمتيازات العادية للجنود الأتراك[13]. أما عن إهانات الأتراك إزاء السكان المحلين فكانت كبيرة إلى درجة ا نهم كانوا حسب– لوجي دي تاسي –يقومون بثورات مثل تلك التي قاموا بها في عام 1590، 1610، 1644. قمعت كلها بالدم واضطر من بقي على قيد الحياة إلى الفرار إلى بلاد القبائل مكونين بدالك ما يعرف بقبائل الزواتنة [14].

هذا وكما سبق وان أشرنا أن الأتراك لم يعرفوا نمط معينا من الحكم [15] وإنما أقلموا ما هو موجود وعالجوا الأحداث حين وقوعها [16] وحاولوا التعاون مع الجماعات السكانية في موقعها وإمكانياتها وتتضح علاقة القبائل بالسلطة من خلال تعامل الجهاز الإداري مع واقع الأرياف إذا تعتبر مقاطعة دار السلطان مركز الإدارة

هذه لقربها من مدينة الجزائر عاصمة الايالة وعاصمة السلطة العثمانية، كونها تابعة مباشرة لسلطة الداي وهذا ما يجعل منها نموذجا حيا متطورا للإدارة بالجزائر[17]، وكان انشغال الأتراك مزدوجا :

1. **جباية الضرائب، وضمان الأمن** : وذلك تفاديا لتحول النزاعات والتمردات وتفجرها وتحولها الى ثوارات عارمة، وتنتج التمردات عن القبائل بمختلف أصنافها عند أمتناعها وعدم امتثالها لمطالب الادارة التركية المتزايدة خاصة تلك التي تنتج عن القبائل التي كان خضوعها كامل مثل قبائل الرعية التي كانت تتحمل الجزء الأكبر من عبء الضرائب [18] إلى درجة انه تحول الكثير من أعضائها إما إلى عمال مستأجرين أو إلى ممارسة الرعي والترحال الموسمي، تاركين الأرض والديار كيف يفر المرء من موطنه وذويه وكل ذلك تفاديا للمضايقات والتعرض للحملات التأديبية الانتقامية المعروفة بالمحلات التي كانت تقوم بها قبائل المخزن وفرق اليولداش.

وليس هناك من هو أتعس من سكان السهول والجبال القريبة من مدينة الجزائر خاصة بعد تدهور وانخفاض مداخيل الغزو البحري والتفات السلطات نحو مداخيل الزراعة وما توفره من الخيرات التي لا ينعم بها أهلها، وهكذا حرموا من ثمرة جهدهم وعرقهم[19] وعلى من فضل البقاء على أرضه وممارسة الزراعة فما عليه الا الاسراع في تقديم ما عليه من واجبات ضريبية من جهة واشباع جشع الجند والمواضفين المحلين أو غيرهم، تلك الأطماع التي لا حدود لها، وهذا من طبع أصناف من البشر، خاصة اذا علمنا أن الدولة ليس من عادتها أن تدفع الأجور لموظفيها[20] وان فعلت فهذا لايسد طمعهم وكل من سمحت له نفسه بمخالفة هذه الاجراءات فمصيره معروف، وهل يوجد استغلال مثل ذلك الاستغلال الذي مارسه الموظفين الأتراك على الأهالي بصفة عامة، وعلى الفلاحين بصفة خاصة، وهل توجد عقوبة أشد من استظهار رؤوس رجال القبائل المعادية أمام كبارموظفي الدولة كأغا العرب كبرهان للحصول على مكافآت مقابل ما فعلوه[21].

الدوائر لإدارية الكبرى :

كـــان إقلـــيم ايالة الجزائر مقسما إلى أربعة أقسام كبرى : دار السلطان، بايليك التيطري، المدية بايليك الشرق قسنطينة. بايليك الغرب وهران.

دار السلطان :

وتشمل في الأصل مدينة الجزائر، المتيجة، والساحل من تنس غربا الى دلس شرقا وتشـــكل جزء الايالة الخاضع لسلطة الداي المباشرة[22] الذي يفوض موظفا ساميا أغا العرب للتصرف في شؤونها وإدارتها، وذالك أن اقليم دار السلطان يعتبر بحق المقاطعة المركـــزية في الجزائـــر، والتي خضعت لتنضيم محكم وهي تتكون من ثلاثة مناطق: فحـــص مدينة الجزائر الذي يشمل على العموم السفح الشرقي للساحل مكونا ريف مديـــنة الجزائـــر حيث يوجد أملاك أعيان الأتراك كبار أثرياء مدينة الجزائر، وممثلي الأمـــم الأروبـــية. وهذه الأملاك متمثلة في المزارع والمنازل الريفية، وينقسم فحص الجزائـــر الى ســـبع دوائر على رأس كل منها شيخ وهي فحص بوزريعة، فحص بئر مـــراد رايـــس، فحص زواوة، فحص عين زبوجة، فحص بئر الخادم، فحص القبة، فحص الحامة. يوزع الباقي على الأوطان[23] وفي هذه النقطة بالذات نجد أنفسنا أمام اشـــكالية حيث يجمع المؤرخون الغربيون من بينهم بوبي، بونتون، وياكونو وغيرهم عـــلى تقسيم ما يتبقى من دار السلطان إلى أربعة أوطان مددوها شرقا وغربا بثلاثة مـــناطق عازلة لأسباب أمنية بين مدينة الجزائر وبايليك الغرب وهي كالتالي منطقة شرشـــال، قبيلة بني مناصر، وشرقا مددت بقائدات ساباو، وأوطان يسر، في حين يقسمها بوديكور الى سبعة أوطان[24] .

أمـــا سعيدوني فيقسمها الى ثمانية أوطان وهي كالتالي يسر، الخشنة، بني موسى، بني خليل، السبت، بني جعاد، بني خليفة وأخيرا أوطن بوحلوان.

أوطن يسر:

يحـــده شمـــالا البحر الأبيض المتوسط، وجنوبا أوطن حمزة، وشرقا أوطن ساباو، وغربا واد قورصو الذي يفصله عن أوطن الخشنة. إن وضعية هذا الأوطن وانفتاحة على الكـــتلة القبائلـــية جعلته مطوقا بسلسلة من الأبراج على كل نقاط العبور، برج ســـاباو، تيزي وزو، بوغني، أم نايل. وهذه الأبراج وضعت تحت حكم قياد ساباو وأغـــا العـــرب هذا الأوطن كان يشمل 42 زمام أو جماعات، 24 منهم يقعون في غرب واد يسر والثمانية عشر الباقية في شرقه[25].

يسر الغربي:

- بني ضدام
- بني عزارية
- بني شكروح بن سوكار
- بني ختير
- بني خلفون
- بني مناد
- بني عقبة
- بني راشد
- بني تامنت
- بوراب باش
- شناك

- دوار بن سي يوسف
- الكيوس
- حجيل
- إبراهيم بن سعيد
- خليفة بن سولة
- موعاوية
- أولاد بسام
- أولاد شمال
- أولاد لحك
- سالم بن رحمون
- زاوية أحمد بن إبراهيم
- زاوية أحمد بن إبراهيم
- زاوية سالم بن مخلوف
- زاوية سيدي عبد العزيز

يسر الشرقي :

- أحمد بن ضيف الله
- علي بن بونوة
- عليى بن خاليفة

- عيسى بن أمبارك
- عيسى بن زاير
- بن جفال
- بن عقبة الشرفة
- بني ربيعة[26]
- بن وزروال
- بويرق الكبير
- ربويرق الصغير
- الجحان
- الطعانة
- أولاد موسى
- أولاد رياب
- أولاد سمير
- زاوية سي سليمان
- بن عروس

2. أوطن الخشنة :

ويشمل الثنية، برج الكيفان أو بعبارة أخرى بين واد قورصو، وواد سيدي أحمد وواد صنصالة، يحده شمالا البحر، وجنوبا أوطن بني جعاد وأوطان حمزة وشرقا أوطن يسر، وغربا أوطن بني موسى، ويجاوره فحص مدينة الجزائر عند مصب واد

الحراش، ومقاطعات هذاالأوطن هي زروالة، جواب، المريجة، وحدادج، أولاد بسام
أولاد ســعاد، شعربن حنان، عروش وتشير سجلات البايليك حسب سعيدوني ال
زمام أو جماعات هذه المقاطعات وهي كالتالي :

- عبد الرحمان الشريف
- عبد الرحمان بن مريم
- أحمد بن سعيد
- أحمد بن سايمان وعلي
- بن جنان
- بن خرس
- بن عائشة
- بن فودة
- بن مستنة
- بن صبيح
- بو خنفرة [27]
- شرفات كرومة
- الجواب العقبة
- الجواب راسوة
- الجبايل
- المنتصر بن كانون

- غريب بن عزوز
- حراوة
- حرسن
- إبراهيم بن دهاب
- خليفة بن عمار
- محللة مليكشن
- مالك يوسف بيك
- منصور بن لهول
- مصاورة
- أولاد عدي
- أولاد أيوب
- أولاد بسام
- أولاد غانم
- أولاد حداج
- أولاد ابراهيم
- عثمان بن خليفة
- رغاية
- سالم بن زهية

- سليمان بن أحمد تكبات

- تلواقصان

- طالب علي أماليورش بن عائدة طالب

- زروالة [28]

3. أوطن بني موسى :

يقـــع بين الحراش، وسيدي موسى بالأربعاء يحده غربا واد الحراش، الذي يفصله عن أوطن بني خليل، وشرقا واد صنصالة الذي يفصله عن واد الخشنة، ويمتد جنوبا إلى داخـــل الأطلـــس، إلى غاية أوطن بني سليمان، ويضيق شمالابين الفحوص مدينة الجزائـــر، وأوطـــن الخشنة الذي يحيط فرجة مدينة الجزائر، وفي جزئه الجنوبي يشمل إقلـــيم قـــائدة بني خليفة مشكلا حدود بايليك التيطري، ويتكون هذا الأوطن من الزمامات التالية.

- عبد الله بن عائد الصمات

- عيسى بن زيان بن مزوز

- أحمد بن يوسف بنيي جليد

- علي بن عمار بن تشفين

- علي بن رمضان

- علي بن تابت

- بلقاسم بن علي بن تشفين

- بلقاسم بن بوجماعة بني ملال

- بني عطية

- بن دياب

- بن جدى

- بن البحري

- بن فتيس

- بني مالك

بني محمد

- بني راشد

- بني سرحان

- بني عوير

- الشيخ و إلي داد

- الشرايعية

- الخشاشنة

- المرابعة

- حمدوش

- خليفة بن سليمان

- محللة مليكشن

- محمد بن عبد الله عرويتي

- محمد بن مسعود بني ملال
- أوخارس
- أولاد اعميرة
- أولاد ابراهيم بن جليد
- أولاد جراد
- أولاد فليت
- أولاد اسلام
- أولاد تاقب
- تافت بن علي بني ملال
- يحي بن موسى بن جليد
- يحي بن تافت
- يوسف بن أمبارك [29]

4. أوطن بني خليل :

يحده واد الحراش شرقا وواد الشفة غربا، وواد مزفران، فحوص البليدة وبني صالح الذي يفصله عن بايليك التيطري جنوبا، وفحوص مدينة الجزائر شمالا وضعت اقاليم بـني صالح، بني مصارة، بني مسعود تحت سلطة أغا العرب بواسطة قياد بني خليل الذيـن يديرونهم من البليدة بمساهمة شيوخهم ويتكون هذا الأوطن من 102 زمام مسجلين في سجلات البايليك.

- عبد الله ملك
- عبد الله بن خليفة
- عزيزة الهيل
- أغروة
- عاقر اوملال
- اقلاي بن خليل
- اقلاي بن.صالح
- عمار اوهة
- املة بن خليل
- امغار
- عمروسة [29]
- انكاش
- عراوة
- عزيزة التوت
- عزرونة
- بهلي
- بن علي‌اغبير
- بن علي قليسي سوسنة

- بن عزة
- بن بوا عربي
- بن بوانصير
- بن بوتامو
- بن حمامين
- بني مسوس
- بني خيلم
- بن كاكوش
- بن معمار
- بن مسعود الشيراقة
- بن مسعود الغرابة
- بن صبيح
- بن صالح سعودة
- بني شيان
- البليدة
- بو عامر عواس
- بودردون
- بوجفنة [30]

- بواسماعيل
- بومنهاج
- بويغلالن
- شدخني
- شفاعة
- شلة
- دشيوة
- دوار الغرابة
- الشيراقة
- الدعالة
- الدكاكنة
- الدواودة
- الاحباب
- البرج الأحمر
- الفد
- الغرابة
- الحبشة
- الحاج خليفة

- الحفال
- الحسم أواليهم
- الخطاعة
- الخرابطة
- المعالمة
- المدواعة
- الصفصاف
- السايح الفوكيى
- السايح السوفي
- الصومعة [31]
- اتأعانة
- فروخة
- حد أعنان
- حدالشريف
- عياد
- خادم
- كتوة
- ماسومة

- مشكوكة
- ملك المحروم خيدر باش
- ملوه
- مسعود بن معزوز
- مسلوغة
- مزكة
- مزهمر
- اولاد عبد الكريم
- اولاد اكليل
- اولاد عمارة
- اولا د شبال
- اولاد معاراك
- اولاد منديل
- اولاد محمد
- اولاد عمران
- ربيعة
- سدي يخلف
- تفاحة

– طفشهم

– تيجعارين[32]

– توبيعة

– يونسي (بن يونس)

– زاوية سديعايد

– زاوية بن سدي مجبر

– زغاية

– زروال

– زماغة

5 . أوطن السبت حجوط :

لقد عجنت القبائل التي تسكن هذا الأوطن بطريقة جعلتها تسمى باسم اليوم الذي يعقد فيه السوق الأسبوعي، ويمتد هذا الأخير على طول البحر من القليعة إلى تيبازة شاملا بذالك ساحل القليعة والجزء الغربي من متيجة، ثم يمتد على طول واد شفة ويتطاول على إقليم موزاية سوماتا في الشرق وفي الغرب فوق أراضي بني مناد، شنوا بني مناصر وأدمجت في هذا الأوطن قبائل جبلية لسوماتا، بني مناد، موزايا وأديرت من طرف أغا العرب ومساهمة قيادهم بينما كان قياد بني مناصر خاضعون لقائد شرشال.

ولهذه الأوطان الرئيسية أضيفت ثلاثة أوطان شاذة وهي بني جعاد، بني خليفة وبوحلوان.

6. أوطن بني جعاد :

فصل عن بايليك التيطري، وأدمج نهائيا إلى مقاطعة دار السلطان في نهاية العهد العثماني للأسباب أمنية يحده غربا أوطن بني خليفة وشمالا أوطن الخشنة بينما يمتد جنوبا وشرقا إلى أقاليم بني سليمان، عريب، وبني خلفون.

حكم أوطن بني جعاد وأوطن عريب قياد تحت سلطة أغا العرب بعد انفصال إقليم حمزة عن بايليك قسنطينة في عام 1820 كانت قبيلة مخزن زواته أهم قبيلة في هذا الأوطن التي كانت تتمتع باستقلال إدري، حيث كان يخضع قائدها مباشرة لأغا العرب كما يمكننا ذكر قبيلة بني بن لحسن المتكونة من الزمامات التالية :

- بعاسم

- بن عردبة

- بني قلال

- بني يلمان

- شرفة صنهاجة

- دراعة

- دبيات

- المهدي[33]

- فركوة

- مرزقلة

- مسمو لثنة

- عمار بن العزلم
- عمار بن حشلاف
- اوعليان
- اولاد ثعالب
- سالم بن التومي
- سنكوة
- تالوكاة
- يحي معالاوي

7. أوطن بني خليفة :

يقع جنوب أوطن بني موسى بين بايليك التيطرى واوطن بني جعاد، ويمتد في الجنوب إلى غاية إقليم بني سليمان ويتكون من الزمامات التالية :

- بن علي نبي زاير
- بن بو عا دم
- بن تادجت غيث
- بن بغلال
- بن بل العز
- بني بو بكر
- بني بوخاليفة

- بني حتوس
- بني لهف
- بني وثاس
- بني سليم
- بني سوكة
- بني تراتن
- بني زرمان[34]
- دار الأوش
- البدرنا
- الهوده
- قوواوه
- كتارانا ت
- أولاد بني فرحات
- خوخدة
- ملوان الحلقة
- مرهم
- معامين
- أولاد عباد

- أولاد عمارة
- أولاد بويحي
- أولاد فـــاطمة
- أولاد اوحـــدة
- أولاد سلطـــان
- أولاد زغيـــم
- أولاد زيـــان
- سكلاواه
- سمامة
- سراين الكسيبة
- سليمان بن العزيز
- تاكمات اولاد بن عبدو
- يوسف بن علي [35]

8. اوطن بوحلوان :

كان يوجد وسط عدة قبائل أهمها قبيلة ريغة، سوماتا، بني منـــاد، جندل، وفصل عـــن خليفليك مليانة و وضع تحت سلطة أغا العرب الذي عين لقيادة قبيلة المخزن التي كان يوجد مخيمها تحت برج بوحلوان، كما وضعت تحت سلطة القائد المكلف بمراقـــبة عـــبور واد جرالذي كان مسرحا لتوغلات جماعات سوماتا ويتكون هذا الآوطن من الزمامات التالية :

- عيلاشـــة
- بني يخلف
- بني جماعة
- بني محسن
- بني ميمون
- بني مويمن
- بني زغيم
- بوجامعة بن حدو
- الهوامي
- الصفارة
- كبابة
- موسى بن زايد
- أولاد دتيس
- أولاد دياب
- أولاد نهدى
- ألاد توك
- تاغة
- زغوة [36]

وفي الأخير يقول سعيدوني أن هذا التنظيم الإداري لم يكن ناتجا عن تعليمات الباب العالي، وإنما جاء نتيجة ممارسات محليةو قوانين معروفة قبل الفترة العثمانية.وهذا لا يعني أنهم لم يؤثروا بل بقيت الكثير من هذه التنظيمات إلى يومنا هذا.حيث يقول بواي أن هده التنظيمات اندمجت في تقاليد سكان الجزائر واحتفظ بالكثير منها [38].

مميزات الإدارة العثمانية في الريف :

يصعب علينا ذكر قائمة العملاء الإدارين التي تعتبر حسب المراحل ووفقا للتأثير المتزايد أو المتناقص لمختلف الأفواج الإجتماعية والسياسية، إن التوظيف يختلف حسب طبيعة المهام، فهناك مهام مخصصة للأتراك والكراغل وحدهم في حين هناك مهام مخصصة للعرب[39].

تعتبر دار السلطان نموذجا متطوراللإدارة الريفية، ومثلا حيا ذالك أن هذه المنطقة تعتبر المقاطعة المركزية في الجزائر والتي تطبق عليها تنظيما محكما، وذلك نظرا لمجاورتها لمدينة الجزائر عاصمة السلطة التركية [40] ولقد ركز الأتراك اهتماماتهم في مجالين.

الأول : جباية الضرائب بصفة منتظمة وذالك لجلب أكبر قدر ممكن من المال في خزائن البايليك، والتحكم في المعاملات والنشاط الاقتصادي والاجتماعي بالأرياف.

الثاني : توفير الأمن وتفادي تطور الإنتفاضات، وتمرد القبائل، وتفجرها، وتحولها الى ثورات عارمة عامة[41].

وترجم هذا الاهتمام التركي المزدوج في التشكيلة الإدارية للمستخدمين نفسها، كما يجمع بعض المؤرخين بأن الإدارة تتلخص في مجالين. المالي، والعسكري، وفي أغلب الأحيان وجد موظفين متعددي التخصص أو يتمتعون على الأقل بكفاءات في كلا المجالين الآنف ذكرهما.

وكل الوظائف قابلة للبيع والشراء وبثمن غال. إن إدارة الأرياف في دار السلطان تعتمد على عدد كبير من الموظفين والمنظمين حسب الدوائر الإقليمية الناتجة عن الظروف الطبيعية، الاجتماعية، والاقتصادية فقد كان هذا الجهاز الإداري يقوم على مجموعة من الموظفين، يمكن أن نقسمهم الى قسمين :

- يتألف الأول أساسا من موظفين سامين الذين تحدد سلطتهم إقتصاد الارياف، ولهم تصرف غير مباشر في شؤونها[42] يتمتعون بسلطات ذات طابع سياسي وعلى رأسهم الداي ويليه في الترتيب كل من آغا العرب، البيت الملجي، وأخيرا خوجة الخيل.
- أما الثاني يتكون من العملاء المحليين المنفذين[43] (ثانويين) يؤطرون سكان الريف وهم القياد الخاضعون للموظفين السامين. وهذا النمط من التنظيم يجنب الأتراك التوغل في التفاصيل الإدارية، كما يجنبهم متاعب هم في غنى عنها، كإختيار الزعماء المحلين، ولتحقيق ذلك لم يتأخروا في إستشارة كبار القوم، ونزولا عند رغبتهم نلهؤلاء الموظفين علاقة مباشرة بأوظاع الأرياف و التصرف الحقيقي في قضايا سكانهم، كما جعلهم الدعامة الأ ساسية للإدارة العثمانية بأرياف دار السلطان وهم القياد، الخوجات،و الشيوخ [44].

الصنف الأول :

الداي : الذي يمكن اعتباره الحاكم الأعلي للجزائر، وهي أسمى وظيفة منذ 1710 يعين من قبل نظرائه الموظفين السامين، ومن طرف الأوجاق المجتمعين في الديوان، وكان يتصرف في مقاطعة دار السلطان، وباقي البايليكات، قسنطينة، و التيطري، وهران عن طريق أغا العرب القياد و البايات فإليه يعود أمر عزل أو تولية الموظفين الكبار، لكنه مع ذلك يوكل صلاحيته لهؤلاء الموظفين، ونادرا ما يتدخل شخصيا في القضايا التي تهم السكان أو تتصل بالإجراءات الإدارية على المستوى المحلي، لأنها حسب العادة كانت من اختصاص الموظفين الخاضعين له وتعد سلطة الداي شبه مطلقة على شؤون الدولة.

ويقال أن الداي ملك مطلق بإمكانه أن يحرم من سلطته كماجاء عند جوان كانو دي سرقوب هكذا يعيش هذا الرجل، ثري بدون أن يكون سيد كنوزه، أب بدون أولاد، زوج بدون زوجة، طغي بدون حرية، ملك العبيد وعبد للعبيد" [45].

أغـــا العرب أو أغا العسكر كان في الأصل يقود الوحدات العسكرية العربية وفي بدايـــة القرن الثامن عشر تحصل على قيادة إدارة المنطقة التي تحيط بمدينة الجزائر، دار الســلطان وذالـــك للحد من نفوذ الإنكشارية تخشاه و تحترمه المليشية هو حكم الظـــروف الصعبة كانت له اليد العليا في الأوطان والقبائل، كما كان مكلف لدى الـــداي بشـــؤون دار السلطان فتوسعت مهامه بصفة مذهلة إبتداءا من القرن الثامن عشـــر [46] مـــع ازدياد دورا لأرياف الاقتصادية، بالإضافة إلى وضعيته كمدير للدار السلطان وقائد الصابحية "السبايس" والمحلة المرابطة حول مدينة الجزائر.

ومن مقره العام في حوش الأغا خارج باب عزون، كان يسهر على الحفاض على الأمن وحرية التنقل، والمواصلات في متيجة والأطلس، وكان من مهامه أيضا جباية الضـــرائب المفروضة على القبائل. وبصفته رئيس خيالة الداي، كان يقود الحملات التأديبـــية ضد المناطق، والقبائل المتمردة، وغير الخاضعة كما كانت له اليد العليا في كافة الميادين، وحقا قضائيا لا حدود له على كل عملاء بايليك دار السلطان ابتداء مـــن القـــائد إلى شيوخ الجماعات فهو المرجع الأول لكل الموظفين المتولين لشؤون أهالي الريف بدار السلطان، و المتصرف الفعلي في شؤون السكان في هذه المقاطعة. هـــذه المهام المتعددة تجعل من آغا العرب أحد الشخصيات المهمة في الأوجاق. فهي الشخصـــية الأهم بعد الداي. بينما يشبهه فانتوردي برادي إلي الداي قوله إنه عندما يخرج من باب الجزائر يتحول إلى مستبد مثل الداي[47].

هـــناك بعض الأغاوات الذين تركوا بصامتهم فيما يخص الإدارة الضرابية مثل ما أشـــارإليهم اسـعيدوني، وهـــم : علي أغا، قصدرلي أغا، الحاجي آغا، حسان أغا

حـزناجي آغــا الحاج محمد آغا، حسان آغا، صالح آغا، عمار آغا، مصطفى بن يوسف، مميش آغا، سليمان بن اعلي آغا شريف الميداني آغا مشن بن عتمان، يحيي آغـــا، وابراهيم آغا. هناك من الأغوات ودائما حسب سعيدوني من تركوا بصماتهم وهم عـلي آغـــا 1789 1791 مصـــطفى آغا 1809 1814، ويحوي بن مصطفى آغا 1818 1827. وهذا ولقد ارتقى بعض الأغوات إلى أعلى المراتب في الايالة الجزائرية، أي منصب الداي وهم على التوالي كور عبدي، 1724، بابا علي 1754، وعمار 1815 1817 [48].

البيت المالجي :

هـــو الذي يشرف على الأملاك العائدة للبايليك مع أن العديد من هذه الأملاك توجـــد داخـــل مدينة الجزائر والبليدة، فإن قسما منها يوجد بالفحوص والأوطان وبعضـــها يعـــيش علـــيها الفلاحون ويقومون باستغلالها لفائدة الدولة، كما يدير الأمـــلاك الشـــاغرة والتركات التي لا ورثة لها، واستخلاص ما يعود منها لخزينة البايليك أو البيت المال، حسب الشريعة الإسلامية ويساعده في مهامه هذه قاضي، وعمـــلاء، ونـــواب، وعـــدول، وبإمكـــان مهامه هذه أن تتوسع لتشمل الجوانب الاجتماعية في المدن والأرياف كإستقبال تبرعات المسلمين لصالح اليتامى، والغائبين، كمـــا يراقب أيضا وعن كثب مصادرة أملاك الأعيان من طرف بيت المال، ومراقبة المقابر الواقعة خارج المدن، وتمويل دفن الأجانب والفقراء، وإقامة الحفلات الدينية، والتصدق على الفقراء.

كمـــا ورد عـــند سعيدوني وحسب الأرشيف قائمة أواخر البيت المالجي الذين أداروا أملاك البايليك في دار السلطان.

محمد ابن العربي 1788، الحاج محمد بولكباشي بن رمضان التركي 1791، وسي مصـــطفى آغا 1797 علي بن حسان التركي 1798. الحاج حسين 1799، 1808 سليمان، 1817 إبراهيم 1818. خليفة شعبان 1826، 1830 [49].

خوجة الخيل :

كاتب الخيل، وهو أمين الخيل الذي يدير أملاك البايليك بالأرياف في المتيجة وما تبعها بمساعدة الشاوش، كان في البداية مكلف بإحصاء الخيل المقدمة على أساس ضريبة عينية. وتوسعت كفأته في القرن الثامن عشر لتشمل قضايا الإيجار، والبيع وتبادلات المواد الغذائية من محاصيل قطاعات، واستثمار أراضي البايليك وتركز حرصه على توفير الخيول، وحيوانات النقل لفرسان الدولة الصبائحية. فهو يشرف على مخزن الخيول كما سبق وأن أشرنا. فهو بمثابة وزير التموين خاصة بعد ما تدهور اقتصاد مدينة الجزائر، والمناطق الخاضعة للسلطة الداي مباشرة بسبب تدهور الغزو البحري. وله قدرة تجويع أو إشباع السكان، توسعت سلطته واتسعت من 1798 الى غاية 1818 كما كان من مهامه قيادة فرق المشاة أو الفرسان عند الحاجة لتأديب القبائل المتمردة.

الصنف الثاني :

تكون من الموظفين التابعين للجهاز المركزي الخاضعين لصنف الموظفين السامين كآغا العرب، أو بعبارة أخرى العملاء المنفذين[50] المحلين الثانويين الذين يعملون في الأرياف ولهم علاقة مباشرة بأوضاع الأرياف ويتصرف في القضايا التي تهم السكان فهم العملاء المحلين كما يسميهم بوايي، ويقول عنهم سعيدوني "أهم أساس الإدارة العثمانية بأرياف دار السلطان" ويقسمون إلى :

القياد :

تعني مساعد البايليك وهي رتبة شرفية، يتمتعون، بسلطات متنوعة مدنية عسكرية أمنية قضائية وجنائية[51]، كانوا أتراكا أو كراغلة ويقول البعض أنهم كانوايختارون من العائلات الكبرى ذات النفوذ وهذا نظرا لكفائتهم وتجربتهم[52].

القياد يحكمون في الأوطان يمثلون الأوجاق، والبايليك، لدى سكان الريف بأمر من آغا العرب، تختلف وضعيتهم حسب أماكن حكمهم في بعض المناطق ويسكنون في مدينة مجاورة أو في أبراج محصنة، ولا يتنقلون إلى أماكن تواجدهم إلا تحت حراسة مشددة، و لم يستقرالقياد الأتراك إلا داخل قبائل الرعية [52] هذا ولا يفوتنا ان نذكر أن القياد كانو يعقدون إجتماعات دورية لتنسيق سياستهم[53].

ولقد كانت المناصب المرغوب فيها هي تلك المناصب الواقعة داخل القبائل العزل، التي كانت أرضيها تابعة للبايليك حيث يتمكن من إستغلالها إ ستغلالا كاملا، إلا أن الدايات كانوا يفضلون بشكل عام إدارة هذه الأخيرة مباشرة لكي يحتفظوا بأرباحها مثل تلك التي تقع في أوطن متيجة [54]، وقد يتلقى القياد برنوسا أحمرا عند تنصيبهم ومن حقهم أيضا إستعمال ختم[55]

ما هي أهم اختصاصات القياد ؟

مراقبة القبائل، مراقبة الشيوخ، مراقبة رؤساء الفرق، الذين يديرون القبائل مباشرة، وكانوا يتمتعون بسلطات متنوعة مدينة عسكرية أمنية وحتى جنائية قضائية سياسية، ويفرضون الغرامات، ويجيرون الأهالي على القيام بأعمال الصخرة، كالعمل دون مقابل، وعلى حسابهم الخاص في أراضي البايليك ويلعبون دورا أساسيا في جباية الضرائب، يساعدهم الموظفين المختصون أن وجدوا أو يحلون محلهم في الحالات الأخرى. و لم يتلق هؤلاء القياد مرتبات من الحكومة بل يأخذونها وبسخاء كبير من رسومات الجباية، ومن الغرامات[56] ويقول بونتون أن هذه المرتبات تمثل عشر الكميات التي يجلبونها بصفة عامة[57]. وتشكل هذه النقطة أهم ما اسند إليهم، ويشرفون على الأمن والحد من المنازعات، والمشاجرات بين أفراد القبائل والشيوخ المتنافسين، مما يبين مساهمتهم في المجال القضائي والجنائي ونظرا لأهمية هذه المهام، وتأثيرها على نفوذ الأوجاق بالأرياف فإن آغا العرب، كان يحرص على إعطاء

تعليمه شخصيا لهؤلاء القياد ويذكر سعيدوني اعتماد على وثائق الأرشيف الجزائري أسماء بعض القياد. الحاج محمد بن مخلف، والقائد العرابي بوطن الخشنة، والقائد ابن وشــفون بــأوطن بني موسى، والقائد ابن عزوز، والقائد عبد الرحمان إبن الغبرالي، والقــائد الحــاج محمــد باش بولكباشي، والقائد يوسف بن إبراهيم والقائد محمد الشــرقي، والقائد الحاج حمود بوطن بني خليل، والقائد الحاج محمد بن علي باشا، والقائد أحمد بن شعبان بوطن بني جعاد[58].

ويــتولى المصــالح الإقتصادية والإجتماعية نوعا أخر من القياد، ويسمون عادة خوجة، ويعملون بصفة خاصة في فحوص المدن وأهمهم.

قــياد فحوص مدن الجزائر البليدة القليعة وشرشال والذين لهم إشراف فعلي على المــناطق المجــاورة لتلك المدن والتي تعرف بالفحوص، وهم المسؤولون على ضمان الأمــن بهــا وتنفيذ أوامر الداي وقرارت آغا العرب المتصلة بسكانها وهم يشكلون نقطة الوصل بين الإدارالحضرية بالمدينة والتجمعات الريفية المجاورة لها.

وهناك قياد يستخدمون في المدن وهم.

قــيادة الفحــوص الذين يتولون القضايا التي تخص ضواحي المدن وأكثرهم نفوذا قائد فحــص مدينةالجزائر الذي ينفذ الأحكام الصادرة عن الداي، ويتم ذالك خارج خارج باب عزون ومن مهامه أيضا، الحراسة وخاصة حراسة الليل ويساعده في ذلك الشاوش.

قائد العشور : مهمته جباية ومراقبة الضرائب العينية في الأوطان.

قــائد العــيون : مهمــته مصالح المياه تحت مراقبة شيخ البلد، وكذالك حراسة القنوات، والسبالات بمساعدة وكيل الحرفين والشاوش.

قــيادة مخزن الزرع أو مقتصد الغذاء : مهمته إحصاء الأراضي المزروعة، وتقويم العشــور بمساعدة قائد العشور هذا بالإضافة الى إشرافه المباشر على مخازن الحبوب التي تعود للدولة بمساعدة قائد العشور لكل أوطن.

قــائد الرحبة : مهمته تكمن في سوق الحبوب وجباية حقوق البايليك المفروضة على الحبوب التي يؤتى بها لتباع في الأسواق.

قائد الجلد : مهمته التحكم في المصلحة التي تحتكر جلود البايليك.

قائد الفحم : مهمته جباية الحقوق المفروضة على كل حمولة فحم تدخل المدينة.

قائد التوت أو خوجة التوت :يتلقون سنويا الحقوق على أشجار التوت في الفحوص.

ولكــي ينســق القياد نشاطتهم، كانو يعقدون إجتماعات دورية لم يكن هؤلاء القياد في مأمن عن تعاطي الرشوة حيث تشتري بعض القبائل حمايتهم وسكوتهم فيما يخص الضرائب، ونظرا لقوة سلطتهم هذه كانو يقومون ببعض التجاوزات[59].

الحكــام يلعبون في الوسط الحضري الدور الذي يلعبه القائد في القبيلة (ويلقبون بلقــب القياد، في مدن وفحوص البليدة القليعة وشرشال، ويقول بوايه أن حاكمي البلــيدة، وشرشال كانا أقل شأنا من حكام مليانة، وبالأخص حاكم مدينة المدية الذي كان يتمتع بنوع من الاستقلال[60]، في حين يرى سعيدوني أن حاكمي البليدة وشرشــال كانــا أكثر شهرة، ولهذا حاكم شرشال قد لقب بالقائد وكلف بقيادة قبيلة بني مناصر[61].

مهام الحكام تتضمن مراقبة سكان المدن، جباية المكوس الحضرية، وكان السكان منظمين على شكل طوائف، وعلى رأسها الأمناء، أو الأمين، هناك طوائف مهنية وطوائف عرقية، تخص هذه الأخيرة الغرباء والأجانب..

ومــن ضمن الحكام الوارد أسمائهم في الأرشيف ودائما حسب سعيدوني مايلي: إسماعــيل 1797 1801، حســين خوجة، 1824 1825 وسدي مصطف شاوش الانكشاري، 1827، حاكم البليدة علال بن محي الدين بعد 1830، حاكم القليعة، رعيسى ومصطفى حكام شرشال.

يختار الشيوخ من بين أفراد القبيلة أو الفرقة كما يرتدي الشيوخ برنوسا من الصوف الأبيض فوق برنوسهم العادي[62]. ويتولون الإشراف على شؤون القبائل هم مسؤولون لدى القائد بصفتهم وسطاء بين هذه الأخيرة

زعماء القبيلة تختارهم القبيلة وأعيانها وبالرجوع الى آغا العرب، في بعض الأحيان ويضيف سعيدوني قائلا. يرشح لمنصب الشيخ كل من كان متميزا برجاحة عقله وحتى أخلاقه حسب مكانته وانتسابه إلى العائلات ذات النفوذ وللقيام بمهامه هذه يعتمد كليا على إحدى فروع القبيلة التي ينتسب إليها أو التي ارتبطت معه بالولاء أو التبعية، والتي أصبح بعض أفرادها يشكلون مجموعة من الفرسان،أو الأعوان المسلحين المكاحلية الذين قد يستخدمون للحد من تحرشات المتنافسين، والوقوف بجانب الشيخ في كل صراع قبلي قد يكون مضرا بنفوذه[63].

كما سبق وأن أشرنا، تختلف مهام الشيخ حسب طابع القبيلة وحاجاتها ومنها تمثيل القبيلة، ترؤس مجلس الأعيان، أين يتم اتخاذ القرارات بالإجماع، مهام متداخلة ومتنوعة الجوانب، الاقتصادية الاجتماعية الأمنية، فقضائية، وتتمثل في تقسيم الاراضي المشاعة بين العائلات إذا كانت مشاعة، مراقبة الحرث والحصاد، توزيع الأعمال على العائلات، وكل ذالك تحت رعاية القياد حيث كانت تشكل هذه العملية القاعدة الاساسية لجباية الضرائب[64] كما يمتد نفوذه الى مأخذ المياه المخصصة للري، تخصيص المراعي، ومن مهامه أيضا تنظيم، ومراقبة الأسواق السهر على الأمن، والوئام في قبيلته ابتداء من فرض الغرامات، ودفع الضرائب حسب قدرة أهالي القبيلة، وكل شيخ حريص على توجيه ما يتحصل عليه من جبايات لمخازن البايليك، ومقابل هذه الخدمات التي يقدمها الشيوخ يتمتع بحق في الحماية والدفاع عنهم، من طرف البايليك، مثلهم مثل القياد، حيث كانت متاعبهم مشتركة، كما كان بامكان الشيخ ان يلقب بشيخ الشيوخ من طرف آغا العرب حيث يضا

سعيدوني أن بعض الشيوخ، اكتسبوا مع الزمن مكانه لا تقل عن القياد وسمح لهم الاتصال مباشرة مع آغا العرب دون الرجوع إلى قياد الأوطان.

كانت قبضة الأتراك في المدن أقوى بكثير من الأرياف حيث نجد هنا ما يمكن اعتباره كبداية للإدارة بالمعنى الحديث للكلمة، والذي لم يكن الا تواصلا محرفا للنظام المدني للفترة العربية الإسلامية[65]، وبالتالي كل هذا ما هو إلا نتيجة لممارسات محلية وتنظيمات معروفة قبل الفترة العثمانية، التي يظهر تأثيرها في المجال العسكري المتكون من عناصر الأجواق القادمة من الاناضول، الذي يجدد عناصره بصفة دورية، وبالتالي لم يدخل الاتراك في تصورهم في الميدان البلدي الذي يمس التجمعات الريفية الذي بقي على حاله.

كان التنظيم العقلاني الإداري لدار السلطان معقولا وبسيطا حيث يفرض ترتيبا بسيطا وعمليا، يحكم آغا العرب بواسطة القياد وهؤلاء يحكمون بواسطة شيوخ القبائل[66].

يختار الشيوخ من بين أفراد القبيلة أو الفرقة كما يرتدي الشيوخ برنوسا من الصوف الأبيض فوق برنوسهم العادي[62]. ويتولون الإشراف على شؤون القبائل، هم مسؤولون لدى القائد بصفتهم وسطاء بين هذه الأخيرة

زعماء القبيلة تختارهم القبيلة وأعيانها وبالرجوع الى آغا العرب، في بعض الأحيان ويضيف سعيدوني قائلا. يرشح لمنصب الشيخ كل من كان متميزا برجاحة عقله وحتى أخلاقه حسب مكانته وانتسابه إلى العائلات ذات النفوذ وللقيام بمهامه هذه يعتمد كليا على إحدى فروع القبيلة التي ينتسب إليها أو التي ارتبطت معه بالولاء أو التبعية، والتي أصبح بعض أفرادها يشكلون مجموعة من الفرسان،أو الأعوان المسلحين المكاحلية الذين قد يستخدمون للحد من تحرشات المتنافسين، والوقوف بجانب الشيخ في كل صراع قبلي قد يكون مضرا بنفوذه[63].

كما سبق وأن أشرنا، تختلف مهام الشيخ حسب طابع القبيلة وحاجاتها ومنها تمثيل القبيلة، ترؤس مجلس الأعيان، أين يتم اتخاذ القرارات بالإجماع، مهام متداخلة ومتنوعة الجوانب، الاقتصادية الاجتماعية الأمنية، فقضائية، وتتمثل في تقسيم الاراضي المشاعة بين العائلات إذا كانت مشاعة، مراقبة الحرث والحصاد، توزيع الأعمال على العائلات، وكل ذالك تحت رعاية القياد حيث كانت تشكل هذه العملية القاعدة الاساسية لجباية الضرائب[64] كما يمتد نفوذه الى مأخذ المياه المخصصة للري، تخصيص المراعي، ومن مهامه أيضا تنظيم، ومراقبة الأسواق السهر على الأمن، والوئام في قبيلته ابتداء من فرض الغرامات، ودفع الضرائب حسب قدرة أهالي القبيلة، وكل شيخ حريص على توجيه ما يتحصل عليه من جبايات لمخازن البايليك، ومقابل هذه الخدمات التي يقدمها الشيوخ يتمتع بحق في الحماية والدفاع عنهم، من طرف البايليك، مثلهم مثل القياد، حيث كانت متاعبهم مشتركة، كما كان بامكان الشيخ ان يلقب بشيخ الشيوخ من طرف آغا العرب حيث يضا

سعيدوني أن بعض الشيوخ، اكتسبوا مع الزمن مكانه لا تقل عن القياد وسمح لهم الاتصال مباشرة مع آغا العرب دون الرجوع إلى قياد الأوطان.

كانت قبضة الأتراك في المدن أقوى بكثير من الأرياف حيث نجد هنا ما يمكن اعتباره كبداية للإدارة بالمعنى الحديث للكلمة، والذي لم يكن الا تواصلا محرفا للنظام المدني للفترة العربية الإسلامية، وبالتالي كل هذا ما هو إلا نتيجة ممارسات محلية وتنظيمات معروفة قبل الفترة العثمانية، التي يظهر تأثيرها في المجال العسكري المتكون من عناصر الأجواق القادمة من الاناضول، الذي يجدد عناصره بصفة دورية، وبالتالي لم يدخل الاتراك في تصورهم في الميدان البلدي الذي يمس التجمعات الريفية الذي بقي على حاله.

كان التنظيم العقلاني الإداري لدار السلطان معقولا وبسيطا حيث يفرض ترتيبا بسيطا وعمليا، يحكم آغا العرب بواسطة القياد وهؤلاء يحكمون بواسطة شيوخ القبائل[66].

الهوامش :

1- P. BOYER, l'évolution de l'Algérie médiane (ancien département d'Alger) de 1830 à 1956, Paris, PA, Maisonneuve 1960 , p 11.

2- P. BOYER, Op. cit , p 15.

3- C. BONTEMS, manuel des institutions algériennes de la domination Turque à l'indépendance, Pariât ; Ed Cujas, vol1 p 27.

4- L. de BAUDICOURT, la colonisation de l'Algérie. Ses éléments, Paris, le coffre, 1856. pp. 267-271

4- N. E. SAIDOUNI, l'Algérois Rurale à la fin de l'époque ottomane (1791–1830) Dar-Al-Harb-Al-Islami, Beyrout 2001, p.260.

5- L. de BAUDICOURT,Op cit, p. 272. et P. BOYER, Op. cit , pp.15-16.

6- L. de BAUDICOURT, ,. pp. 267-271.

7- P. BOYER, Op. cit , p 16. et L. De BAUDICOURT, Op. cit, p. 271.

8- P. BOYER, Op. cit , pp.17-18.

9. سـعيدوني نصـر الدين المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان الجمهورية التونسية. 1992، ص 260.

10- L. de BAUDICOURT, op. cit, p. 278.

11- P. BOYER, Op. cit , p 17.

12- N. E. SAIDOUNI, Op cit,

13- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p 277. et P. BOYER, op. cit , pp. 13-14.

14- LAUGIER ,de TASSY, Histoire du Royaume d'Alger et du bombardement de cette ville en 1866, description de ce Ryan et des révolutions qui y sont arrivés. AMSTERDAM, 1725, Paris, Piltan 1851, pp. 195-196.

15- P. BOYER, Op. cit , p. 15.

16- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.276.

17- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.278.

18. سـعيدوني، ناصـر الدين، المجلة التاريخية للدراسات العثمانية. زغوان الجمهورية التونسية، 1992 ص262.

19- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.259.

20- C. BONTEMS, Op. cit 27.

21- N. E. SAIDOUNI, pp. 360-361.

22- P. BOYER, Op. cit., p 18.

23- N. E. SAIDOUNI, Op cit, p.136. et P. BOYER, Op. cit , p 18-19.

24- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p 271.

25- N. E. SAIDOUNI, Op cit, pp.136-137.

26-37- N. E. SAIDOUNI, l'Algérois Rural, Op cit, pp. 131-145.

38- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p 258.

39- C. BONTEMS, Op. cit, pp. 46-47.

40- C. BONTEMS, Op. cit, pp. 46-47.

41- P. BOYER, Op. cit , p.27.

42-P. BOYER, Op. cit , p.27.

43- N. E. SAIDOUNI, Op cit, pp.127-128.

44- N. E. SAIDOUNI, op cit, pp.127-128.

45- C. BONTEMS, op. cit, p.55.

46- C. BONTEMS, op. cit, p.

47- Venture de paradis, Revue Africaine 1896, p. 55.

48- N. E. SAIDOUNI, Op cit, pp.128-129.

49- N. E. SAIDOUNI, Op cit, pp.129-130.

50- P. BOYER, Op. cit , pp. 271-273.

51- P. BOYER, Op. cit , pp. 271-273.

52- N. E. SAIDOUNI, op cit, p. 131.

53- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p. 273.

54- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.272.

55- P. BOYER, Op. cit , p. 34.

56- C. BONTEMS, Op. cit, p. 48.

57- P. BOYER, Op. cit , p. 35.

58- N. E. SAIDOUNI, Op cit, pp.131-132.

59- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.272-273.

60- P. BOYER, Op. cit , p. 35. et N. E. SAIDOUNI, op cit, p.133.

61- P. BOYER, Op. cit , p. 35. et N. E. SAIDOUNI, op cit, p.133.

62- 63- E. SAIDOUNI, Op cit, p.134.

64- P. BOYER, Op. cit , p. 36.

65- L. de BAUDICOURT, Op. cit, p.259.

من إعداد الأستاذة : بومشوش نسيمة

I. موقع بايلك التيطري وحدوده :

إن الوجود العثماني بالجزائر امتاز منذ البداية بتقسيم الجزائر إداريا إلى مقاطعات حتى تسهل إدارتها، لأن ما كان يهم النظام العثماني هو حفظ النظام الداخلي وضمان تحصيل الضرائب. لذا فقد قسّمت الجزائر إلى ثلاث مقاطعات إدارية، هي : بايلك الشرق، بايلك الغرب، بايلك التيطري، بالإضافة إلى دار السلطان مقر السلطة المركزية.

وكان أسبق هذه البايليكات وأقربها إلى دار السلطان هو بايلك التيطري. فمتى تشكّل ؟ وما هي التقسيمات التي حصلت فيه ؟ وما هي علاقته بالسلطة المركزية نظرا لقربه من مركز الحكم في الجزائر ؟ من هم أهم البايات الذين حكموه ؟ وما علاقاتهم بالرعيّة ؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال تناول بايلك التيطري بالدراسة.

بعد استقرار الأخوين عروج[1] وخير الدين[2] بالجزائر اقتسما المنطقة التابعة لهما إداريا، فكانت المنطقة الشرقية لخير الدين والغربية لعروج، ثم استقر خير الدين في مدينة دلس مع جماعة من غُزاته، وعيّن على كل موضع من منطقته نائبا ينوب عنه في حكمها، فكان عدد نوابه أربعة[3]. وهذا ما شكل نواة للإدارة العثمانية فيما بعد. وعند التحاق الجزائر بالدولة العثمانية وتعيين خير الدين بربروس بايلر بايا، ومدّه بألفي جندي انكشاري. حصّن بعض المناطق الداخلية ثم قسّمت الجزائر إداريا إلى ثلاثة بياليك هي : بايلك الشرق، بايلك الغرب[4]، وبايلك التيطري، إضافة إلى المنطقة القريبة من مركز الحكم والتي سميّت "بدار السلطان".

ويعتبر بايلك التيطري، الذي نحن بصدد دراسته، أصغر البياليك وأفقرها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية[5]. يحدّه من الشمال الجزائر، ومن الشرق الزاب، ومن الجنوب بلد الجريد، ومن الغرب معسكر. مساحته من الشمال إلى الجنوب 70 فرسخا[6] ومن الشرق إلى الغرب 40 فرسخا[7]. وما يمكن ملاحظته حول هذا البايلك هو عدم وضوح حدوده الجنوبية، إذ توجد به من الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال تحمل الأسماء التالية : زكار سحاري، زاغوس، تجتمع في الشمال في جبال الأطلس التلي، وفي الجنوب جبال الأغواط[8]. كما أن حدوده لم تكن ثابتة بل خضعت لتغيرات خلال فترة الثلاثة قرون.

نظّم بايلك التيطري تحت حكم حسن باشا بن خير الدين[9]، وحمل هذه التسمية[10] منذ ذلك الوقت[11]، وكانت حتى 1770 قبائل سباو ويسّر ما تزال تتبع بايات التيطري الذين كانوا يقيمون بالتداول بين المدية وبرج سباو، غير أنه ابتداء من 1775 تغيّر الوضع وأصبحت قبائل سباو التي تشمل يسّر والخشنة تتبع مباشرة آغا الجزائر، وأصبح مقر باي التيطري نهائيا هو المدية[12]، ثم أنقص من هذا البايلك كذلك تابلاط والبويرة والأخضرية[13].

II. النظام الإداري لبايلك التيطري:

كان بايلك التيطري ينقسم إلى أربع قايدات هي:

أ. **قايدات تل الظهراوي** : ويشمل سبعة أوطان :

- حسين بن علي : وهي قبيلة ليست لها أصول متجانسة، نشأت من هجرات متتالية لأجزاء من مختلف القبائل، وتشكل هذه القبيلة ستة أجزاء هي : أولاد ملال، أولاد فرقان، أولاد طريف، أولاد براهيم، أولاد معيزة، والعزابة[14].

– هـوارة : وهي قبيلة تقع على 8 كلم إلى الجنوب من المدية، وتشمل حوض الوطا، أولاد سعود، أولاد عمران، المناصرة [15].

– وزرة : وتقـع إلى الشـمال من حسن بن علي، وامري، ريغة، حنانشة، بني بويعقوب، غريب [16].

ب. قايدات تل القبلية : ويشمل قبائل:

– أولاد دايـد العبـيد والدوايـر وأولاد هديم وبني حسن وأولاد سيد أحمد بن يوسـف والربعـية وأولاد عـلان والتيطري والسواري وأولاد معرف، الدهيمات والمفاتحة وأولاد حمزة.

ج.قـايدات الديـرة : وتضـم أولاد دريس، أولاد بركة، أولاد فريحة، أولاد بوعريف، أولاد مريم، عذاورة، بني عقبة، أولاد سليم، أولاد عبد الله، أولاد علوش، مغراوة، أولاد علي بن داود، أولاد سيدي عيسى، أولاد موسى، أولاد سيدي عمر، جواب، أولاد نمار.

د. قايدات الجنوب : وتشمل: رحمان، الزناخرة، عبادلية، ميادات الشراقة والغرابة، أولاد مخـتار، عبازيز، أولاد سيدي أحمد، رشيغة، أولاد سيدي عيسى (سواقي، الورك والهداب)، السحاري، أولاد شايب، بني بوعيش، عزيز، أولاد نايل، حرازلية، لربعة [17].

1. أنواع القبائل:

وكانـت قـبائل بايلك التيطري تنقسم إلى قبائل الرعية، قبائل المخزن، القبائل الحليفة والقبائل المستقلة.

أ. قـبائل العزل أو الرعية : يبدو أن في بداية تنظيم البايلك كانت كل القبائل تـتبع مباشـرة باي المدية، غير أن حكام الجزائر بالإدارة المركزية وخشية منهم من

نكرة الاستقلالية لدى البايات نزعوا بعض قبائل البايلك وجعلوا منها قبائل رعية [18] وأصبح يحكمها شيخ العرب تحت سلطة خوجة الخيل، وكان على هذه القبائل عدد من الأعباء، فقد كانت تقدّم الخماسين لزراعة مزارع عين الدم، عموررة، وراس الواد، التي كانت تستغل لصالح الباشا، كما كان عليها نقل الحبوب المزروعة في هذه الأراضـي إلى الجزائر، وكان على كل قبيلة من قبائل عزل التيطري تقدم حتى 25 جملا والرعاة الذين يهتمون بهم [19].

وكانت قبائل عزل التيطري تتمثل فيما يلي:

– حسن بن علي وما تضمّه من أولاد فرقان، عزابة، أولاد ابراهم، أولاد ملال، أولا طَريف، أولاد معيزة (مراشدة).

- وزرة بني عيش.

- هوارة.

- ريغة.

- حنانشة.

- وامري.

- مدالة وبني بويعقوب.

- أولاد سيدي ناجي وأولاد دايد.

- أولاد هديم.

- بني حسن.

- الربعية.

- أولاد معرف.

- أولاد حمزة.

- مفاتح.

- تيطري – سواري.

- أولاد علان زكري وأولاد علان بشيش.

- أولاد فرحة.

- أولاد بركة.

- أولاد بوعريف.

- أولاد مريم.

- جواب.

- قصر الشلالة [20].

ب. قبائل المخزن :

كانـــت هـــذه القبائل همزة وصل بين الحاكم والمحكوم، وكانت تضطلع بمهام إداريـــة وأخـــرى عسكرية، فهي عبارة عن تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة في أصـــولها مختلفة في أعراقها، فمنها من أقرّه الأتراك بالأراضي التي وجد عليها لتكون ســـندا لهـــم، ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة، لتؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية [21]. وتتمثل بالنسبة لبايلك التيطري في :

- مخزن الدواير.

- زمول العبيد.

- صبايحية التيطري.

- معاقيف وأولاد سيدي عامر.

- أولاد بوعيش.

- أولاد شايب [22].

ويمكـــن الـــتعرف على القوة الاحتياطية لقبائل المخزن من خلال عدد الفرسان الذيـــن يستطيع المخزن تقديمهم عند الحاجة. فقبيلتا الدواير والعبيد للتيطري تستطيع أن تســـاهم بـــــ 1200 محـــارب، إضافة إلى 600 فارس، تشارك بهم القبيلتان في الأوقات العادية لحفظ الأمن وجمع الضرائب وحراسة الطرق ومعاقبة الجناة [23]. هذا بالنسبة للمخازنية المقاتلين، أما بالنسبة للذين يشكلون الذراع المساعدة للأتراك من جـــباة الضـــرائب، فيتمثلون في قبائل غريب وبني راشد التابعين لخوجة الخيل وبلاد معمـــورة، وهـــي إقطاع لخوجة الخيل والزناخرة، وهم كذلك مختصين في الزراعة ومواشي الداي والأراضي التابعة لقبيلتي عزيز وسلامات [24].

ج. القبائل التابعة والحليفة :

وتعتبر مناطق حاجزة بين منطقة الرعية والقبائل المستقلة ومنها:

- زاويـــة أولاد ســـيدي أحمد بن يوسف وأولاد سيدي الخضر، وكانت تابعة مباشرة للجزائر.

- قصر وزاوية سيدي البخاري التابعة مباشرة للجزائر.

- مشيخة أولاد سيدي عبد الله.

- أولاد سيدي عيسى وهو موقع للمرابطين.

- أولاد سيدي هجرس.

- أولاد علي بن داود.
- أولاد سيدي عيسى أو مرابطي سور الجواب.
- أولاد سي عامر.
- أولاد سلامات.
- مشيخة أولاد مختار.
- أولاد سيدي عيسى (سواقي والورك).
- أولاد سيدي أحمد الرشايغة أو أولاد أحمد بن عيسى[25].

د. القبائل المستقلة :

رغم هذا التنظيم الذي وضعته الإدارة التركية وحاولت تطبيقه بصرامة، إلا أن هناك قبائل بقيت خارجة عن السلطة التركية، وهي القبائل المستقلة التي لم تكن تتبع الإدارة التركية، غير أنها كانت مجبرة على دفع ضريبة لممارسة التجارة في المدن والأسواق التابعة للمخزن[26]، وتتمثل القبائل المستقلة بالنسبة لبايلك التيطري في:

- أولاد دريس.
- لعذاورة.
- أولاد سيدي عيسى العذب.
- عزير.
- سحاري لعطايا.
- أولاد نايل.
- بني لغواط.

- مجموعة الأربعاء.
- مجموعة المزاب.
- مجموعة الشعانبة.
- ورقلة.
- مخادمة أوسعيد مخادمة.
- ناقوسة وسعيد عتبة[27].

2. موظفو إدارة البايلك :

كان هدف السلطة التركية بالجزائر مزدوجا، يتمثل في جمع الضرائب وملء خزائن الدولة من جهة، ومن جهة أخرى تفادي وقوع الثورات أو حتى الصراعات بين القبائل، لأن ذلك قد يعصف بالوجود التركي. ولتحقيق هذه الأهداف اعتمد البايلك على جهاز إداري يقوم على مجموعة من الموظفين غايتهم تحقيق الأهداف المتوخاة، وهم :

أ. الباي : كان على رأس بايلك التيطري على غرار بقية البايليك باي يساعده في أداء مهامه مجموعة من الموظفين المحليين، يتكون منهم ديوان البايلك الذي هو صورة مصغرة لديوان الداي بدار السلطان من حيث تنظيماته الإدارية وصلاحياته المالية واختصاصاته الاقتصادية والاجتماعية، مع وجود اختلافات خاصة في كل بايلك[28]. والباي غالبا ما يكون مقربا من بعض الموظفين الكبار ويحظى بسمعة في مجلس الديوان، أو يكون قد شغل منصب خليفة الباي الذي سبقه[29]. ويمتاز الباي عادة بامتلاك سلطات مطلقة ضمن حدود البايلك الترابية بتفويض من الداي، وعليه في المقابل الالتزام بالحضور إلى دار السلطان مرة كل ثلاث سنوات لتقديم فروض الطاعة والهدايا والدنوش*، كما عليه أيضا استشارة أعضاء الديوان المحلي والقبول

بوجود قائد عسكري (آغا الدائرة) على رأس الحامية بالبايلك يتلقى الأوامر من داي الجزائر[30]، غير أن الشيء الذي ينفرد به باي التيطري هو أن صلاحياته كانت محدّدة، إذ وضع له الداي من يتقاسم معه السلطة وهو الحاكم الذي يعينه الداي للإشراف على مدينة المدية. وقد أدى هذا إلى الإنقاص من سلطته والحد من نفوذه، وكان هذا الحاكم يتبع مباشرة الديوان، مركز الحكم بالجزائر[31]، ويقود جماعة الزبنطوط ويراقب فرض الضرائب على الأوطان المجاورة، وكان غالبا واسطة بين الداي والباي[32]، وهذا ما أدى بـ "رين (Rinn)" إلى القول بأن باي التيطري أقل سلطة من بقية البايات رغم منصبه وعسكره وأعلامه السبعة[33]، وقد يكون هذا التضييق على باي التيطري راجعا لحيوية هذا البايلك وقربه من دار السلطان، وبالتالي فإن أي تمرد يشكل خطرا على السلطة المركزية.

أما عن مهام الباي فتتمثل في المحافظة على الأمن وإقرار الهدوء وتفادي عصيان القبائل بالأرياف، بعقد التحالفات مع القبائل والقياد وفرسان المخزن الموجودين بالمناطق الاستراتيجية، أو باستعمال القوة العسكرية[34]. كما أن على الباي دفع أجور الحاميات العسكرية الموجودة بالبايلك والاهتمام بالمنشآت العمرانية: كترميم الأسوار وبناء الثكنات وتأمين المواصلات والاعتناء بالأبراج والحصون والمراكز الاستراتيجية[35]. وكان الباي يعين لمدة ثلاث سنوات، لكن يمكن تمديد فترة حكمه إذا عرف البايلك في عهده استقرارا وحصل على مردود جيد[36]. ولعل أهم ما يشفع له لدى الداي هو قيمة الدنوش التي يقدمها. وقد كان هؤلاء البايات أتراكا غالبا وكراغلة استثناء[37]، يساعدهم في مهامهم مجموعة من الموظفين يشكلون ديوان البايلك، وهم :

ب. الخليفة : يساعد باي التيطري في مهامه، وهو يختاره بنفسه، غير أنه يعين من طرف الحكومة المركزية، وينوب عن الباي في الحضور إلى الجزائر لتقديم العوائد والدنوش الصغرى مرتين في السنة (في الربيع والخريف)[38]. كما يخوّل له الاتصال بقياد البايلك وبعض رؤساء العشائر مفوّضا من قبل الباي لجبي الضرائب.

ومن صلاحياته إقرار الهدوء وفرض نفوذ السلطة خارج مراكز البايلك، وبالتالي كان عليه التصرّف في شؤون الأوطان[39]. وكان خليفة باي التيطري يملك عزل قبيلة الربعية، ويعود إليه ثلثا ضريبتها، إضافة إلى كل الغرامات التي كان يدفعها من تفرض عليه في البايلك[40].

ج. الخزناجي: كان يعين من طرف الباي، ومهمّته حفظ خزينة الباي، وبذلك يتكفل بدخل البايلك والنفقات الناتجة عن النشاطات الاقتصادية والمالية[41]. ويساعده في عمله خوجة يرأس أمانته وثلاثة محاسبين أو سايجي يُختارون عادة من اليهود[42].

د. خوجة الخيل: وهو قائد فرسان العرب التابعين لسلطات البايلك، ثم توسعت صلاحياته إلى أن أصبح يتحكّم في كل الفرق العسكرية، فنعت بالباش آغا، وأوكل إليه أمر مراقبة الباي وكتابة تقارير عنه للداي، كما كان يشرف على تنصيب البايات وتنفيذ أوامر العزل الصادرة ضدهم، وكان عليه أن يتولى إدارة البايلك بصفة مؤقتة في انتظار وصول الباي الجديد إلى منصبه[43].

هـ. شيخ البلد: يهتم بأمور السكان ويحافظ على أملاك الدولة الواقعة داخل أسوار المدينة، كما يتصرّف في مرتبات الجيش، ويخضع لأوامره قائد الباب المكلف بمراقبة عوائد ومداخيل حقوق الكراء داخل المدينة[44].

و. الباش كاتب: وهو مكلف بكتابة رسائل الباي ويحتفظ بمدخرات البايلك المالية وسجلاته العقارية، ويقوم بذلك عادة بطلب من الخزناجي.

ز. الباش سيار: وهو مكلف بمراقبة اصطبلات البايلك وتجهيز حصان الباي الخاص[45]، ويساعده 2 سيارة يضمنون نقل الوسائل وينقلون الأخبار التي يأخذونها من وكلاء الباي الذين كانوا في الجزائر والذين كانوا يختبئون تحت مهمة صيانة أملاك الباي، لكنهم في الحقيقة يخبرون الباي عن مؤامرات الديوان[46].

ص. **الباش مكاحلية** : يتصرف في فرق مكاحلية الباي الخاصة أي كوكبة الجند المزودة بالبنادق.

إضافة إلى هؤلاء الموظفين الذين يشكلون أعضاء ديوان البايلك هنالك موظفون آخرون مثل قياد البايلك، وقياد المدن وجماعة الشواش وحاملي اللواء والموسيقيين[47]. كما أن هناك أعيانا آخرين لديهم مهام عسكرية مثل "المهور باشا" المشرف على النقل، "الصبايحية" الذين كانوا من أصل تركي ويشكلون في نفس الوقت قوة عسكرية قوية واحتياطي للموظفين الإداريين وعددهم خمسون فردا، والحرس الخاص للباي يدعون مكاحلية وعددهم خمسة عشر كانوا يستعملون لنقل الوسائل والقيام بالاعتقالات[48]. كما أن هناك قيادا مرتبطين بالخدمات الخاصة بمركز البايلك، مثل "قايد المقصورة" وهو حاجب الباي، "قائد الجبيرية" وهو حامل محفظة الباي، "قائد السبسي" وهو حامل غليون الباي، "قائد الطاسة" وهو مكلف بحمل آنية مشروبات الباي، "قائد الدريبة" وهو حارس باب القصر الرئيسي، والباش فراش والباش قهواجي[49].

ع. **الحاكم**: يتمتع باستقلال ذاتي، لم يكن تابعا إلا للجزائر، وكانت تستعمله الإدارة المركزية للحد من صلاحيات باي التيطري، وكان واسطة بين الداي والباي، يقود جماعة "الزبنطوط"، يراقب سكان الحواضر ويجبي الضرائب في المدن[50].

بهذا الطاقم الإداري الهام تمكن بايات التيطري من حكم البايلك بصرامة لما يقارب الثلاثة قرون، وتسيير شؤون الإدارة بما يخدم مصالح البايلك. غير أن هذا لم يكن بدون توفر عامل هام لعب دورا أساسيا في حياة البايلك ألا وهو العامل العسكري.

3. الجيش المعتمد :

كانت القوة العسكرية التي يملكها الباي تتشكل من الزبنطوط والمخازنية :

فالزبنطوط هم إنكشارية كانوا أتراكا، لكن عندما شحّ عدد القادمين من الأناضول أدخل الكراغلة، ويتراوح عددهم بين 120 و230 فردا، أما الكبار منهم والذين تزوجوا فكانوا يشكلون احتياطيا يصل إلى 400 فرد يقيمون في المدية[51].

أما المخازنية فهناك قبيلتين بالنسبة لبايلك التيطري، وهما العبيد والدواير، وهم يشكلون قوة من 600 فارس دائمي الاستعداد لخدمة السلطة التي تستعملهم في ضمان أمن الطرقات وجباية الضرائب وقمع القبائل الثائرة.

وإضافة إلى كل هؤلاء كان يمكن للباي الاعتماد على القوة العسكرية لأولاد مختار الذين كانوا يقدمون كتيبة، كما كان الباي يأخذ من قبائل الرعية أثناء الحملات الكبرى كتائب مسلحة تدعى خطأ مخزن.

إذن فالقوة التي كان يستعملها باي التيطري لضمان الأمن وجباية الضرائب تتمثل في:

50 صبايحي.

15 مكاحلي.

120 زبنطوط.

7 علامة (حاملي الأعلام الذين يعملون كدليل).

600 فارس مخزني.

150 فارس من أولاد مختار.

كتيبة من الرعايا قلما تتجاوز 1000 رجل.

ويضاف إلى هؤلاء أثناء الحملات أو "المحلات" 270 زبنطوط من الجزائر، إضافة إلى زبنطوط سابقين لحاكم المدية عددهم 300 تقريبا.

إذن بواسطة 2000 رجل يتمكن الباي من فرض سيطرته على البايلك[52].

III. أهم البايات وعلاقاتهم بالأهالي :

لم يتفق المؤرخون على عدد البايات الذين تداولوا على بايلك التيطري منذ تنظيمه الأول في 1548 حتى تقسيمه وإعادة تنظيمه في 1775، ففي حين يذكر بعضهم ثمانية عشر بايا [53] يذكر آخرون ثلاثة وثلاثين بايا [54]، ويبدو أنه لم يُعرف كل البايات، إذ نلاحظ حسب القائمة التي قدّمها أوكابيتان وفيدرمان (Aucapitaine et Federman) فجوات تصل إلى ما يقارب القرن، فمثلا بين رجب باي 1548 والباي شعبان 1633 هناك فجوة تصل إلى 85 سنة، لا نملك معلومات عن البايات الذين حكموا خلالها[55]، غير أن فراعون (Pharaon) يملأ هذا الفراغ، لكنه لا يتفق تماما مع المؤرخين السابقين فيما يخص البايات الذين حكموا ابتداء من 1775، مما يصعّب وضع قائمة لبايات التيطري. وقد حاولت ذلك بالاعتماد على المؤخرين المذكورين آنفا، إضافة إلى مؤلف مجهول عمل كاتبا عند باي التيطري في الفترة مابين 1775 و1805 قام فيرو (Feraud) بترجمة عمله. وممّا يلاحظ عليه ذكره لتواريخ دقيقة عن تولي البايات وعزلهم خلال الفترة المذكورة[56].

وفيما يلي القائمة :

- رجب باي 1548.
- يحي باي 1568.
- رمضان باشا 1575.
- مصطفى باي 1580.
- مراد باي 1583.

- محمود باي 1584.
- قايد الحسن 1585.
- جعفر باي 1591.
- قايد الجيش (كذا) 1593.
- فرحات باي 1615.
- القايد يوسف 1619.
- شعبان باي 1633.
- محمد باي 1650.
- فرحات باي 1663 [57]
- إسماعيل باشا 1670
- أبو محمد حسن باشا 1687
- محمد باي 1692
- حسين باي 1706
- حمو باي 1716
- سليمان باي 1728
- عثمان باي 1734
- علي باي 1744
- محمد باي 1746 [58]

- عثمان باي 1757 [59]

- ابراهيم باي 1759

- الحاج علي باي 1760 [60]

- يحي باي 1762

- عثمان باي 1763

- دارم باي

- علي باي الجنوي 1766

- إسماعيل باي 1767

- مامرلي

- صوفتا 1775

- مصطفى بن سليمان الوزناجي 1775

- محمد فريرة المدعو الدباح 1794 [61]

- الحاج ابراهيم البورصالي 1794

- ابراهيم التلمساني 1799

- الباي حسن 1801 [62]

- محمد المدفعي 1801

- إسماعيل باي 1809

- جعفر باي 1813

- ابراهيم صهر بن الحاج خليل 1815.

- ابراهيم القسنطيني 1817.

- الباي مصطفى الملياني 1819.

- الباي مصطفى بومزراق 1819.

وتعتبر الفترة مابين تنظيم بايلك 1548 وإعادة تنظيمه في 1775 غامضة، إذ لا نعرف عن نشاطات البايات الذين حكموا خلالها أي شيء، ولا تتضح الأمور نسبيا إلا في عهد الباي عثمان الذي حكم في 1734 والباي صوفتا آخر البايات الذين أقاموا في برج سباو والمدية. فقد كان الباي عثمان ضحية الحملة التي قادها ضد أولاد سيد أحمد أحد فروع أولاد نايل، إذ ألقي عليه القبض وقتل[63]. أما الباي صوفتا ففي عهده ثارت قبائل أولاد نايل من جديد، وكانت أراضيها تمتد بين مسيلة، بوسعادة، الأغواط والجلفة. وقد تمكنت من إلحاق الهزيمة بالباي وقتله[64]. واستمرت الثورة حتى اضطرت السلطة التركية لتخفيف الضرائب على الثوار[65].

وقد يكون هذان المثالان المتعلقان بفترة ماقبل 1775 خير دليل على الوضع الداخلي ببايلك التيطري، مما اضطر الحكام على المستوى المركزي لتثبيت عاصمة البايلك بصفة نهائية في المدية، بعد أن كان البايات يتنقلون بين برج سباو والمدية، فقد اشتعلت المنطقة بالثورات من جهة قبائل سباو[66]، ومن جهة أخرى قبائل الجنوب، ما صعّب على البايات الحكم، وحمل الحكومة المركزية على إنقاص قبائل سباو التي تضم يسر والخشنة من بايلك التيطري، ونظّمت في قيادات تابعة مباشرة لآغا الجزائر.

بعد إعادة تنظيم بايلك التيطري كان الباي مصطفى سليمان الوزناجي هو أول البايات الذين أقاموا بصفة دائمة في المدية، وقد اختير بعناية من طرف الداي نظرا

للفوضى الشائعة وتطاول الأهالي على الحكام الأتراك، إلى حد جعلهم يثورون ويمتنعون عن دفع الضرائب. حيث كان تعيينه عام 1775 ودام حكمه 19 سنة، تمكن خلالها من فرض سلطة الدولة على هذه المناطق[67].

وقد أعاد هذا الباي تنظيم مخزني التيطري (العبيد والدواير) باعتبارهما القوة التي يحتاجها لتثبيت سلطته، وزاد من عدد جنوده العاديين، واتخذ من البرواقية قاعدة عسكرية لعملياته ضد قبائل الجنوب، نظرا لموقعها الاستراتيجي الهام، وذلك عوضا عن حوض عثمان الواقع في الشمال والبعيد عن منطقة العمليات[68]. واعتمد تجاه الأهالي سياسة مكنته من إعادة نفوذ السلطة، إذ عمل على كسب ثقة الأجواد بالتقرب منهم بمنحهم الهدايا، وفي المقابل ساعده هؤلاء في حملاته ضد القبائل الثائرة كأولاد سيد أحمد وأولاد عامر ثم كل فروع أولاد نايل[69].

وصادفت فترة حكمه هجوم أوريللي[70] على الجزائر، فكانت مساهمته بمعية عشرة آلاف جندي معتبرة، حيث أبلوا فيها بلاء حسنا[71].

أما في المجال الداخلي فبعد أن حقّق استقرارا نسبيا بالبايلك عين الوزناجي بايا لقسنطينة، فذهب مع وكيل الخرج "علي" وقتل صالح باي قسنطينة وتولى مكانه[72].

عينت السلطة المركزية محمد فريرة المدعو بـ"الدباح" بايا جديدا لبايلك التيطري، وكان خليفة الوزناجي في سباو. ويبدو من خلال اسمه أن تاريخه كان دمويا في إدارة البايلك، وقد انتهى حكمه بعزله وحبسه وتجريده من أملاكه[73]، وخلفه ابراهيم بورصالي[74]، الذي لم يطل بقاؤه في السلطة، وعوّض بالباي حسن في ظروف فوضى كبيرة، تمثلت في رفض قبيلة موزاية دفع الضريبة وقطعها للطريق الرابط بين الجزائر والمدية، مما استوجب إيقاف هذا التمرد لإعادة الاتصال بين مركز السلطة في الجزائر والبايلك، وقد نجح في ذلك[75].

بحلول القرن التاسع عشر زادت الحساسية بين السلطة التركية الحاكمة والجزائريين في مختلف أرجاء الجزائر. ففي عهد الباي حسن ظهرت ثورة درقاوة بالمنطقة الغربية للجزائر. وقد امتدت قبائل دوي حسين، مطماطة، جندل وغيرها نحو المدية لطرد الأتراك منها، غير أن الباي تمكن من القضاء عليها بمساعدة أهل المخزن[76]، وتولى بعده محمد المدفعي[77] الذي لا نملك معلومات عن حكمه، ثم خلفه إسماعيل باي.

لقد صادف عهد الباي إسماعيل فترة فوضى كبيرة في البايلك، بدأت بثورة أولاد نايل، وعندما سار إليهم الباي انسحبوا، مما اضطره للعودة بدون غنائم، وهذا ما أغضب أهل المخزن، وكاد الأمر يصبح خطيرا لولا مقابلة الباي للشيخ النعيمي بن زيدان من أولاد خليف، والذي أشار عليه بمهاجمة بني لنت التابعين لبايلك الغرب، وقد وفق الباي إسماعيل وحليفه في حملته هذه وعاد بغنائم كثيرة، غير أنه تسبّب في سوء العلاقة بينه وبين باي الغرب بوكابوس[78].

ومن الثورات التي كادت تعصف بالوجود العثماني بهذا البايلك ثورة قبائل عريب بقيادة رابح بن طالب، فقد كانت قبائل قايدة الديرة التابعة لباي التيطري تتصارع مع عريب وبني سليمان التابعين لآغا الجزائر حول أراضي قريبة من وادي جنان، ولما لم يفصل الديوان في هذا الأمر حاول الجميع حل المسألة بالقوة، فنشب صراع مسلح بين الجانبين على أراضي العذاورة الذين انضمّ بعضهم لأحد المتصارعين وبعضهم للطرف الآخر، واضطرت عريب وبني سليمان للانسحاب من الأراضي المتنازع عليها.

ثم مرّت قبائل عريب إلى مرحلة خطيرة في تاريخ العلاقة بين الإدارة التركية والأهالي، تمثلت في اختيارهم رابح بن طالب قائدا عليهم، وانتقال صراعهم الذي كان سابقا صراع قبائل إلى حرب حقيقية اتخذت صبغة سياسية، فقد تمكن رابح بن

طالب من جمع قبائل متيجة والتل حتى الصحراء، وبواسطة أكثر من 8000 فارس هاجم قبائل الديرة، التي سحقها، ثم هاجم برج سور الغزلان ونهبه وطرد الحامية التركية [79].

هذا الأمر أقلق الإدارة التركية في الجزائر، مما جعل الداي يأمر الباي بوكابوس بمعاقبة قبائل عريب، فسار ضدهم وهزمهم وقتل قائدهم [80].

وفي 1813 عين الباي جعفر على رأس بايلك التيطري، وفي عهده استمرت السياسة التركية الرامية لتغذية الصراعات القبلية ضمانا لبقاء النفوذ التركي. ففي قبيلة العمامرة كان صفان يتصارعان حول قيادة الأربعاء، أحدهما كان يمثله بن شهرة بن فرحات الذي كانت له القيادة مع الباي الجديد، وسليمان بن أحمد صونا طايرة[81]، كما قام هذا الباي بحملة ضد أولاد ماضي التابعين لبايلك الشرق، غير أنه انهزم فيها شرّ هزيمة، وكلفه هذا التطاول حياته، إذ أرسلت إليه الإدارة المركزية الحاكم الذي أعدمه[82].

ثم عين إبراهيم صهر الحاج خليل مكان الباي المعدوم، ودام حكمه سنتين، قام خلالهما بحملة ضد أولاد نايل الثائرين، بمساعدة قبائل المخزن من عبيد ودواير وحلفائه من أولاد مختار، ثم خلفه في الفترة مابين 1817 و1819 إبراهيم القسنطيني الذي شن حملات متعددة على القبائل الثائرة بالجنوب وقمعها بطريقة دموية، ثم عينت الحكومة المركزية الباي مصطفى الذي ترك منصبه بعد ستة أشهر من شغله وانعزل في زاوية سيدي محمد بن عيسى [83].

ومن خلال قِصر فترات حكم البايات يبرز لنا عدم استقرار الحكم التركي بهذا البايلك، إذ الفوضى عارمة والحكومة المركزية تحاول الحصول على الهدوء في هذه المنطقة الحساسة القريبة من مقر السلطة المركزية، لذا كانت هذه الأخيرة تغير البايات عسى أن يتمكن أحدهم من تهدئة الوضع، غير أن هذا لم يحصل إلى أن جاء الباي بومزراق.

حكم الباي بومزراق بايلك التيطري من 1819 إلى 1830 وقد اتبع سياسة حكيمة في كسب ثقة الأغلبية، فإلى جانب الحملات السريعة والمكثفة انتهج سياسة رشيدة تمثلت في منح الهدايا، وهذا ما جعل فروعا عديدة من أولاد نايل وبوعيش وأولاد شايب الذين لم تتمكن الحملات من إخضاعهم يجنحون للسلم ويخضعون له. واعتبارا من هذه الفترة أصبح أولاد بوعيش وأولاد شايب وأولاد نايل تابعين مباشرة لآغا الجزائر، ولم يعودوا تابعين لباي التيطري، وعين حسن القريتلي قائدا لأولاد نايل مكلفا بتقديم الضرائب المفروضة على أولاد نايل مرتين في السنة [84].

الهوامش:

1. عــروج : مجاهد بدأ حياته البحرية في الحوض الشرقي للمتوسط، حيث اتخذ من حلق الوادي قــاعدة أساســية له، وجربة قاعدة ثانوية بالإتفاق مع الحاكم الحفصي مقابل خمس الغنائم. وقد ركز نشاطه في المتوسط الغربي وضد السواحل الإسبانية. حاول تحرير بجاية بطلب من أهلها مرتين غير أنه لم يفــلح، فاستقر في جيجل القريبة منها، حيث وصله نداء أهل مدينة الجزائر لمساعدتهم في تحرير حصن البنيون، فالتحق بهم لكنه أخفق في ذلك. وقد استولى على مدن عديدة قبل أن يذهب إلى تلمسان التي نــاداه أهلها لمساعدتهم ضد حاكمها المتعامل مع الإسبان، غير أنه لقي مصرعه هناك في 1518. أنظر لمعلومات أوفر :

مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تحقيق نور الدين عبد القادر، ط 1، الجزائر 1984،

كذلك Le tourneau. R, Arudj, E, 1.2, T1, P 698.

2. خــير الدين (1466– 1546) : بحار مشهور وأمير الأسطول العثماني، بدأ نشاطه بنقل البضائع على متن سفينة إلى صاروس، سالونيك ونيقرابون ثم التحق بالحوض الغربي للمتوسط مع أخيه عروج. وبعد وفاة هذا الأخير واجه خير الدين مع الجزائريين حملة إسبانية كبيرة قادها هيقو دو منكاد فانتصروا علــيه، لكن تزايد الخطر الخارجي جعل الجزائريين ينضمون للدولة العثمانية. فعين السلطان خير الدين بايلر بايا على الجزائر. حيث سعى لتقوية بحريتها. وفي 1533 استدعاه السلطان العثماني إلى اسطنبول وكلّفه بقيادة الأسطول العثماني، توفي في 1546. لمعلومات أوفر أنظر: الغزوات؛

Ekrem. R, la vie de Kheireddine Barbarousse, 2ème edit, Gallimard, Paris 1931

3. الغزوات، ص 31.

4. يــرجع بعــض المورخين أن هذا البايلك هو الأول الذي استحدث من طرف السلطة العثمانية أسوة بما كان موجودا لدى الزيانيين. أنظر:

Boyer. P, "Beys et Beyliks", in atti del I congresso internazionale de studi nord africain, Cagliari, 1965, P 165. نقلا عن استيرازي Esterhazy.

5. سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800 – 1830)، الجزائر، ش.و.ن .ت، 1979، ص 30.

6. الفرسخ : يبلغ 4 كيلومترات تقريبا، أنظر المنهل، ص 614.

7. Shaw. voyage dans la regence d'alger. Trad de langlais par J.Mac.Carthy. Tunis. ed Bouslama, s.d, P 316.

8. Ibidem.

9. حسن بن خير الدين : ابن خير الدين بربروس، من أم جزائرية، تقلد حكم الجزائر ثلاث مرات 1544 – 1547. عــين بايلر بايا للجزائر، حكم لفترة ثانية من 1557 إلى 1561 ثم المرة الثالثة 1562 إلى 1567.

10. يبدو أن هذه التسمية تعود لقبيلة التيطري التي أخذ اسمها كل الأقاليم والتي تعني بارد أو مجمّد. انظر:

Shaw, Op.cit, P 318.

11- Aucapitaine. B et Federmann,"notice sur lhistoire et ladministration du Beylak de Titter", in R.A, T9, 1865, P 282.

12- Ibid, PP 282- 283.

13- Boyer.P, evolution de lAlgerie mediane (Ancien departement dAlger de 1830 a 1965). Paris, librairie dAmerique et dOrient, 1960. P 21

14- Pharaon. F, "Notice sur les tribus de la subdivision de Medea", in R.A, T2, 1857- 1858, P 47.

15- Pharaon. F, Op.cit, T1, 1856- 1857, PP 393-395.

16- Rinn. L, Le royaume d'Alger sous le dernier dey, in R.A, T41, 1897, PP 136- 137.

17- Aucapitaine. B et Federmann.H, op.cit, T11, 1867, PP 113- 114.

18- Ibid, P 144.

19- Ibid, P 115.

20- Rinn. L, Op.cit, PP 343-344.

21. سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر. العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 97.

22. Rinn. L, Op.cit, PP 339-340.

23. سعيدوني ناصر الدين، سبق ذكره، ص 102.

24- Rinn. L, Op.cit, PP 341-342.

25- Ibid, P344-346.

26- Ibid, P 124.

27- Ibid, P 346-348.

28. سعيدوني ناصر الدين، سبق ذكره، ص 241.

29. سعيدوني ناصر الدين، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، الجزائر م و ك 1984، ص 20.

30. سعيدوني ناصر الدين، ورقات...، ص 241 – 241.

31- Rinn. L, Op.cit, P 135.

32- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 36.

33- Rinn. L, Op.cit, P 135.

34. سعيدوني ن، ورقات...، ص 242.

35. نفس المرجع.

36- Boyer. P, evolution... op.cit, P 27.

37- Ibidem.

38- Ibidem.

39. سعيدوني ن ،ورقات...، ص 243.

40- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 27, Aucapitaine. B et Federmann. H, op.cit, P 294.

41- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 28.

42- Ibidem.

43. سعيدوني ن ،ورقات...، ص 244.

44. نفس المرجع.

45. نفس المرجع، ص 245.

46- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 29-30.

47. سعيدوني ن ،ورقات...، ص 245.

48- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 30.

49_ سعيدوني ن/ ورقات...، ص 246.

50- Boyer. P, evolution... Op.cit, P 36.

51- Ibid, P 30.

52- Ibid, PP 30-31.

53- Aucapitaine. B, et Federmann.H, Op.cit, T9, 1865, P 286.

54- Pharaon. F, Op.cit, T2, 1857- 1858, P 302.

55- Aucapitaine. B et Federmann.H, Op.cit, 1865,-P 285.

56- Feraud. Ch, Ephémerides dun secretaire officiel sous la domination turque a Alger de 1775 a 1805 in R.A, T18, 1874.

57. يذكره أوكابيتان وفيدرمان ولايذكره فراعون.

58. بينما يذكر فيدرمان سنة توليه الحكم 1746 يذكر فراعون 1753

59. يذكــره فراعون فقط، ولسنا ندري إن كان نفس الباي عثمان الذي ذكره في 1734 أو أنه باي آخر.

60. بينما يذكر فراعون سنة 1766.

61. يذكر المؤلف المجهول الذي ترجم عمله فيرو أن الدباح تولى الحكم في أفريل 1792. أنظر:

Feraud. Ch, Op.cit, P 300.

62. يذكر كاتب الباي أن حسين باي عين في 11 جويلية 1796 أنظر:

Feraud. Ch, Op.cit, P 304.

63- Aucapitaine. B et Federmann. H, Op.cit, T9, 1865, P 285.

75- Aucapitaine. B et Federmann. H, Op.cit, T9, 1865, P 288- 289.

76- Ibid, P289- 290.

77- Feraud. CH, Op.cit, P307.

78- Aucapitaine. B et Federmann. H, Op.cit, T9, 1865, P 290.

79- Ibid, PP 290-291.

80- Ibid, PP 291-292.

81- Ibid, PP 293-294, 296.

82. الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 112.

83- Aucapitaine. B et Federmanm. H, Op.cit, T9, 1865, PP 296- 297.

84- IBID, PP 297- 299.

المبحث الثالث : بايلك قسنطينة

من إعداد الأستاذة : زكية زهرة

مقدمة :

إن الأوضاع السياسية التي عرفتها الجزائر في مطلع القرن السادس عشر أدت إلى استحداث نظام إداري للدولة الجزائرية الفتية، على غرار ما هو متواجد في الدولة العثمانية والبلدان السائرة في فلكها[1].

ولقد جاء التنظيم الإداري للجزائر على مراحل منذ التحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1519، بحيث ظهرت الخطوات الأولى للتنظيم الإداري للدولة الجزائرية في عهد خير الدين باشا (1519-1533) حين اتخذ مدينة الجزائر مقرا للحكم وعاصمة للدولة وعين نائبان له بدلس الواقعة شرق العاصمة وشرشال الواقعة غربها. ومع حلول عام 1565 وخلال العهدة الثالثة من حكم حسن باشا بن خير الدين (1562-1567)[2] عرفت الجزائر تنظيما إداريا أكثر شمولية ووضوح وهو التنظيم الذي يبقى ساري المفعول إلى غاية احتلال الفرنسي للجزائر عام 1830. بحيث قام البايلرباي (بكلربك) حسن باشا بن خير الدين بتقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات كل مقاطعة تحمل اسم بايليك وهم : بايليك الغرب وعاصمته مازونة [3] وبايليك التيطري وعاصمته المدية، وبايليك الشرق وعاصمته قسنطينة، زيادة على دار السلطان، ويحكم مقاطعة نائب عن الحاكم بدار السلطان في العاصمة يسمى باي "بك".

هذا وإن كانت قسنطينة قد تأخرت بسنتين في تعيين بايها نظرا للظروف التي عرفتها المنطقة، فكان أول باي عين على مقاطعة قسنطينة هو رمضان تشولاق باي الذي بقي على رأس البايليك مدة سبع سنوات (1567-1574).

التحاق الجزائر بالباب العالي " 1519 " [4]

إن الخطر الإسباني الذي كان يهدد سواحل الجزائر قد دفع سكان بجاية سنة 1512 إلى الاستنجاد بالأخوين خير الدين وعروج [5] المتواجدان بجربة وحلق الوادي بتونس، وكان صيتهما قد ذاع في غرب المتوسط في نجده ونصرة المسلمين بإسبانيا منذ بداية القرن 16 م.

لبى الأخوان بربروس نداء البجاويين وتحركا نحو بجاية بأربعة سفن، وعند وصولهما إلى بجاية التحق بقواتهما حوالي 4 آلاف جندي من المنطقة إلا أن حصارهم لبجاية ومحاولتهم أخذها باءت بالفشل بعد أن فقد عروج ذراعه الأيسر هناك، فعادا نحو تونس [6].

ثم تتالت نداءات سكان الجزائر لعروج وخير الدين لمساعدتهم، فكان نداء سكان جيجل[7] لطرد الجنوبيين عام 1514، وسكان الجزائر عام 1516 لطرد الإسبان، وتلمسان عام 1517.

بعد مقتل أخويه وخاصة أخاه الأكبر عروج [8] وأمام الخطر الإسباني المتربص لهم وتواطؤ بعض السكان المحليين مع العدو، كان على سكان الجزائر أن يتخذوا قرارا لأجل الوقوف في وجه الحملات الصليبية المتكررة على سواحل الجزائر بزعامة الإمبراطورية الإسبانية، ولما كانت الدولة العثمانية التي أصبحت تحمل اسم الخلافة الإسلامية [9] القوة الإسلامية الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجه الخطر الإسباني أرسل سكان الجزائر رسالة إلى السلطان العثماني سليم الأول مع وفد يترأسه أحد علماء الجزائر وهو أبو العباس أحمد بن علي بن محمد فيما بين 26 أكتوبر و3 نوفمبر من عام 1519 [10]، وطلبوا منه إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وتعيين خير الدين حاكما عليها السلطان العثماني بالطلب وقبله ونصب خير الدين حاكا على الجزائر بلقب بايلرباي وأرسل له مع قفطان التولية ألفي جندي وأسلحة [11]، وابتداء من هذه السنة 1519 التحقت الجزائر رسميا بالخلافة العثمانية، التي أصبحت إحدى ولاياتها الأساسية في غرب المتوسط.

بداية التنظيم الإداري للجزائـــر :

كـــان أول تنظيم إداري قام به خير الدين بعد توليه الحكم، إتخاذه لمدينة الجزائر مقـــرا له، وتعين نائبين له، الأول بشرق مدينة الجزائر بدلس وهو أحمد بن القاضي، والـــثاني بغـــربها بشرشال وهو محمد بن علي، إلا أن مشاكل نشبت بين خير الدين وابـــن القاضي أمير كوكو عام 1521، اضطرت خير الدين إلى مغادرة مدينة الجزائر نحو جيجل قاعدته الأولى بالجزائر[12].

تكوين الحاميات التركية بالشرق الجزائري :

مـــن قاعدته بجيجل اتجه خير الدين شرقا، فأخذ القل عام 1521 ثم مدينتي عنابة وقســـنطينة عـــام 1522، ووضع في كل مدينة حامية من الجيش الإنكشاري على رأســـها ضابط يحمل لقب قائد العسكر، بلغ عدد حامية القل 200 جندي، وحامية قسنطينة 600 جندي، أما حامية عنابة فبلغ عدد جندها 1500.

أوصـــى خير الدين الضباط رؤساء الحاميات بحسن معاملة أهل المنطقة وكسب ودهـــم، وهو ما عمل به الضابط يوسف قائد العسكر بقسنطينة، خاصة وأن موقع مديـــنة قســـنطينة البعيد عن البحر يجعلها في حاجة ماسة ودائمة إلى الأسواق المحلية لجلب المؤن للحامية[13].

تقـــرب يوســـف قائد العسكر من الشيخ الفقون[14] شيخ البلد الذي ضمن له التعاون مع أحد القبائل الهيلالية الشهيرة بالشرق وهي قبيلة أولا يعقود بن علي التي كانت تسيطر على رقعة جغرافية واسعة بالشرق تمتد من عنابة شرقا إلى سطيف غربا وإلى توقـــرت جنوبا وكان شرط قبيلة أولاد يعقوب بن علي[15] في هذا التعاون، أن تـــزود هي الحامية التركية بالمؤن، مقابل حصولها على البارود وبعض المعتاد الحربي كلما إحتاجت القبيلة لذلك.

المشاكل التي تلقتها الحامية التركية بقسنطينة :

عاد خير الدين إلى الجزائر عام 1525 وطرد الإسبان من البانيون" "Pénon" عام 1529، ولاحق ثم هزم أندري دوريا " "André Doria" بشرشال عام 1531، ثم اتجه نحـــو تونس وأخذها عام 1533، إلا أن استنجاد السلطان الحفصي بشارل العاشر "C harles-Quint" واحـــتلاله لحلق الوادي، اضطر خير الدين إلى مغادرة تونس في 20 جويلية من عام 1534، إذ عاد إلى أرض الجزائر برا وفي مدينة عنابة ركب البحر مع 4000 رجل إلى الجزائر، وترك حسن آغا ساردو الذي كان معه ليواصل طريقه برا نحو جيجل مع 1500 رجل كانوا بعنابة [16].

عندما وصل حسن آغا سارد ورجاله عند مشارف قسنطينة منعهم سكانها من دخول المدينة، ولتفادي المشاكل التي يمكن أن تنجم من جراء هذا الخلاف، تدخل يوسف قائد العسكر والشيخ الفقون شيخ البلد، وأقنعا حسن آغا ساردو بالتمركز مع رجاله خارج مدينة قسنطينة ووعداه بتلقي المؤن طيلة مدة استراحتهم بالمنطقة مع بعض التعويضات.

عـــرف العدد القليل الذي بقي من الحامية التركية بقسنطينة العديد من المشاكل، مـــنها الصـــراع القبـــلي فقبيلة الحنانشة القادمة من شرق مدينة قسنطينة وفي إطار الصراع القائم بينها وبين قبيلة أولاد يعقوب، أرادت الإستفادة من نفس الإمتيازات الـــتي تحصلت عليها القبيلة الهيلالية في تعاملها مع الحامية التركية وهو حصولها على البارود وبعض الأسلحة (مثل البنادق).

فقامـــت بمحاصـــرة مدينة قسنطينة لأجل منع وصول المؤن إلى الحامية التركية، وعـــندما عجـــز القايد يوسف من فك الحصار استنجد بأولاد يعقوب الذين كانوا بالجنوب، فهبوا إلى مساعدته متجهين نحو الشمال، فدارت بين القبيلتين مشابكات في سـهول سـطيف، انتهـت بتدخل كبار القبيلتين الذين فصلوا في الأمر بينهما واقتسموا مناطق النفوذ بين القبيلتين، فاستقر الأمر على نأخذ قبيلة الحنانشة في شرق مدينة قسنطينة وقبيلة أولاد يعقوب (دواودة) في غرب المدينة وحواليها[17].

إلا أننا لا نعلم ما دور شيخ الفقون في خضم هذا التطاحن القبلي.

على إثر هذا الإتفاق بين القبيلتين، تمكن القايد يوسف من ضمان وصول المؤن إلى الحامية وبدون مشاكل ولو لفترة وجيزة.

تعزيز إقليم قسنطينة بحاميات جديدة :

بعد تولي حسن قورصو منصب البابلرباي فيما بين 1540-1541، عزز إقليم قسنطينة بعدة حاميات وضعها في مناطق استراتيجية منها زمورة، برج بوعريريج، مسيلة والبويرة.

وفي إطار بسط النفوذ التركي على بقية مناطق الشرق الجزائري، وعندما رفض الدواودة دفع بعض المستحقات إلى علي بوعكاز، قام حسن قورصو بإعطاء علي بوعكاز لقب شيخ العرب مع السلطة الكاملة على قبيلة الرحل الدواودة، وفي نفس النهج، نصب عبد العزيز حاكم قلعة بني عباس خليفة علي مجانة عام 1542 الشيء الذي سمح له ببسط نفوذه على الزاب وبسكرة وأخضعها لسلطته بعد أن أصبح إقليم قسنطينة ينعم بنوع من الهدوء بفضل علي بوعكاز شيخ العرب وعبد العزيز خليفة مجانة، كان على حسن بانشاء (1544-1554) ...الذي خلف حسن قورصو، أن يخضع ابن القاضي الذي بقي رافضا للحكم التركي بالوسط الجزائري

فحمل عبد العزيز خليفة مجانة بالمهمة وعزز رجاله...من الجيش الإنكشاري، فبسط عبد العزيز نفوذه على منطقة واسعة من الشرق الجزائري امتدت إلى البيبان غربا وبسكرة بالزيبان جنوبا، وجرجرة غربا، ومضايف جزاطة شمالا. وحتى يضمن حسن باشا بن خير الدين حلفائه، ولا يثير مشاكل بينهم، وافق على الإتفاق التي عقده بوعكاز مع كل من الدواودة والأحرار الحنانشة، بحيث اقتسموا فيما بينهم مناطق النفوذ، فكان أن بسط الدواودة، وهم نزع من يعقوب بن علي بوعكاز

نفوذهم على المنطقة الممتدة بين قسنطينة والعلمة، والأحرار شيوخ الحنانشة على منطقة شرق قسنطينة، عائلة عبد العزيز خليفة مجانة فبسطت نفوذها على المنطقة الغربية لسطيف إلى غاية البويرة.

أما الأتراك فاحتفظوا بسلطتهم على المدن أين تقيم حامياتهم، كما احتفظوا بوصيهم على الجميع على أن تدفع كل قبيلة للخزينة ضريبة سنوية، وتستجيب لنداء الحكام الأتراك كلما احتاجوا إليها.

للعلم أن القبائل بقيت لها نفوذ كبير في منطقة الشرق الجزائري طيلة الحكم العثماني الجزائري، وقدمت خدمات كبيرة للحكام الأتراك، كما دخلت معهم في صراعات عديدة من أجل الحفاظ على امتيازاتها [18].

إن التفاهم الذي كان بين حسن بن خير الدين وشيخ العرب بوعكاز، ما فتئ أن زال، بحيث عندما تولى الحكم صالح رايس 1552-1556 وشن حملة على الجنوب القسنطيني وأخذ ورقلة وتقرت، بمساعدة بوعكاز وعبد العزيز خليفة مجانة سنة 1552، وقع خلاف بين عبد العزيز وصالح رايس [19]، حول تقسيم الغنائم واقتسام المناطق التي أخذت، بحيث طلب عبد العزيز المناطق الأقرب إلى المناطق الخاضعة له، وهي المناطق الواقعة بين بسكرة ومسيلة، الشيء الذي رفضه صالح ريس، فأعلن عبد العزيز عصيانه وتمرده على صالح رايس، تحالف مع عدوهم أحمد ابن القاضي، كما قام بمحاصرة الحاميات التركية المتواجدة في زمورة وبرج برعريرج ومسيلة والبويرة، ودارت حرب بين عبد العزيز وصالح ريس وابنه الآغا محمد بن صالح ريس الذي جاء من الجزائر بـ 2000 رجل لنجدة الحاميات التركية المحاصرة، دامت هذه الحرب ثلاث سنوات. كانت بداية الحرب لصالح عبد العزيز خليفة مجانة، الذي ضيق الخناق على الحاميات التركية واضطر الآغا محمد بن صالح رايس إلى العودة إلى الجزائر وحاول مرة أخرى إعادة الهجوم لكنه فشل، فصار عبد العزيز

الحاكم الفعلي على الحضنة وإقليم البيبان مما جعله يفرض عل كل بما في ذلك الأتراك، من ينتقل من الجزائر (الوسط) إلى إقليم قسنطينة رخصة مرور.

لم يحتفظ عبد العزيز طويلا بهيمنته على المناطق التي دخلت تحت نفوذه، بحيث عندما تولى الحكم حسن بن خير الدين (1557-1561)، عمل على تفكيك التحالف القديم المتواجد بين الشيوخ والقبائل، فبدأ بالتفاوض مع أحمد ابن القاضي أمير كوكو ثم تزوج بابنته للتقرب منه، ثم اتجه نحو عبد العزيز الحليف القديم له، بغية التفاوض معه [20] حول مناطق نفوذه الممتدة من مسيلة إلى الزيبان، فرفض عبد العزيز التفاوض في هذا الشأن فعادت الحرب بين الطرفين انتهت بمقتل عبد العزيز فتفاوض حسب بن خير الدين مع أخ عبد العزيز المدعو أمقران وقبل الصلح بشروط الحاكم حسن بإنشاء وتخلى أمقران على فكرة بسط نفوذ عائلته على الزيبان والضفة الغربية لوادي الساحل عام 1559.

بعد أن قضى على عبد العزيز وضمن ولاء أخاه أمقران الذي خلفه، وتصاهر مع ابن القاضي، عمل حسن بن خير الدين على إستمدات فرقة جديدة من الجيش من السكان المحليين وبعض الأندلسيين وهذا لوضع توازن في الجيش.

إلا أن استحداثه لهذه الفرقة قد أثارت غضب الجيش الإنكشاري الذي كان على رأسهم كرشة محمد، الذي اتهمه بمحاولته ضرب الإنكشارية بهذه الفرقة الجديدة، ومحاولة الاستقلال عن السلطة العثمانية فأطاحوا به وأرسلوه إلى استانبول، لكن الإطاحة بحسن بن خير الدي زاد في توسيع الهوة بين السكان المحليين والجيش الإنكشاري وصعب تهدئة الوضع، وربما يكون هو السبب الرئيسي الذي جعل السلطان العثماني يعيد تنصيب حسن بن خير الدين بابلربايا على الجزائر وللمرة الثالثة (1562) لامتصاص غضب السكان والمادة السكنية للجزائر.

تكوين بايليك الشرق :

خلال فترة حكمه الثالثة عمل على استقرار الحكم بالجزائر، وقام بعد منشآت بالجزائر وخاصة قسنطينة، وقد ساعده كثيرا شيوخ إقليم قسنطينة في حروبه مع الإسبان بوهران وجربة ومالطة، نذكر هنا مساعدة أحمد أمقران في حملته على هران عام 1563، وفي 1565 تكون أسماء إقليم أوبايليك قسنطينة، وفي سنة 1567 عين على رأس الباي رمضان تشولاق (جولاق) çulak الذي بقي على رأس بايليك قسنطينة مدة سبع سنوات (1567-1574).

حدود البايليك :

يحد بايليك الشرق من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء الكبرى غير المأهولة، ومن الشرق الحدود التونسية، ابتداء من وادي سوف ومرورا بتبسة الواقعة غير الكاف ووصولا عند طبرقة على ساحل البحر المتوسط ومن الغرب جبال البيبان وقرى بني منصور ومن الجنوب الغربي القرى الصغيرة لسيدي هجرس وسيدي عيسى التي تفصله عن بايليك التيطري[21].

الجهاز الإداري [22] :

1. **الباي** : هو الحاكم الرئيسي للبايليك، يعين من قبل الباشا في الجزائر ويخلع كذلك من قبله[23]، مهمته تسيير شؤون البايليك ويحيط بالباي الموظفون السامون للدولة أو المخزن.

2. **المخزن** : أو أعوان الباي وعددهم تسعة وهم :

1. الخليفة : وهو المسؤول عن شؤون الأوطان وإدارة أراضي البايليك، يخضع له القياد وكذا الفرق النظامية لأجل جباية الضرائب واستتباب الأمن كما كان تحت

تصرفه مباشرة تسع قبائل التي توفر له مائتين فارس كما يتولى الخليفة حمل الدنوش مرتين في العام في الربيع والخريف إلى الجزائر في حالة عدم قيام الباي بذلك[24].

ويلاحظ أن منصب الخليفة كان يشغله في معظم الأحيان أقارب الباي[25] هذا وإن ضعف بايات قسنطينة في الفترة الأخيرة من العهد العثماني قد أدى بالخليفة إلى توسيع نفوذه على حساب مهام الباي وهو الشيء الذي قام به الحاج أحمد باي حين كان خليفة في عهد إبراهيم باي الغربي[26] .

2. قايد الدار : كان مكلفا بإدارة وشرطة المدينة وبتموين الجيش شهريا وبتجهيز الفرق العسكرية عند تحركاتها. كما كان يدير القسم الأكبر من الأملاك الريفية التابعة للبايليك والعقارات المصادرة بالمدينة [27] . وكان يشرف على تخزين الحبوب الناتجة عن ضريبة العشور والعلاف والزيت والخشب وغيرها من المنتوجات والمحاصيل.

كما تمتد صلاحيات قايد الدار إلى توفير المعاش اليومي إلى القائمين على المساجد وبعض موظفي المدينة وهو المسؤول كذلك على إصدار الحكم في حق المتهمين بالمدينة ما عدا في حالة الإعدام فتعود الصلاحيات إلى الباي[28] .

3. النقاد أو الخزناجي : له كل الصلاحيات المتعلقة بالأمور المالية، من مصاريف وجمع الضرائب والدنوش[29] .

4. آغا الدايرة أو قايد الدايرة : هو أحد رؤساء فرسان المخزن، كان مسؤولا على فرق القوم (Goum) أي الفرق غير النظامية ويدير 39 قبيلة وكانت تعطى له في بعض الأحيان مهمة معاقبة القبائل المتمردة[30].

5. الباش كاتب : Baş katib فهو بمثابة الكاتب العام أو أمين سر الباي، له عدة صلاحيات، منها تحرير رسائل الباي ومراقبة الرسائل المحررة من قبل الكتاب الآخرين

وضع طابع الباي عليها،[31] يساعده في مهامه ثلاثة كتاب ثانويين يتولون تحضير محاضر الجلسات المتعلقة بأمور العدالة والموجهة إلى الباي، إلى جانب تحرير المراسلات العامة بين الباي والشيوخ والقياد[32].

6. الباش سيار : مهامه تشبه مهام ساعي البريد، بحيث يحمل بنفسه رسائل الباي إلى الحاكم بالجزائر ويعود برد هذا الأخير إلى الباي، كما يرافق الخليفة عندما يحمل الدنوش إلى العاصمة الجزائر[33] .

7. الباش سايس : وهو المسؤول على خيول وجياد البايليك من حيث الاعتناء بها وتكاثرها[34].

8. شاوش الكرسي: وهما إثنان من أصل تركي، يتوليان مهمة الجلد، ويصطحبان الباي عند خروجه حيث يمشيان أمامه ويلقون التحية باسم الباي[35]، هذا وتجدر الإشارة إلى ، بعض الشواشين قد أصبحوا بايات منهم محمد تشاكور وأحمد طوبال وقارة مصطفى[36] .

يطلق على المتوالين لهذه الوظائف السامية التي تم ذكرها اسم المخازني أي رجل الدولة، بحيث كان لهم الحق في الاتصال بالباي ومرافقته أثناء خروجه، وكانوا يشكلون مجلسه الخاص، وحضورهم ضروري عند إعلان الباي للأحكام المتعلقة بالعدالة[37].

هذا ويضاف إلى الموظفين السامين الثمانية من المخزن موظفين آخرين يمكن اعتبارهم تابعين للمخزن وهم :

1. قايد العواسي.
2. قايد الزمالة.
3. الباش حمبا [38] .

3. موظفون مساعدون : يضاف إلى الموظفين السامين من المخزن الذين يديرون شـؤون الـبايلك مجموعة من الموظفين في صف أدنى لا يحق لهم حضور اجتماعات المجلس، ولا يتصلوا هم الباي مباشرة إلا عند الضرورة وهؤلاء هم :

- آغا الصبايحية.
- شاوش محلة الشتاء.
- باش العلم.
- باش الطبل
- باش المكاحلي.
- باش خزناجي.
- باش منقا.
- قايد موهر باشا أو خوجة الخيل.
- باش سراج [39].

4. موظفو القصر، وأهمهم :

1. قايد المقصورة : وهو مقتصد القصر.
2. الباش فراش : وهو رئيس الفراشين ومهمته الإهتمام بفراش القصر.
3. قايد الجبيرة : مكلف بالحقيبة التي تعلق ببردعة فرس الباي.
4. قايد السوانة : مكلف بحمل مضلة الباي.
5. قايد السبسي : مكلف بالإعتناء (بشيشة) الباي.
6. قايد الطاسة : مكلف بحمل كأس الباي خلال سفره.

7. الباش قهواجي : أي رئيس القهواجية ومكلف بتقديم القهوة في القصر.
8. قايد الدريبة : وهو البواب الأول لباب الباي، عادة ما يكون خصيا وأسود [40].

5. إدارة المدينة :

تخضع إدارة المدينة إلى قايد الدار مباشرة، وكان تحت تصرفه أمناء الحرف والمهن مثل أمين الفضة وأمين الخبازين والمقدم أي مسؤول عن طائفة اليهود وعدد كبير من الموظفين ويمكن حصرهم فيما يلي :

1. قـايد الـبـاب : وهـو مكلف بمراقبة الحبوب والسلع التي تجلب إلى المدينة، ويقبض من أصحابها الضرائب والنقوس يساعده خوجة أي كاتب وعشرة موظفين.
2. قايد السوق : وهو مفتش الأسواق.
3. قايد الزبل : ويسهر على نظافة الشوارع والأسواق.
4. قـايد القصـبة [41] : وهو مسؤول عن شرطة المدينة، خاصة ليلا، ومن مهامه تنفـيذ الأحكام الصادرة في حق المتهمين بالإجرام ومراقبة المومسات، ويسلم قايد الزبل تقريره عن ما صدر ليلا كل يوم صباحا إلى الباي.
5. الـبرّاح : يبلغ أوامر الباي أو قايد الدار في الأسواق، ويرافق الذين صدر في حقهم حكم الإعدام، ويخرج مع شواشي الباب عند خروج هذا الأخير.
6. الـباش حمار أو رئيس الحمارين : هو مسؤول عن البغال وعليه توفيرها عند الحاجة إليها في الحملات.
7. وكـيل بيـت المـال : من صلاحيته تقديم المساعدات للفقراء والتصرف في المواريـث التي لا صاحب لها، وحفر القبور والإعتناء بالمقابر، ويوضع تحت تصرفه مبلغ من المال[42] من الخزينة العمومية لمواجهة هذه المشاكل.

6. جهاز العدالة :

كـــان جهـــاز العدالة لبايليك الشرق يسير من قبل مفتي وقاضيين، واحد مالكي بأغلبية السكان، كون أغلبية سكان شمال إفريقيا على المذهب المالكي، والآخر حنفي للأتـــراك العثمانـــيين والكراغلة وبعض الأشخاص الذين هم على المذهب الحنفي، وعـــادلان وناظـــرا يشرف على الأوقاف، وهؤلاء جميعا هم الذين يشكلون مجلس العدالـــة الذي يجتمع كل يوم جمعة للنظر في مختلف القضايا المطروحة عليهم، ويرأس المجلس الباي أو قايد الدار في حالة غيابه.

ولـــلمجلس صـــلاحية البت في الأمور الدينية والحياة اليومية كالزواج والطلاق، والمـــيراث...إلخ، إلا أنه لا يحق البت عندما يتعلق الأمر بالحكم بالإعدام فالباي هنا هو صاحب الرأي الأول والأخير[43].

بايات قسنطينة من سنة 1767 إلى 1830*

اسم الباي وفترة حكمه، الحاكم بالجزائر، السلطان العثماني.

1. رمضان جولاق باي 1567-1574
2. جعفر باي 1588 -1574
3. محمد بن فرحات باي 1608 – 1588
4. حسن باي 1622-1608
5. مراد باي 1647
6. فرحات باي 1653-1647
7. محمد بن فرحات باي 1666 -1653
8. رجب بن فرحات باي 1674 – 1666

9. خير الدين باي 1676 – 1674
10. عبد الرحمن دالي باي 1679 – 1676
11. عمر باي بن عبد الرحمن دالي باي (باش آغا باي) 1679 أوت 1688
11. شعبان باي 1692 - 1688
12. علي خوجة باي 1700 – 1692
13. علي خوجة باي 1700 -1692
14. أحمد خوجة بن فرحات (حفيد فرحات باي) 1700 - 1703
15. إبراهيم العلج باي 1707-1703
16. حمودة باي 1707 -
17. علي بن إبراهيم العلج 1708 – 1707
18. علي باي بن حمودة 1708
19. حسين شاوش باي 1709 – 1708
20. عبد الرحمن باي بن فرحات 1709
21. حسين دنقزلي باي 1710
22. علي باي بن صالح 1713 - 1710
23. كليان حسين باي المدعو بوكمية 1713-1736
24. حسن باي بن حسين المدعو بوحنك 1754 - 1736
25. حين باي المدعو زرق عينو 1756-1754

26. أحمد بن علي المدعو القلى 1756-1771

27. صالح باي بن مصطفى 1771 – 1792

28. إبراهيم باي بوصبع 17 أوت 1792

29. حسين بوحنك باي سبتمبر 1795 – جانفي 1795

30. حسين باي بن حسن بوحنك

31. مصطفى بن سليمان المدعو الوزناجي 15 فيفري 1795 –جانفي 1798

32. حاج مصطفى باي المدعو الإنكليزي جانفي 1798- ماي 1803

33. عثمان باي ابن محمد الكبير ماي 1803 – نوفمبر 1804

34. عبد الله خوجة باي بن اسماعيل نوفمبر 1804- ديسمبر 1806

35. حسين باي بن صالح باي نهاية 1806 جويلية 1807.

36. علي باي بن يوسف1807

37. أحمد شاوش القبايلي بوطرطورة سبتمبر 1807-1808.

38. أحمد طبال باي1808-1811

39. محمد نعمان باي ماي 1811 - 1814

40. محمد شاكر باي جانفي 1814- 1818

41. قارة مصطفى باي نهاية جانفي 1818

42. أحمد باي المملوك بضعة أشهر من عام 1818 (جانفي- جويلية)

43. محمد بن داود الميلي باي أوت 1818- ماي 1819

44. محمد خوجة الغربي جوان 1819- جويلية 1820

45. أحمد باي المملوك (المرة II) أوت 120- جوان 1822

46. إبراهيم باي الكريتلي 1824 – 1822

47. محمد مانمني باي بن خان ديسمبر 1824-جويلية 1826

48. الحاج أحمد باي بن محمد الشريف جويلية 1826-1837 (توفي في 3 أوت عام (1850) سنة 1848 ترك الجهاد.

الهوامش :

1. عن النظام الإداري بالدولة العثمانية، أنظر : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تأليف مجموعة من الأساتذة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، إستانبول، 1999.

2. تولى الحكم ثلاث مرات (1546-1551) (1557-1561) (1562-1567).

3. إن لبايليك الغرب أوضاع خاصة نظرا للاحتلال الإسباني فلم تستقر العاصمة بمازونة بل انتقلت إلى معسكر ثم وهران بعد تحريرها نهائيا من يد الإسبان.

4. عن كيفية إلتحاق الجزائر بالباب العالي، أنظر غزوات عروج وخير الدين، إعتنى بتصحيح وتعليق هوامشه نور الدين عبد القادر، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1934.

كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، إستانبول، 1728.

SANDER RANG et F. DENIS , Fondation de la Régence d'Alger, Paris, 1837, 2 t.

ZAHRA. Z., et BOUHAMCHOUCHE. N., « Comment l'Algérie s'est-elle liée a l'Empire ottoman », in Studies in Ottoman Diplomatic History, 1989, p p,. 17-25.

5. كان عدد الإخوة أربعة وهم : عروج وخير الدين الذي إسمه الحقيقي خضر، إلياس وإسحاق وأصلهم من جزيرة ميتلان. أنظر : كاتب جلبي، نفسه.

6. كاتب جلبي، ص 12.

7. هناك من يقول بأن عروج وخير الدين هما اللذان طلبا من الجيلجيين السماح لهما بالتمركز بمدينتهم الواقعة في مكان إستراتيجي قريب من بجاية، لإنطلاق عملياتهما العسكرية خاصة باتجاه بجاية التي بقيت في يد الإسبان.

8. قتل إسحاق في قلعة بني راشد في جانفي 1518، أما عروج فقتل في نفس العام بتلمسان. أنظر : كاتب جلبي، نفسه، ص 14.

HAEDO, Histoire des rois d'Alger, traduit par H. DE GRAMMONT, Alger, Jourdan, 1881, pp . 32-34.

DE GRAMMONT, Histoire d'Alger sous la domination Turque « 1515-1830 », Paris. E. Leroux, 1887, pp. 26-27.

9. أصبح السلطان العثماني يدعى بخليفة المسلمين بعد أخذ مصر عام 1517 ونقل مفاتيح الكعبة إلى إستانبول.

10. أنظر نص الرسالة في :

TEMIMI. A., « Lettre de la population Algéroise au Sultan Selim I en 1519 », in Revue de l'Histoire Maghrebine, n° 6, Juillet 1976, pp. 95-101.

11. كاتب جلبي، نفسه.

غزوات عروج وخير الدين، نفسه.

SANDER RANG, Op.cit.,

12. SANDER RANG, Op.cit., pp 139-207.

13. GAÏD.M., l'Algérie sous les Turcs, Alger, Mimouni, 1991.

محمد الصالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق، د. يحي بوعزيز، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 27.

14. عن عائلة الفقون أنظر: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف من إدعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، د. أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

15. عن القبائل المتواجدة بالشرق الجزائري أنظر :

FERAUD. Ch., Notices historiques sur les tribus de la province de Constantine, Constantine, Arnolet, 1869.

16. SANDER RANG, Op.cit., pp

VAYSETTES, « Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517-1837 », in Recueil des notices et Mémoires de Société Archéologiques de la Province de Constantine, t.11, 1867, pp 295-297.

17. VAYSETTES, Op.cit., pp 303-304.

GAÏD.M., Op.cit., pp 8-9.

العنتري نفسه، ص 28.

18. العنتري نفسه، ص 29.

GAÏD. M., Op.cit., pp. 65-67.

19. هو الذي حرر مدينة بجاية عام 1555 من يد الإسبان ووضع بها حامية تركية بلغ عددها 600 نفر. أنظر: العنتري، نفسه، ص 29.

GAÏD.M., Op.cit., p. 10

20. توجد ثلاث روايات حول هذه القصة. أنظر : العنتري نفسه، ص 29.

GAID. M., Op.cit., p. 11.

21. هي الحدود التي كان عليها بايليك قسنطينة عند الإحتلال الفرنسي له حسب ما ذكره فايسيت. أنظر :

VAYSETTES, Op.cit., pp. 264-265.

سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979.

22. اعتمدنا بالدرجة الأولى في هذا الموضوع على فايسيت والتي اعتمد عليه معظم الباحثين الذين تطرقوا لهذا الموضوع.

23. VAYSETTES, Op.cit.,pp. 247-248.

24. Ibid, pp. 249-250.

25. TEMIMI. A.,Op.cit., pp 67-68.

26. VAYSETTES, Op.cit.,p. 351.

سيساوي أحمد، النظام الإداري ببايليك الشرق، رسالة ماجستير، قسنطينة، 1988 (غير منشورة)، ص 58

27. VAYSETTES, Op.cit.,p. 250.

28. Ibidem.

29. Ibidem.

30. Ibid., p. 251.

31. هذا دليل كافي على المكانة التي يحتلها الباش كاتب.

32. VAYSETTES, Op.cit.,p. 251.

33. Ibidem.

34. Ibidem.

35. Ibid., pp. 251-252.

36. MERCIER. Op.cit., p 212.

37. VAYSETTES, Op.cit.,p. 252.

38. Ibidem.

39. Ibid., pp. 252-253.

40. Ibid., p. 254.

41. ويعرف بالجزائر بالموزار أو قايد الليل. أنظر :

TACHRIFAT, Ou recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, publiée par A. Devoulx, Alger, 1852, p. 22.

42. VAYSETTES, Op.cit.,pp. 255 – 256.

MERCIER. Op.cit., p 216.

43. Ibid., p. 256.

*. اعتمدنا في وضع هذا الجدول بالدرجة الأولى على : العنتري، فايسيات.

إعداد الأستاذة عائشة غطاس

إن موضـــوع التنظيمات الإدارية المحلية إبان العهد العثماني يكتسي أهمية بالغة إذ يسمح بالوقوف عند طبيعة الحكم العثماني كما يتيح معرفة طبيعة العلاقة القائمة بين الحكـــام و المحكومـــين وأول سؤال يطرح هو: متى ظهرت التقسيمات الإدارية أو المقاطعات التي اصطلح على تسميتها "بالبايليك"، أي المقاطعة الخاضعة لنفوذ الباي؟ استنادا إلى إسترهازي Esterhazy فإن بايليك ومخزن وهران أسسا عام 1563[1] على يـــد حســـن باشا بن خير الدين[2]. وحسب هذه الرأي دائما فإن هذا التنظيم اتخذ نموذجا للمقاطعتين الأخرين أي بايليك قسنطنية وبايليك التيطرى. وكان أول باي عـــين عـــلى المقاطعة الغربية الباي " **أبو خديجة** " الذي اتخذ مدينة "**مازونة**" قاعدة لحكمــــه، وكـــان تحت تصرفه 84 خيمة أي سفرة تركية وكان من صلاحيات ومهامه: تعين القياد وجباية الضرائب[3].

موظفو الإدارة المحلية :

الباي:

كانت المقاطعات عبارة عن شبه دويلات مستقلة، على رأسها الباي، الذي يعود إلـــيه التصـــرف المطلـــق في شؤون البايليك. فكيف كان يتم اختياره وضمن أي الشرائح كان يتم ذلك ؟

كـــان اختيار الباي يتم من طرف الداي وضمن الأقلية التركية العثمانية*. ويعتبر البـــاي ممثل سلطة الداي في البايليك. وكان يساعده في مهماته، ديوان محلي يتألف بوجـــه خاص من الخليفة والآغا. كما كان يساعده أيضا خليفتان، الأول كان على اتصـــال دائم بالرعية وهو المكلف بجباية الضرائب، أما الثاني فكان ينوب الباي في

حالة غيابه أو مرضه مما جعله يعرف بخليفة الكرسي[4].

ومـــن أبرز الموظفين المساعدين للباي نذكر الخزندار وهو بمثابة وزير المالية على المســـتوى المحلي حيث أنيط به الإشراف على الشوؤن المالية على مستوى البايليك.

ومن أبرز الذين تولوا هذا المنصب الأسير **تيدينا** Thédénat الذي ترك لنا مذكرات عظيمة الفائدة عن المقاطعة الغربية [5].

أهم البايات :

كـــان أول بـــاي تولى السلطة على رأس المقاطعة الغربية الباي أبو خديجة مثلما أسلفنا ذكره و جاء خلفا له عدد من البايات لا نعرف عنهم سوى الأسماء وهم الباي" **سواق**" والباي "**السايح** " و الباي "**سعد** "[6].. و بعد فترة يسودها الغموض ننـــتقل إلى عهــــد أو فـــترة الباي " **شعبان الزناقي** " وهي فترة نتوفر حولها على معلومات أوفر.

ويمكن القول أنه ابتداء من عهد الباي **شعبان الزناقي** الذي استشهد أثناء محاربته للإسبان و تحديدا أثناء حصاره لمدينة و هران عام 1692م [7] يصبح من اليسير رسم لوحة عن الوضع السياسي الذي شهده بايليك الغرب. ثم جاء خلفا له الباي "**مصطفى أبو الشلاغم بن يوسف بن إسحاق المسراتي** " [8] الذي ينحدر من قبيلة المسارتية وهي قبـــيلة كـــان لها نفوذ وسلطة منذ سنوات مديدة مثلما يخبرنا بذلك المازري : " **..وكان للمسارتية رياسة وعزة كاملة بمسراتة والقلعة وانقطعت بموت محمد بن إسحاق جد أبي الشلاغم...**" [9].

ويـــبدو أن مؤسس الأسرة المسارتية انتقل إلى الجزائر و انخرط في الجيش. وإثر ذلك عين خليفة على بايليك قسنطنية وبعد مدة قضاها هناك انتقل إلى مستغانم و منها إلى القلعة حيث عين أيضا خليفة إلى أن وافته المنية و خلّف ثمانية أولاد.

لكـــن مـــا يهمنا في هذا المقام **مصطفى أبو الشلاغم بن يوسف** الذي كان له الفضـــل في إعادة إحياء نفوذ الأسرة، لقد كان هذا الأخير من رجال السرايا حيث عـــاش في قصر **الداي محمد بكداش** [10]. ونال حظوة خاصة لذا وقع عليه الاختيار ليخلف الباي.

ويظهـــر أن أول عمل أقدم عليه الرجل كان تغيير المقر من مازونة إلى معسكر [11] وكان يتوخى من وراء هذا التغيير إحكام قبضته على القبائل الواقعة بالجنوب والتي عرفت بـــتمردها و عصيانها. على أن أبرز إنجاز حققه الباي **مصطفى أبو شلاغم** كان فتح مديـــنة و هران [12] عام 1708 و لأول مرة منذ مطلع القرن السادس عشر امتدت ســـلطة الباي إلى كامل المقاطعة الغربية. – إذ بعد محاولات عديدة قيض الله فتح و هـــران عـــلى يد ه وأضحت عاصمة للمقاطعة الغربية [13]. لكن الإسبان عملوا على اســـترجاعها و كان لهم ذلك عام 1143 هـــ/1730م. وأخفق الباي **مصطفى أبو شـــلاغم** في رد العدو و أرغم على الخروج من وهران و الاستقرار بمستغانم إلى أن وافـــته المنية. حيث خلفه أخوه **ابن عودة يوسف بن محمد بن اسحاق** عام 1738 لكن ولايته لم تدم أزيد من سنة واحدة إذ توفي بوباء الطاعون عام 1737. ثم تولى الســـلطة أخوه **مصطفى الأحمر** ولم يعمر طويلا في الحكم وتوفي مسموما بمستغانم، فـــآل الأمر إلى أخيه **محمد أبو طالب المجاجي** الذي حكم ما يربو من تسع سنوات وكانـــت نهايته الاغتيال. وخلفه أخوه **مصطفى قائد الذهب** المسراتي المعروف بباي المحال ودامت ولايته نحو ست سنوات وبه يختم عهد المسارتية [14].

وبعـــد عهد المسراتية تعاقب على السلطة عدد من البايات منهم **عثمان باي بن ابراهيم** 1747-1755 ومن أهم مآثره تشييده للجامع الأعظم بمدينة معسكر و الباي **أبو اسحاق ابراهيم المليانى** 1756–1771 والحاج خليل باي 1771- 1778.

وجـــاء خلفا له الباي **محمد الكبير** 1780-1799 [15] و نظرا للمكانة التي تبوأها الباي محمد بن عثمان في تاريخ بايليك الغرب فلا بد من وقفة عند هذا الرجل العظيم.

لقـــد حظـــي الرجل بمؤلفات عديدة نثرية وشعرية [16] خلدت مآثره وعلى وجه التحديد فتح وهران النهائي واسترجاعها من يد الإسبان.

... وفي هـــذا الشأن يقول ابن زرفة صاحب الرحلة القمرية ما يلي : " هذا ولو جمع ما قيل في هذا السيد من الشعر الملحون والموزون لضاقت بجمعه فسايح الدواوين"... [17]

عرف الباي **محمد الكبير** بعدة كنى منها أبو الفتوحات و أبو النصر والمجاهد وهو ينتسب إلى أســـرة كردية، كان والده عثمان الكردي حاكما بمليانة ثم صار بايا عـــلى بايلـــيك التيطري وبعد وفاة والده في إحدى الحملات ضد أولاد نايل تكفل برعايته الباي ابراهيم الذي تولى إدارة البايليك في أعقاب وفاة والده . وحينما تولى هذا الأخير أمر إدارة بايليك الغرب عينه قائدا على فلية عام 1765 ونظرا لما أظهره مـــن قدرة وحنكة في تسيير الأمور وتدبيرها رقاه إلى منصب خليفة الباي وأوكل إليه تسيير وإدارة القسم الشرقي من البايليك[18].

وقد نوهت شهادات عديدة بعظمة الرجل.

لقد وصفه محمد بن يوسف الزياني صاحب دليل الحيران و أنيس السهران قائلا [19]:

"..**محـــبا للعلماء والفضلاء والأدباء...**" وفي موضع آخر قال عنه : "**مشيد الإســـلام والإيمان وباسط مهد العدل والأمان راية الإسلام والإيمان وباسط مهد العـــدل والأمان**"، كما وصفه : "**من عادته رحمه الله انه مهما أشار برأي إلا كان فيه الخير و السداد و غرضه بذلك رفع الضرر عن المسلمين.....**" [20]

ولم ينوه بعظمه الرجل و بخصاله الحميده المسلمون فحسب بل إن المسيحيين هم أيضا نوهــوا بذلك. فالأسير تيدينا "Thédénat" الذي ارتقى إلى منصب وزير المالية- خزدار في عهده يصف هو الآخر خصاله بقوله :

"Doué des deux qualités les plus estimées par les arabes, la générosité et la bravoure il sait se faire aimer, et craindre et établir déjà d'une manière solide les bases d'une réputation ... [21]

أمــا ابن سحنون الراشدي فكتب يقول : "كل هذا و هو يسوس الرعية أحسن سياســة ويدبر أمرها [22]. وفتح فيها قاعدة أهل الصحراء وهي بني الأغواط ... ودخلت تحت طاعته جميع نواحي الصحراء مثل العمور والزناخرة والأرباع وغيرهم ممن لم يدينوا لغيره من الملوك وتمهدت له الصحراء حواضرها والبوادي وازداد بذلك شطر خراج الإيالة السابقة" [23]

وعقب وفاته أسندت إدارة البايليك إلى ابنه **عثمان** لكنه لم يكن في مستوى والده ويظهــر أنه انصرف إلى اللهو وتخلى عن شوؤن البلاد والعباد.. [24] : "ولم يلتفت لما كلفه الله به من أمور الرعية بل جعل ذلك نسيا منسيا بالكلية" ونتيجة لسوء سيرته عزل وتعرضت أملاكه للمصادرة ونفي إلى مدينة البليدة مثلما يذكره. .. وكله قيدا حديدا ونقله إلى البليدة وظل بها إلى أن عين على رأس بايليك قسنطينة".

وخلفــه مصــطفى بن عبد الله العجمي الذي دامت ولايته ثلاث سنوات وبعده آلــت السلطة إلى أسرة الباي محمد الكبير حيث تولاها الباي محمد الملقب بالمقلش الذي واجه التمرد العنيف الذي تزعمه ابن الشريف الدرقاوي وكان هذا سببا في تنحيته حيث تولى السلطة للمرة الثانية الباي مصطفى العجمي لسنة واحدة ثم آلت من جديد إلى عائلة محمد الكبير حيث عين محمد بن عثمان أبوكابوس.

ثم خلفه الباي علي المعروف بالباي علي قارة بغلي عام 1813 وهو سابع بايات وهران وقد تحلى الرجل بصفات وخصال عديدة نوه بها المازري : " **وكان موصوفا بالعقل والرياسة والمعرفة والكياسة"** ودامت ولايته أزيد من عقد مما يعكس استقرار الأوضاع السياسية ورغم ذلك تعرض لسخط الداي الذي عزله.

وكــان آخر بايات وهران الباي **حسن** الذي عاصر أحداث الحملة الفرنسية عام 1830. ولعل أهم ما ميز سياسته العداء الشديد الذي ناصبه للعلماء ورجال الدين. إذ يخبرنا يوسف الزياني أنه في عهده ساد العبث والظلم والاعتداء سيما على العلماء : "**...كــثر عبــث هذا الباي وظلمه وتعديه واجتراؤه على العلماء والأولياء، فأكثر من سفك الدماء في العباد** [25] "

ما رفقوش بالنفوس	يخدموا غير النحوس
ماذا قتلوا من رووس	من ساداتي الصوفية

ويذهــب بعضــهم الى أن الثورة التجانية كانت بمثابة رد فعل عن العداء الذي ناصبه الحكام ضد العلماء والأولياء و على الرغم من أن مسلم بن عبد القادر الذي شــغل منصب باش دفتر (أي رئيس الكتبة) قد أحجم عن الحديث عن موقف الباي حســن فانــنا نستشف ذلك من القصيدة التي نظمها عقب سقوط وانهيار الحكم العثماني في الجزائر.

أدهــم ربهــم لما طغــوا	عرفهم بغــدرهم لما بغوا
فاشتغلوا بالظلم ليس من عدل	فاتخنوا أخذا وبيلا ليس بالمهل [26]

ومما سبق يمكن القول أن السلطة كادت أن تتحول إلى حكم محلي وراثي حيث تداولــت عليها عائلتان بارزتان : العائلة المسارتية من 1699-1748 بخمسة بايات وعائلــة محمــد بن عثمان الكردية ومنها تولى أربعة بايات وهم على التوالي : أبو عــثمان المجــاهد 1780-1799 وعثمان بن محمد عثمان 1799-1802 ثم محمد الملقب بالمقلش 1805-1808 وأخيرا أبو كابوس محمد بن عثمان 1808-1813.

قائمة بأسماء البايات :

الاسم	الفترة الزمنية
الباي أبو خديجة الباي سواق الباي أبو خديجة الباي ساعد	فترة غموض
الباي محمد عيسى	
الباي شعبان الزناقي (استشهد أثناء حصاره لمدينة وهران)	1696
مصطفى أبو الشلاغم بن يوسف	1733-1690
ابن عودة يوسف بن محمد بن اسحاق المسراتي	1734-1733
مصطفى الأحمر المسراتي	1735
محمد أبو طالب المجاجي	1743-1735
مصطفى قائد الذهب المسراتي المعروف بباي المحال	1748-1743
الحاج عثمان باي بن ابراهيم	1755-1748
حسن باي (فر إلى إسطمبول)	1756
أبو اسحاق ابراهيم الملياني	1771-1756
الحاج خليل باي	1779-1771
أبو عثمان المجاهد محمد بن عثمان الكبير	1799-1779
عثمان باي بن محمد عثمان	1802-1799
مصطفى بن عبد الله العجمي	1805-1802
الباي محمد الملقب بالمقلش	1808-1805
الباي مصطفى العجمي (للمرة الثانية)	1809-1808
محمد بن عثمان ابو كابوس	1813-1809
الباي علي المعروف بقرة بغلي	1826-1813
الباي حسن بن موسى	1830-1826

الحاكم :

أما على المستوى الحضري أو على مستوى مجتمع المدينة فإن ابرز وظيفة هي وظيفة الحاكم الذي كانت له مهمات متعددة منها الإشراف على النظام الجبائي وضمان أمن المدينة وكذا النظام الإداري والإقتصادي[28].

ونتطرق فيما يلي إلى أهم الموظفين الذي كان لهم تأثير مباشر على الدواخل. لقد كان يتقاسم الإشراف على البايليك ثلاثة أعوان وهم :

آغا الدواير وآغا الزمالة وخليفة الباي، الذي كانت سلطته تنحصر في منطقة مليانة وجندل نظرا لبعدهما[29]. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الحكام تمتعوا بصلاحيات واسعة في المناطق الخاضعة لنفوذهم بيد أن السلطة العليا بالبايليك ترجع إلى الباي. هذا كما كان للباي إشراف مباشر على بعض القبائل مثل قبائل بني عامر ومجاهر[30]، نظرا لما عرفت به هذه القبائل من شغب وإثارة للقلاقل في وجه العثمانيين بالمنطقة.

الأغوات :

وهم غالبا ما كانوا يختارون من العنصر المحلي على عكس البايات وكانوا يقومون بدور الوساطة بين الباي والأهالي إذ يستمعون إلى شكواهم ثم يعرضونها بدورهم على الباي[31].

وقد حظي أصحاب هذه المناصب بامتيازات مادية عديدة مما جعل منصب الآغاوية في أغلب الأحيان محل منافسة شديدة.

القائد :

كان القائد يختار من طرف الآغا الذي يرشحه، ثم يتم تعيينه من طرف الباي. وكان بمثابة همزة وصل بين القبيلة التي ينصب عليها والموظفين الكبار على مستوى البايليك فهو بذلك يحتل مركز الصدارة في سلم موظفي الإدارة المحلية بالدواخل.

ونظرا لأهمية منصب القائد، كان اختياره يقع من بين الأتراك، وأحيانا أخرى من بين الكراغلة، وذلك تفاديا للصراعات القبلية التي قد تحدث أحيانا[32].

هذا وتمتد سلطة القائد لتشمل عدة قبائل وعروش تؤلف في مجموعها وحدة إدارية محلية تعرف "بالوطن". و تنحصر سلطته أحيانا على مستوى قبيلة كبيرة فقط لتشكل وطنا خاصا بها. ويجدر الذكر أنه في هذه الحالة كثيرا ما كان شيخ القبيلة يجمع بين لقب شيخ القبيلة ولقب قائد "الوطن"[33].

هنا كما نجد الباي أيضا يختار القائد من القبيلة نفسها، و كانت هذه السياسة إحدى الوسائل الناجعة لضمان تعبئة أفراد القبيلة، ذلك أن القبيلة لا تشعر بضغط أجنبي عليها ما دام شيخ القبيلة نفسه يقوم بدور القائد، بل إنه في بعض الأحيان كان يحتفظ باسم "الشيخ"[34]. هذه كانت السياسة الإدارية المعمول بها في المناطق الخاضعة.

أما في الجهات التي لم يصلها نفوذ السلطة المركزية حيث حافظت على استقلالها كان لشيوخها حق التصرف المطلق في شؤونها، وليس عليهم إزاء الحكام سوى تقديم ضريبة رمزية كلما اضطرتهم الظروف إلى ذلك. هذا وكان القائد يتمتع بصلاحيات متعددة، فهو يسهر على مراقبة شيوخ القبائل، ويقوم باستخلاص الضرائب المستحقة على مراقبة على الأمن وتعبئة السكان في حالة الحرب. وكانت للقايد أيضا وظيفة قضائية في الأسواق في كثير من الأحيان[35].

ونستخلص مما سلف ذكره أن للقائد مهام متعددة فوظيفته لها طابع سياسي واقتصادي وقضائي في آن واحد.

شيخ القبيلة :

يعد الشخصية الثانية بعد القائد التي تستدعي الاهتمام ويتم تعيينه من طرف القائد بعد استشارة رؤساء الدواوير وحرصا على الأمن وضمانا لطاعة أفراد القبائل، فإن شيخ القبيلة يختار من القبيلة ذاتها، وغالبا ما يكون من بين العائلات الكبيرة[36].

وتكمن أهميته في كونه يلعب دور الوسيط بين أفراد قبيلته الخاضعين للسلطة من جهة ورجال البايليك من جهة أخرى. ولهذا كان يتحتم عليه لأداء مهامه أن يحظى بثقة الطرفين[37].

كما توكل إلى شيخ القبيلة نفس المهام التي يقوم بها القائد وهي: جباية الضرائب والسهر على الأمن العام وإعداد الفرق العسكرية التي تساعد فرق الجيش الإنكشاري[38].

ولعل أهم الوظائف التي يقوم بها شيخ القبيلة هي تقسيم الأراضي والحرص على استغلالها، هذا كله تحت مراقبة مشددة من طرف القائد.

قائد الدوار :

يلي شيخ القبيلة، وهو كما يفهم من لقبه، له صلاحيات محدودة إذ لا تتجاوز نطاق الدوار ولا تتعدى السكان الذين ينتمون إليه[39]

السلطة المحلية وعلاقتها بسكان الريف الوهراني :

لعل أحسن طريقة لتناول علاقة سكان الريف بالبايليك هي التعرض للتنظيم الاجتماعي الذي فرضته السلطات الحاكمة على السكان كي يتسنى للنظام الحاكم الهيمنة الفعلية على البلاد، قسم السكان إلى مجموعتين متمايزتين بل متناقضتين في شتى المجالات وهي: قبائل الرعية[14] وقبائل المخزن[40].

قبائل الرعية :

وهي القبائل التي كانت خاضعة للسلطة الفعلية مباشرة، وتكانت تتحمل وحدها : الضرر المخزني"[41]، وتسلط عليها مختلف أنواع الضرائب.

قبائل المخزن : وهي القبائل المحظوظة والمتحالفة مع السلطة، وكانت تتمتع بامتيازات عديدة مقابل التزامات وخدمات تؤديها للسلطة[42]. ويعرفها سعيدوني بأنها قبائل اصطناعية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القبائل كانت تتميز عن بعضها نظرا لتعدد وتنوع الخدمات ويمكن تميز الجماعات التالية :

وهي جماعات منحت بعض الاقتطاعات عرفت "جماعة الإقطاعين" (Apanagistes) والتي تسلمها بدورها إلى قبائل أخرى وهو ما يعرف بنظام الخماسة.

وضمن قبائل المخزن نجد مجموعة المخازنية، أو ما يمكن تسميته بالجيش الريفي وكانت تحظى بحق استغلال الأراضي مع إعفائها من الضرائب مقابل تأديتها للخدمات العسكرية.

ويضاف إلى المجموعتين السالفتي الذكر، عناصر أخرى كانت تتمتع بامتيازات محدودة. وعلى الرغم من الفروق التي نلاحظها بين فئات الصنف الواحد، فإن تصنيفها ضمن قبائل المخزن كان يضمن لها ثقة السلطة وجعلها في مأمن من الحملات العسكرية والضغوط المتنوعة التي كانت قبائل الرعية عرضة لها [43].

وتبرز هذه الفروق بصفة جلية في بايليك الغرب، إذ نجد المخزن ينقسم إلى "مخزن أعلى" أو "المخزن الكبير" وإلى مخزن أسفل أو المخزن الصغير [44]. ويضم الصنف الأول، بوجه خاصة قبائل "الدواير" و"الزمالة" وهي دون غيرها تتمتع بكامل الصلاحيات، بينما يضم الصنف الثاني عددا كبيرا من القبائل غير أنها ليست في خدمة السلطة بصفة دائمة، إذ لا تستدعى إلا عند الحاجة للقيام ببعض الخدمات العسكرية. ومن بين القبائل التي كان يتشكل منها المخزن الصغير نذكر قبائل الغرابة والبرجية وبني شقران وسجرارة والمكاحلية وعكرمة والحشم [45].

وينبغي الإشارة في هذا الصدد، إلى أن عدد القبائل التي تشكل المخزن كان غير ثابت بل كان يخضع لسياسة البايات من جهة ولموقف القبائل من جهة أخرى ولعل أحسن مثال على ذلك، قبيلة الحشم التي لم تصبح ضمن قبائل المخزن إلا منذ سنة 1790، أي

في عهد الباي محمد الكبير الذي ضمها إلى مخزنه كما فعل مع عدة قبائل كالبرجية وذلك للنفوذ والقوة التي كانت تتمتع بها[46]. غير أن الذي يبدو أهم بكثير من تعريف هذه القبائل، والتعرض إلى تشكيلتها هو دورها، فما هو دور قبائل المخزن إذن ؟

كانت الوظيفة الرئيسة لقبائل المخزن تتمثل في ضمان الأمن في البلاد، و يتضح هذا من نقاط تمركزها إذ غالبا ما كانت تتواجد قرب الأسواق الجهوية وفي الطرق الثانوية منها والرئيسية، وهي الطرق السلطانية التي تربط مقر البايليك أي الجزائربأهم المدن الأخرى مثل وهران وقسنطينة والمدية.

ففي الطريق السلطاني الرابط بين الجزائر ووهران نجد قبائل المخزن مرابطة بنقاط عديدة. إذ تتمركز قبيلة بوحلوان بالقرب من مليانة وأولاد الصحاري قرب سد شلف، وقبيلة بني يحي قرب وادي الروينة. أما قبيلة الزمالة فقد كانت تتواجد عند ملتقى وادي إسلي وتتمركز أيضا مع قبيلة العزارة عند ملتقى وادي رهيو [47].

أما في الطريق الثانوي الرابط بين وهران ومعسكر فإنها كانت موزعة على النحو التالي:
ففي سهل التلاتة نجد قبيلة الخزناجية، بينما الأوكلة مرابطة في غابة مولاي اسماعيل، والفراقة على نهر سيق و وادي الحمام [48]. أي أنها كانت تتواجد بصفة خاصة في المواقع الحساسة. ففي بايليك الغرب كانت تتمركز في المناطق المهددة بهجومات الاسبان وغارات المغاربة، ومن ثمة لقد استعملت أساسا لردع ومقاومة الخطر الأجنبي. أما بعد سنة 1792، تاريخ الانسحاب النهائي للاسبان فإن الدور الرئيسي لقبائل المخزن انحصر في مقاومة القبائل الثائرة والمستعصية وفي إخماد الثورات التي اشتدت وطأتها على الناحية الغربية بصفة خاصة والتي تزعمتها الطرق الصوفية [49].

و فيما يلي جدول توضيحي يبرز الطابع المخزني العسكري لبايليك الغرب [50]

طبيعة العلاقة	دار السلطان	بايليك التيطري	بايليك الغرب	بايليك قسنطينة
قبائل مخزنية محاربة	19	09	36	25
مخزنية غير محاربة		05	10	22
قبائل الرعية	11	23	56	14
قبائل حليفة ومتعاونة	20	12	29	25
قبائل مستقلة	23	13	26	138

إن قراءة بسيطة لهذا الجدول تبين الصبغة العسكرية لبايليك الغرب إذ تمركزت به ست وأربعون قبيلة مخزنية من بينها ست وثلاثون محاربة أي بنسبة 26، 78 %بينما لم يتجاوز عدد القبائل المحاربة على سبيل المثال في بايليك التيطري تسعا. ويستنتج من نقاط تواجدها أنها كانت موزعة في كامل أنحاء البلاد [51] بطريقة محكمة استهدفت إحكام قبضتها على سائر المناطق.

ومما لاشك فيه أن قبائل المخزن قد أدت دور الشرطة بكل يقظة وكانت أنجع الأساليب في تدعيم الحكم العثماني بالمنطقة. ولهذا اعتبر كثير من مؤرخي هذه الفترة أن قوة الوجود العثماني كانت تكمن في الاستناد إلى هذه المؤسسة [52].

ونتساءل بعد هذا حول الأسباب التي دفعت الحكام إلى انتهاج هذا الأسلوب في إدارة السكان. لقد استند العثمانيون على هذه المؤسسة لعوامل عدة لعل أهمها :

انعدام الدعم المادي من الباب العالي وقلة الدعم العسكري.

إن العدد الضئيل الذي لم يتجاوز في القرن السابع عشر ثلاثين ألفا، لم يسمح بالسيطرة على كامل أنحاء البلاد.

ومما لا شك فيه أن اتخاذ هذا النوع من النظام لم يكن نتيجة ظروف مادية صعبة فحسب، بل هناك أبعاد أخرى نلمسها من طبيعة الوجود نفسه بالمنطقة، الذي تميز بالحكم غير المباشر.

عواصم البايليك :

لا شك أن إحدى الخصائص التي انفرد بها بايليك الغرب هي عدم ثبات واستقرار عاصمته، وهو أمر تحكمت فيه الأوضاع السياسية والعسكرية المرتبطة بالاحتلال الأسباني للموانئ الغربية وتحديدا وهران و المرسي الكبير.

لقد أضحت مازونة عاصمة للبايليك ابتداء من 1563 على ما يبدو وكان الاختيار استراتيجيا نظرا لموقعها الوسطي فهي تتوسط القبائل ما بين مستغانم وتنس و هي أيضا على مقربة من الشلف لكنه مع مطلع القرن الثامن عشر اتخذ الباي مصطفى أبو الشلاغم مدينة معسكر عاصمة للبايليك. ويعود اختيارها، إلى أهميتها الاستراتيجية نظرا لتحكمها في المسالك التجارية من ناحية ولتمركز قبائل بني راشد، التي عرفت بتعاونها مع السلطة الحاكمة بالقرب منها، يضاف إلى هذا موقعها القريب من وهران و هو أمر يسر لباياتها محاصرة وهران..

وعقب الفتح الأول لمدينة وهران في عهد الباي مصطفى أبو الشلاغم المعاصر للداي محمد بكداش انتقل مركز السلطة إلى وهران (1708 –1732) لكنه على أثر استرجاع الإسبان لها تحولت العاصمة إلى مستغانم لفترة وجيزة (1732-1737) ثم انتقلت قاعدة البايليك إلى معسكر (1737-1792) ".... و جعلها قاعدته لكونها وسطا بين مازونة و تلمسان..... " وأخيرا انتقل مقر البايليك بصفة نهائية إلى مدينة وهران بعد الفتح النهائي الذي كان على يد الباي محمد الكبير أبرز بايات الناحية الغربية.

رحلة الدنوش [53] : بين البايات والدايات

لقد كان البايات يقومون مرة كل ثلاث سنوات برحلة الدنوش إلى مدينة الجزائر حيث مقر الإمارة. **"إن البايات كانوا يدنشون كل ثلاث سنين"** [54]. لقد كان حضور البايات شخصيا مطلوبا لدفع محصول الضرائب ولتقديم فروض الولاء للأمير وبالمقابل لاستلام الخلعة ونيل تجديد التعيين **" فهي رحلة الولاء والتزكية "** [55]. لكن أصول هذه الممارسة ليست معروفة على وجه التحديد. فالمصادر المحلية منها والأجنبية العائدة إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر تخلو من أية أشارة إلى الدنوش رغم تعرض بعضها إلى مصادر دخل الخزينة وإلى طبيعة الضرائب وأنواعها فالأسير الاسباني هايدو الذي تعرض إلى الضرائب التي كان يقوم بجباياتها شيوخ القبائل عن طريق نظام الالتزام والى جانب ذلك أشار إلى ما كان يقدمه القياد وحكام المقاطعات (البايات) سنويا إلى الخزينة لم يذكر مصطلح الدنوش[56].

وفي العشرينات من القرن السابع عشر أشار مصدر برتغالي إلى الضرائب نفسها ورغم تسجيله لملاحظتين : أولهما تخص تبعية القياد والحكام للباشا وثانيهما تخص لجوء الحكام، في جباية الضرائب وتحصيلها، إلى قوة عسكرية قوامها 700 تركي، فأنه هو الآخر لم يتحدث عن رحلة الدنوش[57]. إلا أنه ثمة إشارة إلى مؤسسة المحلة، والمحلة كمؤسسة عسكرية، سابقة للعثمانيين مثلما أكدته دراسات عديدة[58].

ويمكن القول أن رحلة الدنوش كظاهرة سياسية واجتماعية على النحو التي وصفها الزهار في أواخر القرن الثامن عشر لم تكن سائدة قبل منتصف القرن الثامن عشر مما يحملنا إلى الاعتقاد بأنها ليست تقليدا محليا موروثا.

لقد كانت الرحلة مناسبة للباي لإظهار القوة وعظمة السلطة، فمنذ انطلاق الموكب تبدأ عملية استعراض "بهة الملك والسلطة" مثلما يبدو جليا في الطقوس والمراسيم التي كانت تصاحب انطلاق الموكب، بل وكانت ترافقه عبر مسار الرحلة وتختلف محطاتها. وفي هذا الشأن يقول الزهار واصفا دنوش الباي محمد الكبير :

" ... خرج من معسكر وقومه يلعبون بالسلاح بين يديه ويضربون البارود والصناجق ترفرف والطبول تدق حوله ... " [59]

كما كانت الرحلة فرصة للبايات للقيام بجولات في كامل المجال الخاضع لهم، قصد جباية الضرائب والاتصال بالرعية. وكانت أيضا فرصة لمد النفوذ وتعزيزه، ولإخضاع القبائل المستعصية. فحيثما كان الباي يحل كانت تقام له خيمة وتحاط بهالة من الفرسان وهي نفسها مطوقة بدائرة من المشاة[60].

خضعت رحلة الدنوش لمراسيم وتشريفات في غاية الدقة شملت جل المراحل من بداية جمع محاصيل الضريبة وتجهيز للموكب إلى غاية دخول دار السلطان، بل دخول دار الإمارة حيث يتم اللقاء بين الداي "الأمير الحاكم" و"الباي التابع" فحينما يصل الباي إلى مجال الأمير يستقبله الآغا بموضع قبل بوفاريك يقال له **"عيون الشعر"** ويسلمه هدية الأمير[61]. وهي هدية ترمز إلى السلطة وهيبتها وقوتها، إذ تشتمل على فرس وسرج ومسدسين من الذهب وسيف وبندقية.ثم تليها مرحلة **عين الربط** وهي آخر مرحلة قبل دخول المدينة وهنا يتلقى الإذن بالدخول إلى المدينة بواسطة وفد يتشكل من الآغا و الخزناجي و الخزندار[62].

وكان يوم دخول البايات، إلى مدينة الجزائر لملاقاة الأمير، يوما مشهودا حيث يقوم البايات بتوزيع الأموال على سكان المدينة المحتشدين سيما الفقراء منهم: **" ...وهو يرمي الدراهم في الزقاق يمينا وشمالا للفقراء وغيرهم ..."**[63]

وكان البايات يأتون محملين بكنوز ثمينة مصطحبين معهم جيشهم وحاشيتهم، ويخبرنا الزهار أن الباي محمد الكبير حمل معه هدايا ضخمة وفاخرة : **"... وجاء معه بتحف وأموال وهدايا كثيرة من الخيل العتاق والعبيد والمصوغ والأثاث الفاخر** ... "ويضيف الزهار" : **"أربعين بغلة على كل بغلة ألف ريال ، وأربعين فرسا من الخيل الموسومة وأقفاصا فيها السباع والنمرة ؟كلها للبايليك "**[64]

فمكونات الدنوش تشتمل على الهدايا والضرائب التي كانت تتشكل أساسا من الزكاة واللزمة. وكانت الهدايا والعطاءات والعوائد توزع على الأمير" وحاشيته من وزراء ووجهاء وعلى قادة الجيش وعلى موظفي القصر من كتاب وشواش وغيرهم[65] وتنتهي رحلة الدنوش التي كانت تستغرق ثمانية أيام بلقاء أخير بين الداي والباي في الليلة السابعة حيث **"يوصيه الأمير بالرعية خيرا ويوصيه على أمور بيت مال المسلمين"**[66]

ولاشك أن هذا اللقاء الذي يبدو حاسما لم يكن في أهمية لقاء تبادل الهدايا بين الأمير والباي.

لقد كانت رحلة الدنوش في غاية الأهمية والخطورة ففيها كان يتم دفع محصول الضرائب وتقديم الهدايا ومن خلالها تقديم ا لولاء للأمير وكان يقابل ذلك تجديد الباي في سلطته ومنصبه إذا حظي برضا الأمير حيث تسلم له الخلعة السلطانية في بداية اللقاء وتسلم له قنضورة من الذهب عند نهايته. وأما إذا لم ينل ذلك فإنه يتعرض للسخط والعزل والتنحية مثلما حدث في عهد الداي حسن باشا...

الهوامش :

1- Boyer (P) : Beys et beyliks, essai sur les origines de l'administration provinciale dans la régence d'Alger, p166.

2. حسن بن خير الدين أحد بيلربايات الجزائر حكم ثلاث مرات.

3- Boyer : Beys et beyliks, Op. cit , p166.

*. في العهد الأول تم فسح المجال إلى الكراغلة لكن على نطاق ضيق.

4- Bontems, Manuel des institutions algériennes, p54.

5- EMERIT M, Les Aventures de thédénat esclave et mninistre d'un Bey d'Afrique, Revue Africaine, 1948, p25.

6. مسلم بن عبد القادر، خاتمة أنيس الغريب و المسافر، تحقيق و تقديم رابح بونار، الجزائر 1976، ص 18.

7. نفسه.

8. نفسه.

9. المزاري طلوع سعد السعود، تحقيق و تقديم يحي بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الجزء الأول، ص277.

10. حول الموضوع، انظر: محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم، الجزائر 1972.

11. نفسه.

12. نفسه.

13. نفسه.

14. أنظر مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب، سبق ذكره، ص20.

15. انظر :

GORGUOS A , Notice sur le Bey d'Oran Mohamed Elkebir , Revue Africaine, 1857.

16. من بينها دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران والثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار.

17. مصطفى بن عبد الله بن زرقة الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائر.

19. أحمد بن يوسف الزياني : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر، شركة النشر والتوزيع، 1979، ص190.

20. نفسه

21- EMERIT M, Les Aventures de thédénat Op. cit p 25.

22. ابن سحنون : الثغر الجماني، ص 135.

23. مصطفى بن عبد الله بن زرقة الرحلة القمرية، سبق ذكره.

24. أنظر مسلم بن عبد القادر والمزاري.

25. أحمد بن يوسف الزياني : دليل الحيران، سبق ذكره، ص 239.

26. نفسه.

27. نفسه.

28. Bontems, Op cit, p 57-58.

29. نفسه.

30. نفسه.

31- Boudicourt, la guerre et le gouvernement,Op.cit,p276.

32. Rinn L Le royaume d'Alger sous le dernier Dey, Revue Africaine, 1898

33. نفسه.

34. Bodin (M) : la breve chronique du bey Hassan extraite et traduite de Tal'at – Sàd isso'oud de Mazari BSGAO T44, 1924.p30

35. Boudicourt (L) : la guerre et le gouvernement de l'Algerie, p274.

36. Ibid

37. Ibid, p272.

38. Bontems : Op.cit, p60.

39. ibidem.

40. احمد بن يوسف الزياني، سبق ذكره.

41. Rinn : Op.cit, p 127.

42. Ibid

43-Emerit (M) : les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX19 siècle-Boutems, op.cit.p54. Annales, E.S.C, Jan-fev1966.n°1p49.

44. لقد تعرض لهذه الفترة أيضا : بوديكور، ومحمد بن يوسف الزياني...الخ

45- Dejardins(V) : "la commune de dublineau"in B.S.G.A.O.T 73. 1950-20. pp42- 43.

46 - Notice sur la division territoriale de l'Algérie, in T.E.F.21

1844-45, p390

47- Ibid, p391.

48. سعيدوني ناصر الدين، دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايليك بالجزائر، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

49. الثورات المحلية التي تزعمتها الطريقة الدرقاوية، ففي بايليك الغرب ثار محمد بن الشريف الزرقاوي، وفي بايليك الشرق ثار ابن الأحرش. حول الموضوع راجع :

- الغربي الغالي، الانتفاضات الشعبية في الجزائر أواخر العهد العثماني، ماجستير، دمشق، 1984.
- سعيدوني ناصر الدين، ثورة ابن الأحرش بين التمرد المحلي والانتفاضة الشعبية، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

50. أعد هذا الجدول بناء على المعطيات التي أوردها "رين" في المجلة الإفريقية.

51. سعيدوني، ورقات جزائرية، سبق ذكره، ص268.

52. من هؤلاء برد يكور، رين و غيرهم.

53 الدنوش كلمة تركية وتعني العودة.

54 أحمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق وتقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 63.

55 فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، ص 99

56 HAEDO, FD, Topographie, p 94.

الفصل الخامس

الأوقـــاف

[57] MASCARENAS, J, Récit de captivité de Jao Mascarenas 1621-1626, Traduit du portugais et présenté par Paul Tessier, Chandeigne, Paris, 1993, p 94.

[58] حظي موضوع المحلة في بلاد المغرب بدراسات عديدة نذكر منها :

CHATER, K Insurrection et repression dans la Tunisie du XIX siècle, La Mahalla de Zarrouk au sahel, Université de Tunis, 1978.

DAKHLIA, J . « La symbolique du pouvoir itinérant au Maghreb «A.E.SC, 1988. pp735 - 760.

- الباحث التونسي محمد الحبيب العزيزي بصدد إعداد أطروحة في موضوع المحلة : ظاهرة الحكم المتجوّل في بلاد المغرب العربي الحديث : المحلة التونسية نموذجا.

[59] الزهار، مذكرات، سبق ذكره ، ص36.

[60] خوجة، حمدان بن عثمان، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 102.

[61] الزهار، مذكرات، سبق ذكره ، ص 36.

[62] المرجع السابق، ص 38

[63] المرجع السابق، ص38

[64] المرجع السابق، ص 36.

[65] المرجع السابق، ص 40-39 وما بعدها.

[66] الزهار، مذكرات، سبق ذكره، ص 46.

إعداد الأستاذة عائشة غطاس

يعـود تأسيس الأوقاف لصالح الحرمين الشريفين في الجزائر إلى العهد الإسلامي الأول، بيد أننا لا نعرف أهميتها ولا كيفية تسييرها وإذا كنا نفتقر إلى معطيات دقيقة حـول الأوقاف التي خصصت في الجزائر للحرمـين الشريفين فـي الفترة السابقة للوجـود العـثماني فإنـه من المؤكد أنها وجدت. وعن أصولها كتبت هوكستر Hoexter ما نصه :

"Indeed, endowments for the poor of the Haramayn- Mecca and Médina may have been as old as Islam in Algiers However we have no knowledge about their nature, their quantity or the way they were run in those early days"[1]

أمـا في الفترة الحديثة وهي الفترة التي تزامنت مع الوجود العثماني فقد تكاثرت الأوقـاف بشـكل مـثير للانتـباه. وأضحت مؤسسة الأوقاف بوجه عام إحدى المؤسسـات الهامة من حيث إسهامها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل والإدارية أيضا، وأضحى تسيير المدن الكبرى مرتبطا أشد الارتباط بها[2].

إن تنظـيم الأوقـاف الخاصة بمرجع الحرمين الشريفين بالجزائر ليس معروفا على وجـه الـتحديد بحيث لا نعرف مثلا متى أضحت المدينتان مكة المكرمة و المدينة المنورة ، تنتفعان بعائدات الأوقاف المخصصة لهما. ورغم هذه الملاحظة إلا أنه يمكن القـول – بالاسـتناد إلى أحـد أقدم الدفاتر المتعلقة بحسابات كراء الأوقـاف المـخصصة لمرجع الحرمين الشريفين يعود إلى عامي 1648- 1649 – أن تأسيسها سابق لمطلع القرن السابع عشر[3].

احتلـت مؤسسـة أوقـاف الحرمين الشريفين الصدارة على باقي مؤسسات الأوقاف القائمة بالجزائر وقتئذ كمؤسسة الجامع الأعظم و مؤسسة سبل الخيرات، ومؤسسـة العيون و غيرها. ويظهر ذلك جليا من الكم الهائل من الوثائق العائدة إلى تلـك الفـترة. إذ تفيض عقود سجلات المحاكم الشرعية لمدينة الجزائر على سبيل المـثال، بعقـود التحبـيس الذرية أو الأهلية "أي الحبس على العقب" التي حددت مـرجعها الأخير لمؤسسة الحرمين الشريفين .كما تضم سلسلة سجلات البايليك، عـددا هـائلا من الدفاتر الخاصة بأوقاف الحرمين الشريفين مما يسمح بالقول أن مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين فازت بأهم قسط من العقارات الموقوفة[4].

هذا وقد لاحظ **"فيليب فالير"** -قنصل فرنسا بالجزائر أواخر القرن الثامن عشر- مدى اتساع و انتشار أوقاف الحرمين الشريفين حيث كتب ما نصه : " ...... إن **أوقاف الحرمين واسعة الانتشار بمدينة الجزائر وسيأتي اليوم الذي ستستحوذ فيه مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين على جمـيع العقارات** ... "

وأضاف : " ... **و تكاد تكون جميع دور المدينة و البساتين المنتشرة بضواحيها تابعـة لمرجع الحرمين** ... "[5]. وقد ذكر دوفو DEVOULX الذي اشتغل لسنوات طوال في الوثائق الجزائرية أن مؤسسة الحرمين الشريفين استحوذت على ثلاثة أرباع الأمـلاك الموقوفـة في الجزائر[6]. و لم تكن تلك الممارسة مقصورة على مدينة دون أخـرى، فالظاهـرة نفسها شهدتها معظم المدن كشرشال والبليدة ومليانة والمدية وتلمسان وقسنطينة ومستغانم ووهران وغيرها من المدن .

وفي الواقـع لقد عرفت ممارسة الوقف ابتداء من القرن الثامن عشر انتشارا واسعا وانعكـس ذلـك على مختلف مؤسسات الأوقاف القائمة بالجزائر فأوقاف الجامع الأعظـم هي الأخرى شهدت تكاثرا واضحا وهو ما سجله التميمي حيث كتب ما

الأعظم هي الأخرى شهدت تكاثرا واضحا وهو ما سجله التميمي حيث كتب ما نصه : " ... **إن هناك خطا تصاعديا لعملية التحبيس ففي حين تم تسجيل 159 عقدا باسم الجامع الأعظم خلال 210 سنوات التالية : من 1540 إلى 1750 نلاحظ من جهة أخرى تأسيس 384 وقفية خلال الفترة الممتدة من 1750 إلى 1841 وعلى الخصوص تأسيس 227 وقفية خلال أواخر حكم الدايات...** " [7]

وإنه لمن الأهمية بما كان الإشارة إلى أن ظاهرة الوقف شهدت تطورا ملحوظا إبان القرن الثامن عشر في الفضاء العثماني بوجه عام[8].

وبالإضافة إلى الإقبال الواسع على عملية التحبيس أو الوقف فإن المشرفين على مؤسسات الأوقاف عملوا على تطويرها، من خلال إضافة عقارات عن طريق الشراء. وقد صادفتنا في هذا الشأن عدة حالات في سجلات المحاكم الشرعية[9] وفي دفاتر البايليك ونذكر على سبيل المثال لا الحصر شراء وكلاء الحرمين عام 1613 م كوشة بسويقة سيدي محمد الشريف. كما اشترى الوكلاء أيضا عام 1673 م كوشة بحومة باب الوادي وجاء في نص العقد مايلي : "... اشترى الكرام وكلاء الحرمين الشريفين جميع الكوشة المعدة لطبخ خبز الانجشايرية اللصيقة بالحمام المسماة لباب الوادي الشهيرة بكوشة القبطان محمد جلبي ودفعوا ثمنها من المال المتحصل عليه من ريع الأوقاف واشهدوا أن ابتياعهم إنما هو لجانب الحرمين الشريفين ولاحق لهم لا في ثمن ولا في مثمون و وقع ذلك بتاريخ أواخر صفر 1084 ..."[10]. ويظهر من هذين المثالين أن وكلاء أوقاف الحرمين حرصوا على شراء المحلات التجارية التي توفر الربح الوفير.

المساهمون في أوقاف الحرمين الشريفين :

لم يكن مجال الوقف مقصورا على شريحة دون الأخرى إذ أسهمت فيه جميع شرائح المجتمع من الخاصة إلى العامة على حد سواء [11]. ولأخذ فكرة أكثر شمولية عن المساهمين في أوقاف الحرمين استندنا إلى دفتر يعود إلى أوائل الاحتلال، وهو

عبارة عن جرد وإحصاء للعقارات الموقوفة و التي حددت مرجعها مؤسسة الحرمين الشريفين. يشتمل الدفتر على واحد وخمسين وستمائة عقد توزعت على سبع عشرة حومة وهي : حومة قاع السور وحومة جامع صفر وحومة حمام المالح وحومة باب السوق وحومة الرحبة القديمة وحومة حوانيت بن رابحة وحومة سويقة عمور وحومة القصبة وحومة سيدي محمد الشريف وحومة بن جاور علي، وحومة مسيد الغولة ومدفع جربة وحومة كوشة بولعبة وحومة جامع البلاط وحومة عين مراد قورصو وحومة كوشة اسكندر وحومة كوشة علي[12].

تبرز دراسة الدفتر أن المساهمين في مجال الوقف كانوا من شرائح مختلفة فهناك الحكام والموظفون السامون وموظفو الإدارة المحلية. ومن بين الحكام نشير إلى الحاج محمد الدولاتلي بن محمود[13] الذي أوقف دارا وعلويا 1677 والداي حسن باشا [14] عام 1085 والداي علي باشا عام 1716[15] والداي عبدي باشا[16] عام 1729 والداي إبراهيم باشا بن رمضان[17] عام 1740 والداي مصطفى باشا [18] عام 1800 وفيما يلي جدول يلخص ما أوقفته الحكام لصالح الحرمين الشريفين [19].

السنة	الاسم	طبيعة الوقف	الموقع
1674	حسن باشا	دار	باب السوق
1675	الحاج محمد التريكي	دار + مصرية	باب السوق
1678	الحاج محمد التريكي	علوي وإسطبل	باب السوق
1717	علي باشا	دار + مخزن	باب السوق
1730	عبدي باشا	علوي	سويقة عمور
1741	إبراهيم باشا	دار	حوانيت بن رابحة
1760	علي باشا	دار	كوشة علي
1765	علي باشا	دار	كوشة علي
1800	مصطفى باشا	دويرة	باب السوق
1800	مصطفى باشا	دار + مخزن	باب السوق

يبدو من الجدول أن ما أوقفه الحكام لا يعكس ثروة عقارية هامة إذ اقتصرت معظم الوقفيات على عقار واحد وفي الواقع لا يعد ما ورد في الجدول حصرا شاملا لأوقاف الحكام. كما أسهم في ذلك أيضا الموظفون سواء على مستوى الإدارة المركزية أو المحلية ونشير على سبيل المثال لا الحصر إلى علي آغا الصبايحية عام 1760 وابراهيم بلكباشي الخزناجي عام 1730 وعمر خوجة الخيل عام 1805. كما نجد عددا من البايات مثل الباي ابراهيم عام 1768 وأحمد باي قسنطينة عام 1767.

هذا وتطلعنا عقود المحاكم الشرعية بأسماء بايات آخرين كبايات التيطري مثل مصطفى باي 1781 وجعفر باي 1820 ...[20]

كما أسهمت في أوقاف الحرمين الشريفين مختلف شرائح المجتمع من حضر وأتراك وكراغلة وغيرهم مثلما توحي به الأسماء والألقاب المهنية أحيانا حيث نقرأ مثلا محمد خوجة التركي بن مصطفى ومصطفى الانكشاري بن محمد مترول آغا وحسين الخزناجي بن علي ومحمد الصابونجي بن مخلوف والرايس حميدو بن علي [21].

ومـن النساء اللواتي أسهمن في تأسيس الأوقاف لصالح الحرمين في وقت مبكر، استنادا إلى الدفتر السالف الذكر نشير إلى فاطمة بنت محمد الشنسوني عام 1622 وفاطمة بينت محمد الفهري عام 1645 وآمنة زوجة علي بن محمد 1645 وعائشة بنت حسن رئيس عام 1656 وفاطمة بنت محمد الأندلسي عام 1666. ويلاحظ أن السيدة عائشة بنت حسن رئيس أسست عام 1658 وقفا خيريا منذ البداية لصالح مرجع الحرمين. واشتمل الوقف على ما نابها من الميراث مثلما جاء في الوثيقة:

" ... حبست الولية ... جميع الربع الواحد من الدار الكاينة بباب السوق مع الربع أيضا من جميع العلوي والإسطبل المستخرجين منها ... حبست جميع ما ذكر على فقراء الحرمين ... وأذنت لهم في حوز ما ذكر إذنا تما فحازه وكيل أوقاف المذكورين حوزا تاما بتاريخ أواخر حجة 1067 ... " [22].

ولإبراز إسهام النساء في أوقاف الحرمين الشريفين قمنا باستقراء عقود الأوقاف الخاصة بثلاث حومات.

الحومة	مجموع الوقفيات	عدد وقفيات الرجال	عدد وقفيات النساء	النسبة المئوية
سويقة عمور	62	50	12	٪19.35
جامع صفر	34	19	15	٪ 44.11
كوشة اسكندر	17	14	03	٪ 17.64

أمـا عن طبيعة الأوقاف التابعة لمؤسسة الحرمين فيمكن الحديث عن الأملاك العقارية بالمدن من دور محلات سكن و من حوانيت وأفران وحمامات وفنادق أي محـلات تجاريـة وغيرهـا. وأما خارج المدن فنجد الضيعات والحدائق الجنان والمساحات الزراعية.

ولقـد أعدت عدة تقديرات تخص العقارات الموقوفة بمدينة الجزائر لصالح الحرمين إذ أورد بلونديل "Blondel" في تقرير مؤرخ في 22 أوت 1831 عدد 1400،[23] أما تقارير اللجنة الإفريقية فقد قدرها بـ 2101 عام 1834[24].

تسيير مؤسسة أوقاف الحرمين وإدارتها :

إن مؤسسات الأوقاف كانت عبارة عن أجهزة إدارية قائمة بذاتها ولكل مؤسسة إدارتها الخاصة وتتمتع باستقلال عن الأخرى. وكانت تحتل موقعا إداريا واقتصاديا واجتماعيا هاما [25]. فمؤسسة أوقاف الجامع الأعظم لها إدارتها، ومؤسسة سبل الخيرات لها إدارتها ومؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين لها إدارتها. ويظهر أن الجانب

التنظيمي لهذه المؤسسات لم تكتمل صورته إلا بمرور الوقت ونتيجة تطور وتزايد الأوقاف المخصصة لكل مرجع. ففيما يتعلق بأوقاف الحرمين الشريفين تعود أقدم الإشارات إلى الهيئة المشرفة عليها إلى سنتي 1635 و 1636، إذ تشير الوثائق إلى هيئة مكلفة بشؤون مكة وكانت تضم وقتئذ أربعة أعضاء : اثنان من الجند برتبة آغا، هما : الحاج ناصف آغا بن عيواز و خليل آغا بن علي التركي، واثنان آخران وهما الحاج حمودة بن مروان الشريف والحاج بن علي ووقع تعيينهم من قبل الديوان الذي تنعته الوثيقة "بالديوان المنصور" [26].

وابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر أضحى تسيير مؤسسة الحرمين أكثر تنظيما ودقة مما كان الحال عليه في السالف.

ويمكن القول أن الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين منذ بداية تأسيسها إلى غاية العشرينات من القرن الثامن عشر كانت تشرف عليها هيئة تراوح عدد أعضائها ما بين أربعة إلى ستة أعضاء. وكانت المهمة التي أنيطت بها هي الإشراف على شؤون مكة. وعلى الرغم من وجود منصب "الوكيل"، فإنه يبدو من الوثائق سيما من محاضر توزيع حصص الصدقة بهيئة المجلس العلمي أن إدارة و تسيير مؤسسة أوقاف الحرمين كانت جماعية بحيث يرد في الوثائق عدد من النظار دون أي تميز بينهم [27]. وكانت الهيئة المشرفة على إدارة و تسيير أوقاف الحرمين تضم عددا كبيرا من الموظفين . يتصدرهم الوكلاء، ويليهم اثنان من العدول يعينهم القاضي لمساعدة الوكلاء والنظار. أما المشرف على الحسابات فيدعى الصايجي أو العداد. وبالإضافة إلى ذلك هناك عدد من الشواش يتصدرهم باش شاوش. وكان الشواش يسهرون على مراقبة الممتلكات الموقوفة لصالح الحرمين، ومراقبة المداخيل [28].

وابتداء من النصف الأول من القرن الثامن عشر أضحى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين يحظى بمكانة مميزة نظرا لاتساع مجال الوقف لصالح المرجع المذكور

وتكاثر عائداته. وكانت للوكيل مهمات عديدة و متنوعة أهمها التكفل بحماية ورعاية الممتلكات العائدة للمؤسسة. إذ تعود إليه مراقبة عائدات الأوقاف ودفاتر الحسابات والإشراف على وجوه الإنفاق [29]. ويتبين من دراسة دفاتر الأوقاف، أن مؤسسة الحرمين كانت بمثابة مؤسسة إدارية مستقلة لها صلاحياتها فهناك ضبط ودقة في إحصاء العقارات وفي ضبط الواردات والنفقات واستغلال أموال الأوقاف وتنميتها بهدف صيانة الأوقاف.

ومن بين العائلات التي تولت النظارة على المؤسسة : عائلة كلاطو وعائلة ابن فاضيل وابن المرابط وعائلة بن المقفولجي وابن المجوز وبن عمر وبوضربة وهي من العائلات الأندلسية المتنفذة[30].

ونظرا لانتشار أوقاف الحرمين عبر مختلف المدن الجزائرية، منها المدية والبليدة وشرشال وعنابة، وقسنطينة، ووهران، ومازونة، ومستغانم، وتلمسان، وغيرها، فقد أحدثت هيئة لإدارة ورعاية الأملاك الموقوفة لصالحهما على مستوى كل مدينة.

وكان تعيين النظار أو الوكلاء على مستوى المدن من صلاحيات وكيل أوقاف الحرمين الشريفين – بمدينة الجزائر – مثلما تثبته وثيقة تعيين السيد حسان الإنكشاري العنابي المدعو الخراط في شهر ذي القعدة من عام 1212هـ الموافق لأفريل –ماي 1798 وكيلا لأوقاف مدينة عنابة و خارجها [31].

ونظرا لإشراف مؤسسة الحرمين بمدينة الجزائر على جل الأوقاف العائدة لها. فقد كان النظار أو الوكلاء بمختلف أنحاء البلاد، ملزمين بتقديم الحسابات والعائدات إلى الإدارة المركزية على مستوى مدينة الجزائر.

وكانت مؤسسة الحرمين الشريفين تشرف أولا على الأوقاف العائدة إلى المدينتين المقدستين : مكة المكرمة والمدينة المنورة. كما احتفظت بحق الإشراف على العائدات التي كانت مشتركة بينها وبين مؤسسات أخرى كأوقاف الجامع الأعظم أو أوقاف الأندلسيين أو أوقاف سبل الخيرات [32].

كما كان مسيرو أوقاف الحرمين بالجزائر يديرون و يشرفون على عدد من الأوقاف لصالح مساجد ولأغراض دينية أخرى لقد أناط بعض الحكام بمؤسسة الحرمين النظارة على أوقاف المساجد التي شيدوها أو جددوا بناءها مثل : "**جامع حسين باشا ميزومورتو**" و "**جامع عبدي باشا**" و "**جامع علي باشا نقسيس**" .كما أضحى **جامع خيضر باشا** تحت إشراف مؤسسة الحرمين ابتداء من عام 1756م إلى أواخر العهد العثماني حينما آل إلى إدارة أوقاف سبل الخيرات [33].فضلا عن التكفل بخمسة وعشرين خرابا، أو قراء القرآن بالمساجد نفسها حيث كانت تصرف لهم رواتب شهريا.

ومما كان يجنى من مداخيل أو عائدات تلك الأوقاف كان يوجه جزءا هاما منه سنويا كصدقة إلى فقراء الحرمين الشريفين وهو ما اصطلح على تسميته بالصرة.

لكن توجيه الصرة بشكل منتظم خضع للظروف المحيطة بحركة التنقل، كالأوضاع الأمنية والصحية وما إلى ذلك. مما جعل توجيهها يتأخر أحيانا لبضع سنوات. وكانت حصص الصدقة تقسم بمدينة الجزائر على مستوى هيئة المجلس العلمي بحضور النظار على الأوقاف وشيخ البلد وأمين الأمناء وعدد من أعضاء المؤسسة العسكرية ويتم ذلك تحت رعاية الباشا أو الداي . كما كان يحضر المجلس عدد من أعيان و وجهاء المدينة ممن يتأهبون للرحلة إلى البقاع المقدسة[34] .

وقد روعيت عناية فائقة في إعداد قوائم المتنفعين من الصدقة. حيث ترد الأسماء مرفوقة بالمبالغ المالية المخصصة لها. و تختم القوائم أو محاضر تقسيم حصص الصدقة بذكر المبلغ الإجمالي مع جملة من التوصيات ثم بذكر التاريخ.

و كانت هذه القوائم ترفق بالصرة و ركب الحج. وكان الحكام يعينون "أمين بيت المال" لحمل الصرة إذ تشير وثائق المحلية إلى أمين الركب. ومن الأسماء التي صادفناها نشير إلى الشيخ الموهوب عام 1707. والسيد بوطيبة اللمداني الذي ترأس الركب في فترة سابقة لعام 1758 [35] والحاج محمد بن الواحد بن سيدي الخلادي عام 1761، و هو أحد أحفاد سيدي أحمد بن يوسف الملياني[36].

ولم يكن ما يجني من كراء الأملاك الموقوفة لصالح الحرمين الشريفين مقصورا على المرجع وحده، بل كان يصرف على مجالات خيرية هنا بالجزائر. فقد خصص جزء منها لمفاداة الأرقاء المسلمين الذين كانوا يقعون في الأسر، و جزء كان يوزع صدقة على فقراء مدينة الجزائر كل يوم خمسين و جزء آخر يستفيد منه المكاويون القاطنون بمدينة الجزائر العابرون بها [37].

مؤسسة أوقاف الحرمين بعد 1830 :

ما إن استولت القوات الفرنسية الغازية على مدينة الجزائر، حتى أصدرت السلطات الاستعمارية مرسوما مؤرخا في 08 سبتمبر 1830 خول لها حق احتلال واستغلال عدد من الأملاك الموقوفة . ثم تلاه مرسوم آخر مؤرخ بـ 7 ديسمبر عام 1830 منح للأوروبيين حق التمتع بالأملاك الموقوفة التي حولت إلى مصلحة "**الدومين**" أو مصلحة الأملاك العامة [38]. وقد انعكس ذلك بشكل واضح على مؤسسة أوقاف الحرمين إذ فقدت في السنوات الأولى التي أعقبت الاحتلال 188 ملكية كان مآلها إما التدمير أو التحويل لأغراض ومتطلبات المستعمر. وواجه عدد

من علماء و وجهاء مدينة الجزائر تلك القرارات بالرفض والتنديد ومن أبرزهم المفتي الحنفي ابن العنابي والمفتي المالكي ابن الكبابطي الذي تعرض للنفي بسبب مواقفه السياسية المناهضة للإجراءات الفرنسية التعسفية. وفي 23 مارس 1843 أصدر "بيجو" قرارا يقضي باستحواذ السلطات الاستعمارية على الأوقاف.

لقد كانت لمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين الصدارة على مؤسسات الوقف الأخرى القائمة بمدينة الجزائر وكانت لها مكانة روحية مميزة وكانت أحد أبرز مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز.

الهوامش :

[1] M. Hoexter , Endowments , rulers and community, Waqf al-Haramayn in ottoman Algiers. Brill, Leiden , 1998 , p 66

حول أوقاف الحرمين الشريفين بوجه عام راجع :

B. Lewis, El Haramayn , Encyclopédie de l'Islam , T III , Ed , 1990. P179.

[2] وهو ما بينته عدة دراسات حول الأوقاف في الفضاء الإسلامي.

[3] شهاب الدين يلس، الفهرس التحليلي للوثائق العثمانية، مركز الأرشيف الوطني، بئر الخادم، الجزائر. وانظر أيضا :

- عائشة غطاس ، «حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر »:. ، أعمال ندوة الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، دراسات إنسانية، عدد خاص 2002، ص 146.

- Devoulx, Notice sur les corporations religieuses, Alger, 1912 .

[4] تزخر سلسلة البايليك بالدفاتر الخاصة بأوقاف الحرمين نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى سجل رقم 122: سجل خاص بالأملاك المحبسة بمدينة الجزائر وضواحيها 1655-1818. سجل رقم 98 : سجل خاص بالأملاك الموقوفة لصالح الحرمين الشريفين 1678-1683

[5] Ph .Vallière, L'Algérie en 1781 – Mémoire – publié par le père lucien Chaillou, Toulon, s.d , p 28 et 31.

[6] Devoulx, Notice sur les corporations .p15

[7] عبد الجليل التميمي : وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، 1980، ص 19.

[8] حول الوقف في الفضاء الإسلامي راجع :

–R.Deguilhem, Le waqf dans l'Espace Islamique – outil de pouvoir socio-politique, IFD, Damas, 1995.

[9] الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية علب عديدة راجع على سبيل المثال، العلب التالية : 10 ، 45، 88.

[10] Archives d'Outre-Mer, 1MI Z 60.

[11] هذا يعود إلى طبيعة وخصائص الوقف .

12 نفسه .

13 الداي الحاج محمد التريكي 1671-1682.

14 الداي بابا حسن 1682-1683

15 الداي علي شاوش 1710-1718.

16 الداي كرد عبدي باشا 1724-1732

17 الداي ابراهيم باشا 1732-1745.

18 الداي مصطفى باشا 1798-1805

19 أعد الجدول استنادا إلى الدفتر رقم 1MI Z 60

20 الأرشيف الوطني الجزائري ، سلسلة المحاكم الشرعية ، علبة 43.

21 CAOM , MI Z 60.

22 نفسه.

23 نقلا عن سعيدوني :

N.Saidouni, «Les liens de l'Algérie ottomane avec les lieux saints de l'Islam à travers le rôle de la fondatoin de waqf des harramayn» Les fondations pieuses waqf en Méditerranée. Enjeux de société et enjeux de pouvoir. Cordonné par R.Deguilhem et A.Hénia. Koweit, 2004, p 23.

24 Procès verbaux et rapports de la commission d'Afrique, Paris, 1834.T1 pp. 413-416.

25 راجع :

-R.Deguilhem, Le waqf dans l'Espace Islamique – outil de pouvoir socio-politique, IFD, Damas, 1995.

26. Hoexter, Waqf al-Haramayn, p 66.

27 الأرشيف الوطني الجزائري ، سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 30

28 هـذا مـا نستشفه من الوثائق، وحول الموضوع انظر أيضا : ناصر الدين ،سعيدوني «موظفو مؤسسـة الأوقاف بالجزائر أواخر العهد العثماني»، دراسات في الملكية والوقف والجباية الفترة الحديثة دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001. ص 211.

29 نفسه.

30 لمزيد من الأخبار راجع :

- F.Khiari, « Une communauté résurgente : Les Andalous à Alger de 1570-1670» Revue d'histoire Maghrébine, 69.70, 1993, pp119-132.

31 Devoulx, Notice sur les corporations, p 27.

32 حول أوقاف سبل الخيرات راجع :

- A.Devoulx , Les édifices religieux de l'Ancien Alger, Alger, 1870.

-زهـرة زكية ، «حول الأهمية التاريخية لأوقاف الأحناف بمدينة الجزائر من خلال ثلاثة نماذج من الوثائق»، أعمال ندوة الوقف، سبق ذكره .

33 Hoexter, Waqf al-Haramayn. p 66.

34 الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 29.

35 الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 07.

36 وهـو أحـد أقطـاب الطريقة الشاذلية وكان يتمتع بنفوذ واسع عشية ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية. حول الموضوع راجع :

M.Bodin, Notes et questions sur sidi Ahmed Benyoucef, Revue Africaine, 1925, pp180-182.

37 Etablissements de piété et de bienfaisance avant l'occupation. Tableau des établissements français .1830-1837.p 221.

38.Saidouni, «Les liens de l'Algérie, p 23.

- Procés verbaux et rapports de la commission d'Afrique, Paris, 1834.T1 pp 413-416.

Etablissements de piété, Op.cit. .p 222.

-P.Genty de Bussy, De l'établissement des français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, Paris , 2vol .

Scanned by CamScanner

إعداد الأستاذة زكية زهرة

مقدمة :

يقوم الوقف الإسلامي على الوازع الديني فهو صدقة جارية، الهدف منه التقرب من الخالق عز وجل، وهو ما تبينه بوضوح نصوص وثائق الوقف[1].

"الحمد لله بعد أن استقر على ملك السيد الأجل الخير الشامل الأكمل السيد أحمد بن المرحوم بكرم الله الحي القيوم السيد إبراهيم شيخ البلد كان...جميع شطر الرقعة الكائنة بفحص الحراش خارج باب عزون أحد أبواب محروسة الجزائر...أنه حبس ووقف لله تعالى جميع شطر الرقعة المذكورة...قصد بذلك وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم إن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين..."[2].

وينسب البعض الوقف إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث له "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[4] وإلى قوله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) عندما أراد التقرب إلى الله بأرض له قال : "إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرها " أي تحبيس الأصل أو العين والتصديق بالريع أو المردود[4].

ولقد تطور نظام الوقف من حيث التشريعات الخاصة به والمعاملات المتعلقة باستغلاله وأصبح محل اجتهاد الفقهاء والعلماء وانتشر في البلاد الإسلامية انتشارا واسعا حتى أضحى ظاهرة اجتماعية واقتصادية وثقافية ذات أثر بالغ في حركية المجتمعات الإسلامية.

فعرفت الجزائر كغيرها من البلدان الإسلامية نظام الوقف غير أننا لا نملك إلا النزر القليل من النصوص حول وضعية الأوقاف بها قبل التحاق الجزائر بالدولة العثمانية، نذكر ما وصل إلينا منها ويتعلق ببعض أوقاف تلمسان والتي يعود تاريخها

إلى عهد الملك أبي الحسن المريني (1331-1351) وما حبسه على المسجد الذي شيده وهو المسجد الجامع المعروف بجامع العباد وعلى المدرسة والزاوية المتصلين به.

"...أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربية مولانا السلطان... وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه...برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج والمقيمين والواردين عليها"[5].

هذا ما يسمح لنا بالقول بأن الوقوف كتنظيم له إجراءاته الخاصة وهياكله المنظمة ومؤسساته المتميزة ارتبط بالجزائر بالحقبة العثمانية التي عرفت فيها المدن الجزائرية العديد من مؤسسات الأوقاف نذكر منها ما كان موجودا في مدينة الجزائر وهي : أوقاف الحرمين الشرفين[6] وأوقاف الجامع الأعظم[7] وأوقاف سبل الخيرات وأوقاف الأندلسيين[8] وأوقاف المساجد وأوقاف الزوايا والأضرحة والأشراف[9] وأوقاف الجيش والثكنات وأوقاف العيون والساقيات وأوقاف الأسرى وأوقاف الطلبة...الخ كما تنوعت أثناء الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر أصناف الوقف فاشتملت على الأراضي والبساتين والجنات والبحاير والرقع والديار والبيوت والغرف والعلويات والحوانيت والمخازن والكوشات والأفران والحمامات والكتب والماشية والحلي والأواني... الخ ولا نكاد نجد شيئا ملموسا لم يدخل حيز الوقف.

ولم يقتصر الوقف على الرجال فقط بل شمل النساء أيضا[10]، كما ضم الأغنياء ومتوسطي الحال. فكل واحد كان يوقف حسب إمكانيته الخاصة. فأصبح الوقف ظاهرة عامة غير مظاهر الحياة بالجزائر، مما جعل القنصل الفرنسي فاليار valliere يقول : "إن مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين تملك جل مساكن مدينة الجزائر واغلب البساتين المجاورة لها" [11] و الجدير بالذكر أن مؤسسة الحرمين الشريفين من أهم مؤسسات الوقف في الجزائر من حيث عدد المحبسين عليها والأوقاف التابعة لها ومداخليها، إذ أصبحت بمثابة "وجه الجزائر في العالم الإسلامي" [12].

1. مؤسسة سبل الخيرات وجوامعها :

لقد اكتسبت هذه المؤسسة أهمية خاصة في مدينة الجزائر أثناء العهد العثماني منذ تأسيسها والذي يرجعه بعض المؤرخين إلى عام 999هـ / 1584م[13]، فاختصت بأوقاف أتباع المذهب الحنفي بمدينة الجزائر، المحبسة على المؤسسة مباشرة أو على الجوامع الحنفية التسعة التابعة لها بمدينة الجزائر [14] وهي :

1. جامع القايد صفر (940 هـ /1534م).
2. جامع السيدة (720 هـ /1564م).
3. الجامع الجديد (1070هـ /1660م).
4. جامع شعبان خوجة (1106هـ/1693-1694 م).
5. جامع كتشاوة (1106 هـ/ 1694م).
6. جامع الشبارلية وزاويته (1201 هـ/1787م).
7. جامع دار القاضي (1209 هـ /1795م).
8. جامعا القصبة.

أ- الجامع الداخلي (جامع الداي حسين) (1235 هـ/1653-1654م)[15]

ب- الجامع الخارجي (1064 هـ/1653-1654م)[15]

2. مسيرو مؤسسة سبل الخيرات :

أما من حيث تنظيم سبل الخيرات فقد كان يشرف عليها جهاز إداري يتكون من :

1. المفتي والقاضي الحنفيان : ويمثلان الهيئة التشريعية، يعتبران عضوان هامان في المجلس العالمي الذي يعقد جلساته كل يوم خميس في الجامع الأعظم، لدراسة مختلف

القضايا المطروحة عليه، ومنها ما يتعلق بالوقف ومنها ما يتعلق بأمور أخرى كالطلاق والميراث إلى غير ذلك من الأمور التي تحتاج معالجتها العودة إلى المجلس العلمي[16].

2. الوكيل : يعين من قبل الداي[17] ويعتبر موظفا أساسيا في مؤسسة سبل الخيرات فهو بمثابة الناظر أو الهيئة التنفيذية، إذ يطبق ما جاء في نص وثيقة حسب رغبة الواقف، وينفذ ما قد ينجم من توصيات المجلس العلمي وهو بذلك مسؤول إمام المفتي والقاضي الحنفيين. يتولى الوكيل الأمور الخاصة بمردود الأوقاف، سواء كان نقدا أو عينا ويتصرف في نفقاته من دفع أجور المستخدمين وصيانة أوقاف المؤسسة والتكفل بالصدقات وغيرها من الأعمال الخيرية. و يقدم الوكيل عرضا عاما يقوم به "من إجراءات وخدمات خيرية وثقافية واجتماعية " إلى المجلس العلمي[18]. ويؤخذ برأيه في هذا المجلس في أمور الاستبدال (المعاوضة) والعناء وفي قضايا التراعات القائمة حول الوقف[19].

3. الخوجة : وهو الكاتب.

4. الصايجي : مهمته ضبط الحسابات وحفظ الأوراق.

5. الشواش : من مهامهم حراسة الأوقاف وصيانتها[20].

يضاف إلى هؤلاء مجموعة أخرى من موظفي الجوامع الحنفية التابعة لسبل الخيرات، ويختلف عددهم حسب أهمية الجامع ونذكر فيما يأتي ما يخص جوامع الخطبة :

1. الخطيب : مكلف بخطبة يوم الجمعة [21]

2. الإمام : مكلف بالصلاة في الأوقات الخمسة.

3. المؤذن : وعلى رأسهم باش مؤذن [22] مهمته الأذان.

4. **الحزابون** : وعلى رأسهم باش حزاب[23] مهمتهم قراءة القرآن.

5. **الدوال** : يحمل عصى الخطيب.

6. **القائمون على شؤون النظافة والإنارة** : وهم الشاعل، والفراش، والكناس، والغسال[24].

7. **الطُلبة**: مكلفون بقراءة في أوقات معينة كتب دينية مثل صحيح البخاري وتنبيه الأنام[25].

3. أوقاف مؤسسة سبل الخيرات :

إن العلاقة الوطيدة المتواجدة بين مؤسسة سبل الخيرات وأتباع المذهب الحنفي قد جعلتها مرتبطة بالعناصر التركية والمتعاملين معهم من كراغل وحضر فكان لهم تأثير علـى وضـعية هذه المؤسسة كون معظم المحبوسين من الطبقة الحاكمة ومن أفراد الجـيش والطـبقة الميسورة من مجتمع مدينة الجزائر[26]. مما جعل من هذه المؤسسة إحـدى أغـنى مؤسسات الوقف في مدينة الجزائر. وقد صنفت في المرتبة الثالثة بعد مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين ومؤسسة أوقاف الجامع الأعظم[27]. وتعطينا وثائق الوقف الموجودة في السجلات البايليك ولفافات المحاكم الشرعية صورة واضحة عن قـيمة أوقــاف مؤسسة سبل الخيرات وبالتالي الثروة التي كانت بيد المحبسين عليها وعـلى جوامعها. ويبين لنا الجدول الآتي بعض أفراد المحبسة على أربعة جوامع تابعة لسـبل الخـيرات وهي : الجامع الجديد وجامع القايد صفر وجامع كتشاوة وجامع شعبان خوجة.

الجامع الجديد			
المحبس	**نوع الحبس**	**مكان الحبس**	**السنة**
القايد محمد العداد بن عبد الله	زندانة	قرب باب البحر	1067هـ/1656 م
محمد الإنكشاري بن نابي	دار	كوشة علي	1069هـ/1658م
حسن أغا	بيت	زنقة بوزة	1070هـ/1659م
الحاج محمد آغا تركي	حانوت	قهوة الحمام	1074هـ/1663م
وكيل الجامع الجديد	حانوت	زنقة الدار الحمراء	1088هـ/1677م
وكيل الجامع الجديد	علوي	مقابل العين ؟	1088هـ/1677م
وكيل الحرمين الشريفين	علوي	باب الوادي	1089هـ/1678م
مريم بنت محمد	نصف دار	حومة الغرارة فوق كوشة علي	1090هـ/1679م
مبارك العطار	اسطبل	الخضارين بباب عزون	1102هـ/1690م

وكيل الجامع الجديد	2 1/2 دار +2 1/2 بيت	قاع السور	1110هـ/1698 م
صاري مصطفى بن الحاج محمد	علوى	زنقة البوزة	1126 هـ/1714م
عبدي أغا بن الحاج محمد تركي	غرفة	فندق المحتسب	1137هـ/1724 م
الحاج بكير بن محمد التركي	دار	حومة جامع علي بجنين	1137هـ/1724م
مصطفى بلوك باشي بن علي	1/4 دار	ومة تبارن	1143هـ/1730م
علي باشا	فندق (المعروف بفندق الدروج) + مقهيان	فندق الدروج	1169هـ/1755 م
علي باشا بن محمد	دار	صباط العرص	1174هـ/1760م
حسن الخزناجي	حانوت	فندق الغرارة	1177هـ/1763م
مصطفى خوجة بن احمد تركي	دار	قرب ضريح الشيخ بوقدور	1181هـ/1767 م

محمد بن عثمان	جنة	فحص السد	1214هـ/1799 م
	حانوت	قرب القهوة الكبيرة	1220هـ/1805 م
الحاج محمد الخزناجي	حانوت	سوق اللوح	1228هـ/1813م[29]
جامع القايد صفر			
يوسف بن سعود	بيت	قرب جامع الصفر	950هـ/1543م
نفيسة بنت محمد الباي	حانوت +1/2 حانوت	مقابل زاوية سيدي محمد الشريف	1031هـ/1621م
و كيل الجامع	حانوت	التماقين	1035هـ/1625م
علي بن كيوان (وصية)	1/4 دار +حوش	؟	1041هـ/1631م
إمام الجامع	حانوت	؟	1061هـ/1650م
محمد خوجة بن والي	رحاء	؟	1180هـ/1669م

الحاج محمد بن الغالي	حانوت	مقابل جامع الصفر	1086هـ/1675م
فاطمة بنت محمد الصباغ	حانوت	زاوية محمد شريف	1094 هـ/1682م
مريم بنت علي	حانوتان	قرب ضريح محمد الشريف الزهار	1110هـ/1689م
وكيل الجامع	دار	قر ب الجنينة مقابلة لحمام خضر باشا	1118هـ/1706م
ياسمينة بنت محمد	نصف دار	حومة جامع صفر	1138هـ/1725م
الحاج المستغانمي	علوي	قرب جامع الصفر	1146هـ/1733م
محمد البناء بن عبد الله	مخزن علوي	قرب الدرب القصير قرب كوشة الوقيد	1152هـ/1739م
محمد الانكشاري	بيت	؟	1171هـ/1757م

إمام المسجد	بلاد	بني مسوس	1193هـ/1779م
عائشة معتقة الحاج محمد معزول أغا	حانوت	قرب ضريح سيدي بوقدور	1204هـ/1789 م
حسين الانكشاري القزاز	حانوت	قرب جامع صفر	1230هـ/1814م
إبراهيم رئيس التركي	دار	قرب الدرب القصير	1231هـ/1815م
ميمي بنت السيد حميدة زوجة السيد حسين باشا	حانوت	سوق الحاشية	1242هـ/1826م
مباركة معتقة السيد حسين باشا	حانوت	سوق الذكير	1243هـ/1827م
حسين باشا	جنة ورقعة	خارج باب الوادي	1243هـ/ 1827م[30]

جامع كجاوة			
السيد احمد الشريف	1/2 حانوت	سوق الشبارلية	1050هـ/1640م
حسن باشا	حانوت	قرب والي داده	1208هـ/1791م
حسن باشا	3حوانت	كجاوة	1208هـ/1793م
حسن باشا	داران	كجاوة	1208هـ/1793م
حسن باشا	حانوتان	قرب قهوة العريش	1208هـ/1793م
حسن باشا	داران	حومة القادوس وبن جاور	1208هـ/1793م
حسين باشا	حانوت	قرب الوالي داده	1209هـ/1794م
حسن باشا	حانوت	سويقة عمور	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	سوق اللوح	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	قرب الحمام المالح	1210هـ/1795م
حسن باشا	قهوة	فوق الجامع	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوتان	كوشة النصارى	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	فندق الزيت	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوتان	باب عزون	1210هـ/1795م

حسن باشا	دار	حومة مسيد الدالية	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	فوق الجامع	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت وعلي	؟	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	الشبارلية	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	قرب الحاكورة	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	تبارن ابن الأغا	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوتان	سوق السمن	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	كتشاوة	1210هـ/1795م
حسن باشا	1/4 حانوت	؟	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	قرب حمام كتشاوة النصاري	1210هـ/1795م
حسن باشا	دار ومخزن	درب الحلاب	1210هـ/1795م
حسن باشا	حانوت	قرب الجامع الجديد	1212هـ/1797م
أحمد باشا	حانوت	قرب دار اللحم	1222هـ/1808م[31]

جامع شعبان خوجة			
الداي شعبان بن السيد أحمد	دار	قرب باب الدزيرة	1104هـ/1692م
الداي شعبان بن السيد أحمد	حانوت	الفندق الجديد	1105 هـ/1693م
محمد بن عبد الله	دار	سويقة عمور	1106 هـ/1694م
الحاج شعبان أفندي	علوي +حانوتان +مخزنان	قرب الرحبة القديمة	1106هـ/1694م
حسن باشا	حانوتان +مخزن+دويرة	قرب باب الجزيرة	1209هـ/1794م[32]

ويتضح لنا من خلال الجدول أن معظم المحبسين من فئة الأتراك، فقد بلغ عددهم 26 تركـيا من مجموع 47 أي بنسبة 31, 55% من المجموع الكلي للمحبسين. من هؤلاء الأتراك يوجد 4 دايات و7 من أفراد الجيش الانكشاري[33]. أما أكبر نسبة من العقارات المحبسة فكانت من تحبيس الدايات، فمن مجموع 101 عقارا محبسا. 62 عقارا حبس من قبل الدايات الأربعة أي بنسبة 61,38 %.

كمـا نلاحـظ من هذا الجدول أن النساء قد أسهمن في أوقاف جوامع مؤسسة سـبل الخـيرات المذكـورة، ويبدو أهن كن من الفئات الميسورة من مجتمع مدينة الجزائـر، زوجـة الـداي وبنت الداي ونساء وبنات الحضر إضافة إلى معتقات، فبالنسبة للفئة الأخيرة أي المعتقات فقد كن يتمتعن بكامل حريتهن بعد العتق ويملكن ويتصرفن في ممتلكاتهن تحبس عليهن من قبل معتقهن[34].

وإذا كان بعض الأفراد يحبذون التحبيس على الجوامع التابعة لسبل الخيرات فهناك من كان يحبس مباشرة على المؤسسة دون ذكر جوامعها، وهنا نذكر ما حبسه محمد باشـا على مؤسسة سبل الخيرات عام 1198-1199هـ/1783-1784م، وكان مجمل حبسه 21 حانوتا[35] قدر مردزدها سنويا بـ 884 ريالا[36].

واسـتنادا إلى دفتر وقف يعود إلى عام 1212 هـ / 1797-1798م[37] فإن عدد العقارات المحبسة على مؤسسة سبل الخيرات قد بلغ 412 عقارا توزعت كالتالي :

نوع الوقف	العدد			النسبة المئوية
	كامل	نصف	ربع	
حانوت	309	12	1	%78 ,15
علوي	29	2		%07,52
مخزن	13			%3,15
دار	7	2	2	%2,66
بيت	10			%2,42
غرفة	6			%1,54
كوشة	2	1	1	%0,97
حمام	2		3/4	%0,72
بحيرة	2			%0,48
رقعة	1			%0,24
فرن	1			%0,24

وتتواجد العقارات المذكورة والموقوفة لصالح مؤسسة سبل الخيرات في 36 مكانا توزعت على النحو التالي :

مكان الوقف	العدد	مكان الوقف
العلوي الصغير	39	الدوامس
فندق الزيت	30	باب الجزيرة
القيصرية	27	سوق اليهود
السوق الكبير	22	الغرارة
سوق التماقين	21	البشماقية
العلوي الكبير	21	قرب بيت الملجي
خارج باب الوادي	21	المسجد الأعظم
سوق السمن	21	المقفولجية
الشماعين	19	خارج باب عزون
دار الإمارة	18	يكريجي القديمة
كتشاوة	16	عين الجديدة
المحكمة المالكية	16	باب عزون

الديوان	12	بئر الجباح
الصاغة	12	القصبة
باب البحر	12	صاحب الطريق
القوة الكبيرة	11	سويقة عمور
الصباغين	11	الحامة
الرحبة القديمة	10	عين الأزرق

ومما يلاحظ أن 93,93 % من العقارات الموقوفة كانت بداخل مدينة الجزائر.

4. استغلال أوقاف سبل الخيرات :

لجـأت مؤسسة سبل الخيرات إلى الإيجار المعروف محليا بالكراء، لأجل استغلال أملاكهـا المحبســة، وهو أسلوب اقتصادي ناجح مكن المؤسسة من أن تجني أرباحا معتــبرة، ويسمح الكراء للمستأجر والمعروف محليا بالكاري ان يستغل العقار المحبس دون ان يملكه فيستعملها للسكن أو يسخره لنشاط اقتصادي منتج[38]، مقابل أجرة أو كراء، قد يكون مبلغ من المال أو قسط يدفع من المنتوج أو الغلة عن تعلق الأمر بالمساقاة أو المزرعة[39]، وتحدد مدة الكراء في عقد الكراء [40] وفق أحكام الوقف.

لقد سمحت مؤسسة سبل الخيرات لجميع العناصر المشكلة لمجتمع مدينة الجزائر وضـواحيها باستغلال أملاكها الموقفة عن طريق الكراء، وهذا دون تميز من حيث الأصل أو المركز الاجتماعي، فوفرت للبعض مكانا للإيواء والسكن وأعطت للبعض الآخـر فرصـة للقيـام بعمل ومجالا للكسب أيضا، فأدت بذلك دورا اجتماعيا واقتصاديا في آن واحد.

واســتنادا إلى دفتر البايليك رقم 312 المذكور آنفا فإن عدد الأشخاص المستغلين لأوقاف المؤسسة عن طريق الكراء قدر بـــ 354 فردا موزعين كالتالي :

- **الحضر أو البلدية** : بلغ عددهم 269 شخصا بنسبة 75.98 % من العدد الإجمالي.

- **اليهود** : بلغ عددهم 39 شخصا بنسبة 11.01% من العدد الإجمالي.

- **الأتراك** : بلغ عددهم 27 شخصا بنسبة 7.62% من العدد الإجمالي.

- **الكراغلة** : بلغ عددهم 7 أشخاص بنسبة 1.97 % من العدد الإجمالي.

5. **الجماعــات البرانية** : بلغ عددهم 7 أشخاص توزعوا كالتالي : 4 مزابين و2 بساكرة وجيجليا وواحد ومثلوا 1.97 % من العدد الإجمالي.

6. ويتضــح لــنا من نفس الدفتر أن مجموعة أخرى كانت تستغل أوقاف سبل الخــيرات عــن طــريق الكراء وهي موزعة كالتالي : مغربيا واحد، شاميا واحد، طرابلسيا واحدا، مسيحيا واحدا، (لم تذكر الوثيقة بلده) وإغريقيا واحدا.

وممــا يلاحــظ أن هذه العناصر المذكورة كانت تشكل في مجملها العناصر الفاعلة والمحــركة لــيس فقط لمؤسسة سبل الخيرات وإنما لمدينة الجزائر، إذ كانت محور الحياة الاجتماعية بها وأساس مجتمع مدينة الجزائر وضواحيها ولعل هذه التعددية في تركية مجتمع مدينة الجزائر تؤكد الطابع "الكوسموبلوتي" لعاصمة الجزائر أثناء العهد العثماني.

ومما سبق يمكن لنا القول بأن مؤسسة سبل الخيرات باعتبارها مؤسسة خيرية كان لهــا دورا بــارزا في مجــتمع مدينة الجزائر. فقد ساهمت بفعالية في الحياة العلمية[41] والدينــية والاجتماعية والاقتصادية وهذا ما يظهر من منشآتها العديدة وفي مقدمتها المســاجد والزوايا والكتاتيب (المسايد)، كما تؤكد رعايتها وصيانتها وإنفاقها على تلــك المنشــآت وكذلك توليها دفع المنح للطلبة وأجور المدرسين والقائمين على

شــؤون العــبادة وفي مقدمتهم الخطباء والأئمة والحزابين والمؤذنين وكذلك أجور القــائمين على أمور الصيانة والتنظيف، وتقديمها لهم إمكانيات الإيواء والإقامة. إضــافة إلى ذلك مد يد العون لعابري السبيل والمعوزين وإيجادها لفئات عديدة من مجــتمع مديــنة الجزائر وضواحيها مجملا للعمل والكسب والعيش الكريم. قبل أن تعرض هذه المؤسسة للتصفية على يد الإدارة الاستعمارية منذ 1830 و تصفى نهائيا سنة 1873 وبذلك فقد المجتمع الجزائري مجالا حيويا ميز الجزائر في العهد العثماني.

الهوامش :

1. نقصد هنا الوقف الخيري وليس الأهلي

2. الأرشيف الوطني الجزائري، المحاكم الشرعية، علبة 18/1

3. صحيح مسلم، كتاب الوصايا، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته، الجزء الثالث، رقم الحديث 1631، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ص425.

4. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، الجزء الثاني، رقم الحديث 2772، لبنان، المكتبة العصرية 1979، ص835.

5. البسير محمد بن المهدي، "مراكز الثقافة ومراكز الكتب بالجزائر عبر التاريخ : نشأتها، تطورها، آثارها" الأصالة، عدد 11، 1971، ص88-89.

6. عن أوقاف الحرمين الشريفين انظر :

Hoexter m., Endowment rulers and community Waqf al Harmayn in ottoman Algers, lenden-boston-koln, Brill, 1988.

SAIDOUNI naceraddine, " les liens de l'Algérie ottomane avec les lieux saints de l'islam à travers le rôle du waqf du Haramayn », in les fondations pieuses (waqf) en méditerranée : enjeux de société, enjeux de pouvoir, coordonné par randi DEGUILHEM et abdelhamid HENIA, Koweit, fondation publique des awqaf du Koweit, 2004,pp 17-64.

NOMIER Akael, les fondations pieuses à Alger au XVIII siecle (une étude comparative de waqf), thèse de doctorat de l'université d'aix- Marseille I , juin 2002, t.1,pp80-401

غطاس عائشة "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر" دراسات إنسانية عدد خاص، 2001-2002، ص140-151.

7. عن أوقاف الجامع الأعظم أنظر : التميمي عبد الجليل، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، 1980.

NOMIER AKAEL, Op cit,t2, pp 402-504.

8. عن أوقاف الأندلسيين أنظر، سعيدوني نصر الدين، أوقاف الأندلسيين بمدينة الجزائر من خلال وثائق الأرشيف الجزائري، دراسات أندلسية. مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، بيروت دار الغرب الإسلامي، 2003 ص 75-101.

NOMIER AKAEL, Op.cit, t2, pp.402-504.

9. حول أوقاف الأضرحة والزوايا والأرشيف والمساجد انظر :

Devoulx .a, les édifices religieux de l'ancien Alger, typographie bastide, 1870.

10. عن مساهمة المرأة في الوقف في مدينة الجزائر أنظر غطاس عائشة "إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني" المجلة التاريخية المغاربية، العددان 85-86، 1997، ص99-130.

11. سعيدوني نصر الدين، "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر (أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي)" دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص235.

12. سعد الله أبو قاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، ص 239.

13- BUSSON DE JANSSENS Gérard, contribution à l'étude des habous public algériens, thése de doctorat en droit, Alger décembre 1950, p.33 (texte dactylographie, B.U d'Alger)

14. يبلغ عدد المساجد الخطبية بمدينة الجزائر 14 مسجدا، 9 منها تابعة لسبل الخيرات.

15. عن هذه الجوامع انظر :

DEVOULX .A., Op cit ;

Ibid notes historique sur les mosquées religieux d'Alger. Alger, Jourdan 1912

WAILE.V « autour des mosquées d'Alger » in revue africaine, 1899, pp.5-13.

DOKALI.R , les mosquées de la période turque à Alger , Alger, S.N.E.D ,1974.

نور الدين عبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1975.

الهوامش :

1. نقصد هنا الوقف الخيري وليس الأهلي.

2. الأرشيف الوطني الجزائري، المحاكم الشرعية، علبة 18/1

3. صـــحيح مسلم، كتاب الوصايا، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته، الجزء الثالث، رقم الحديث 1631، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ص425.

4.صـــحيح الـبخاري، كتاب الوصايا، باب الوقف كيف يكتب، الجزء الثاني، رقم الحديث 2772، لبنان، المكتبة العصرية 1979، ص855.

5. الــبر عــبد لي المهدي، "مراكز الثقافة وخزائن الكتب الجزائر عبر التاريخ : نشأتها، تطورها، أثارها "الأصالة، عدد 11، 1971، ص88-89.

6. عن أوقاف الحرمين الشريفين انظر :

Hoxter.m.; Endowment rulers and community .Waqf al Harmayn in ottoman Algiers, lienden-boston-koln, Brill, 1988.

SAIDOUNI nacerddine, “ les liens de l’Algérie ottomane avec les lieux saints de l’islam à travers le rôle du waqf du Haramayn », in les fondations pieuses (waqf) en méditerranée : enjeux de société, enjeux de pouvoir, coordonné par randi DEGUILHEM et abdelhamid HENIA, Koweït, fondation publique des awqaf du Koweït, 2004,pp.17-64.

NOMIER Akael, les fondations pieuses à Alger au XVIII siecle (une étude comparative de waqf), thèse de doctorat de l’université d’aix- Marseille 1 , juin 2002, t.1,pp80-401.

غطـــاس عائشة "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر " دراسات إنسانية عدد خاص، 2001-2002، ص140-151.

7. عن أوقاف الجامع الأعظم أنظر : التميمي عبد الجليل، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، تونس، منشورات المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، 1980.

NOMIER AKAEL, Op.cit,t2, pp.402-504.

8. عن أوقاف الأندلسيين أنظر، سعيدوني نصر الدين، أوقاف الأندلسيين بمدينة الجزائر من خلال وثـــائق الأرشـــيف الجزائري، دراسات أندلسية. مظاهر التأثير الأيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، بيروت دار الغرب الإسلامي، 2003 ص 75-101.

NOMIER AKAEL, Op.cit, t2, pp.402-504.

9. حول أوقاف الاضرحية والزوايا والأرشيف والمساجد انظر :

Devoulx .a, les édifices religieux de l’ancien Alger, typographie bastide, 1870.

10. عـــن مساهمة المرأة في الوقف في مدينة الجزائر أنظر غطاس عائشة "إسهام المرأة في الاوقاف في مجـــتمع مديـــنة الجزائـــر خـــلال العهد العثماني" المجلة التاريخية المغاربية، العددان 85-86، 1997، ص99-130.

11. ســـعيدوني نصـــر الدين، "الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالجزائر (أواخـــر العهـــد العـــثماني واوائل الاحتلال الفرنسي)" دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001، ص235.

12. سعد الله أبو قاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج1، ص 239.

13- BUSSON DE JANSSENS Gérard, contribution à l’étude des habous public algériens, thése de doctorat en droit, Alger décembre 1950, p.33.(texte dactylographie, B.U d’Alger)

14. يبلغ عدد المساجد الحنفية بمدينة الجزائر 14 مسجدا، 9 منها تابعة لسبل الخيرات.

15. عن هذه الجوامع انظر :

DEVOULX .A., Op.cit ;

Ibid notes historique sur les mosquées religieux d’Alger. Alger, Jourdan 1912

WAILE.V. « autour des mosquées d’Alger » in revue africaine, 1899, pp.5-13.

DOKALI.R , les mosquées de la période turque à Alger , Alger, S.N.E.D .,1974.

نـــور الديـــن عـــبد القادر، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1975.

16. سعيدوني نصر الدين "موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر أواخر العهد العثماني"، دراسات تاريخية في الملكية والوقف، ص211-212.

17- DEVOULX., les édifices religieux...op. cit., p.2.

18. سعيدوني نصر الدين "موظفو مؤسسة الأوقاف..."، مرجع سبق ذكره، ص211.

19. تزخر وثائق المحاكم الشرعية بمثل هذه الأمثلة.

20. سعيدوني نصر الدين "موظفو مؤسسة الأوقاف..."، مرجع سبق ذكره ص 212و219.

21. يكون الخطيب في بعض الأحيان هو المدرس والقاضي ووكيل الخزانة، أنظر الأرشيف الوطني الجزائري، البايلك، دفتر 326 و 336.

22. يشار إليه في الوثائق باش مؤذن وجماعته.

23. يشار إليه في الوثائق باش حزاب وجماعته.

24. الأرشيف الوطني الجزائري، البايلك، دفتر 328 و 329 و 336.

25- DEVOULX., les édifices religieux... op .cit., p.7.

26. إلا أن معظم المحبسين عليها من الأتراك.

27. سعيدوني نصر الدين "موظفو مؤسسة الأوقاف..."، مرجع سبق ذكره ص208.

28. تنازل عن الزنقة لتضم الرقعة المخصصة لبناء جامع الجديد على انقاض المدرسة العنانية.

29NOMIER AKAEL , Op.cit,t2,pp.533-536.

30- ibid., pp.537-541.

31- ibid., pp.547-551.

32- ibid., pp.545-546.

33. عن ثروة الانكشارية في مدينة الجزائر أواخر القرن 18 م انظر :

SHUVAL.T.,La ville d'Alger à la fin du XVIII eme siècle .population et cadre urbain , paris, C.N.R.S., 1998 .

34. تزخر وثائق المحاكم الشرعية بقضايا العتق والتحبيس لصالح المعتقين، انظر إلى سبيل المثال الأرشيف الوطني، المحاكم الشرعية، علبة 48 وثيقة 45، وعلبة 51 وثيقة 79.

35. الأرشيف الوطني الجزائري، البايلك، دفتر 326.

36. [illegible] "حول أوقاف مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر، أوقاف مؤسسة سبل الخيرات من خلال السجلات الحنفية"، دراسات إنسانية، عدد خاص، 2001-2002، ص 125.

37. الأرشيف الوطني الجزائري، البايلك، دفتر 312.

38- DEGUILHEM R. « approche méthodologique d'un fonds de waqf: deux registre de sari 'a du XIX eme siècle à damas », in le waqf dans l'espace islamique, Outil de pouvoir sociopolitique. Organisé par Randi DEGUILHEM , préfacé par André RAYMOND, damas, institut français d'études arabes de damas 1995, p66.

39- ABRIBAT j., essai sur les contrats de quasi aliénation et de location perpétuelles auxquels l'institution de habous a donné naissance , Alger, a. Jourdan, 1902,p.10 ;

VAN DENBERG L.W.G. Principe du droit musulman selon les rites d'abou hanifa et de chafi'i traduit du hollandais par R. de France Tersant avec la collaboration de M Damiens, Alger. A Jourdan, 1896, p.31.

40- LUCCIONI les habous ou waqf : rite malékite et hanéfite, Casablanca, s/d, p.79 ;

WORMS M « recherche sur la propriété territoriale dans les pays musulmans », in revue de législation et jurisprudence, janvier-avril1884, p.391 ;

MERCIER E., habous ou oukaf, ses règles et sa jurisprudence, Alger, A. Jourdan, 1895, p.51 ;

Abribat j., Op.cit., p10 ;

Deguilhem r., Op.cit.p.66.

41. أنظر عن التعليم في الجزائر في العهد العثماني.

– سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 311-384.

–نفسه،"بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830)"، بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، استانبول 12-15 أبريل 1999، استانبول، يلتيز ياينحيليك، 2000، ص 79-112.

- زهـرة زكية، "المؤسسة التعليمية بمدينة الجزائر أثناء الفترة العثمانية"، استانبول 12-15 1999، ص 113-134.

EMERIT.M., «l'état intellectuel et moral de l'Algérie en 1830 », in revue des travaux de l'académie des sciences morales et politiques, 1954,pp.1-14 ; FOCIN.P «l'instruction des indigènes en Algérie», in revue international de l'enseignements , n° 6 ? 1883, PP.817-847.

إعداد الأستاذة نعيمة بوعشوش

1. نبذة تاريخية عن الجامع الأعظم بمدينة الجزائر :

يُعدّ الجامع الأعظم بمدينة الجزائر من أقدم جوامع المدينة، إذ يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر[1]. وتدل الكتابة الموجودة على منبره أنه كان موجودا في رجب 409 هـ / 1018م[2].

تبلغ مساحته 2000 متر مربع، تشتمل إضافة إلى المسجد على ملحقة تسمى الجنينة، وبها فناء وعدد من الغرف يشغلها المفتي والعاملون بالمسجد. كما يوجد مصلى يستعمل للصلاة على الموتى وغرف للمؤذنين ودورات مياه مع عيون، وساحة كبيرة نصبت فيها بطارية من أربعة مدافع[3].

يبلغ عدد أبواب الجامع الأعظم تسعة، تتوزع كما يلي: في اتجاه الميناء، وينفتح على خمسة أبواب : باب الجُنينة، باب البواقل، وذلك لوجود جدار من طين مملوءة بالمياه ليرتوي العطشان، باب الفوارة تؤدي إلى المحراب وباب الصومعة، إضافة إلى باب غير محفور وضعته السلطة الاستعمارية، وكان هذا الجزء من البناء قد أنشئ فوق مخزن كبير يستعمل لاحتياجات البحرية.

أما الناحية الشمالية الشرقية للجامع فتنفتح ببابين: باب الجنائز وباب الطحطاحة، ويقابلها بابان في الجهة الجنوبية الغربية للجامع[4].

ويبدو أن الجامع الأعظم قد تعرّض لأضرار عند تعرض المدينة للقصف من قبل السفن الأوروبية، وذلك نظرا لقربه من البحر. من هذه الأضرار تلك التي لحقت به

خلال القرن السابع عشر أثناء قَنبلة بوارج فرنسية لمدينة الجزائر، وقد اضطر القائمون عليه لترحيل مكتبته حفاظا عليها[5].

كانت مدينة الجزائر تشتمل على عدد كبير من المساجد بلغ عددها سنة 1830م 106 مسجدا منها 92 على المذهب المالكي و14 على المذهب الحنفي[6]، ورغم ذلك فقد امتاز عنها الجامع الأعظم بدوره الديني والاقتصادي والاجتماعي، فقد كان يديره ثلاثة وكلاء تحت إشراف مفتي[7]، عكس بقية المساجد التي كان يديرها وكيل واحد[8].

كان الوكيل الأوّل يدير أوقاف المسجد، والوكيل الثاني يدير الأوقاف المخصصة للمؤذنين والثالث يدير الأوقاف الخاصة بالحزّابين[9].

وقد لعب هذا الجامع دورا رائدا خلال كل الفترة العثمانية، إذ احتضن المجلس العلمي وغطى على أنشطة كل الجوامع الأخرى حتى التي أنشأها الأتراك أنفسهم، وكثيرا ما كانت فيه الأسبقية للمفتي المالكي على المفتي الحنفي في مختلف القضايا[10]. وبحلول الاستعمار الفرنسي بالجزائر تحوّل إلى منبر للمقاومة، إذ وقف مفتيه مصطفى بن الكبابطي مؤيَّدا من أهل البلاد ضد قرارين رسميين فرنسيين يرميان إلى الاستيلاء على الأوقاف وإدخال اللغة الفرنسية إلى المدارس القرآنية. وقد رأت السلطة الاستعمارية أن إدارة المسجد الأعظم المدعّمة بما تدرّه عليها الأوقاف من أموال تشكل خطرا على أطماعها ومشاريعها، إذ كانت تخشى من استعمال هذه الأموال في تنظيم المقاومة ضد الوجود الاستعماري الفرنسي، ممّا جعلها تتخذ قرار 23 مارس 1843 القاضي بضم الأوقاف إلى إدارة الدّومين[11].

2. تسيير مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم :

أ. متى ظهرت ؟ تأتي مؤسسة الجامع الأعظم في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد مؤسسة الحرمين الشريفين، ويبدو أنها بدأت مع القرن السادس عشر، إذ نجد

إشارات لعقود وقف ابتداء من هذا القرن، ولم نعثر على عقود تعود إلى فترة ما قبل المرحلة العثمانية.

ويعود أول عقد تحبيس إلى سنة 947هـ / 1540 – 1541م، وانطلاقا من هذا يمكن أن نقول أن مؤسسة أوقاف الجامع الأعظم ظهرت خلال منتصف القرن السادس عشر، وما فتئت تتطور حتى القرن التاسع عشر عندما استولت عليها السلطات الاستعمارية في سنة 1843م بعد اتهام مفتيها مصطفى بن الكبابطي بمقاومة الاحتلال الفرنسي. وقد وصل دخلها السنوي في 1830م إلى 43222.70 فرنك تدرّها 1558 وقفا[12].

ب. موظّفوها :

كان الجامع الأعظم بمدينة الجزائر ونظرا لأهميته يشتمل على عدد كبير من الموظفين، ويتمثل هؤلاء إضافة إلى المفتي المالكي –الذي كان في نفس الوقت إمام وخطيب يوم الجمعة والعيدين– في إمامين وحامل بندقية المفتي ومُحضر المفتي و19 أستاذا و18 مؤذنا و8 حزّابين يقرؤون القرآن الكريم و3 وكلاء، أحدهم مكلف بتسيير أوقاف المسجد مباشرة تحت أوامر المفتي ويعتبر الوكيلَ الرئيسي، ووكيل ثان مكلف بأوقاف المؤذنين، وهو مستقل عن المسجد ووكيل ثالث مكلف بأوقاف الحزّابين مستقل عن السابقين، هذا إضافة إلى 8 منظفين و3 عمال مكلفين بإنارة المسجد[13]. وكان هؤلاء يأخذون أجورهم من أوقاف المسجد الأعظم.

ج. العائلات التي ساهمت في إدارة وقف الجامع الأعظم :

ويبدو أن هناك عائلات تولّت الفتوى المالكية بالجامع الأعظم من أشهرها عائلة قدورة، ومن أبرز الأسماء نجد ابن جعدون وابن الشاهد وابن الأمين وابن نيكرو[14]. وقد نشر دوفولكس قائمة غير كاملة للمفتين المالكيين بهذا الجامع ضمّت الأسماء التالية :

- سيدي أمحمد بن أحمد بن منصور
- سيدي أبو البركات الباروني (1364 – 1365م)
- محمد بن بلقاسم بن إسماعيل (1012 هـ)
- سيدي عمّار (1614م)
- سيدي سعيد بن الحاج إبراهيم قدورة (1621 – 1650م)
- محمد بن سيدي سعيد بن الحاج إبراهيم (1655 – 1696م) (قدورة)
- سيدي أحمد بن سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم (1696 – 1706م) (قدورة)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1707 - 1710م)
- الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد (1710 – 1712م)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1712م)
- الحاج سعيد بن أحمد بن سعيد (1713 – 1714م)
- المهدي بن صالح (1715م)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1716 – 1722م)
- عمر بن عبد الرحمان (1723)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1723م)
- عمر بن عبد الرحمان (1723 – 1731م) (2×)
- محمد بن المبارك (1734 – 1738م)
- محمد بن ابراهيم (1738 – 1739م)

- الحاج أحمد بن الزروق بن محي الدين بن عبد اللطيف (1740 – 1753م)
- عبد القادر بن محمد البراملي (1755م)
- محمد بن أحمد المسيسني (1756 – 7611م)
- الطاهر بن محمد (1762 – 1762م)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1763م)
- مصطفى بن أحمد المسيسني (1763 – 1765م)
- أحمد بن احمد (1766م)
- الحاج أحمد بن عمار (1766م)
- عبد الرحمان بن أحمد المرتضى (1766م) (5×)
- الحاج أحمد بن سي عمر (1767 – 1770م)
- الحاج محمد بن أحمد بن جعدون (1771 – 1783م)
- محمد بن الشاهد (1784 – 1792م)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1792م)
- محمد بن الشاهد (1792م) (2×)
- محمد بن محمد بن الخوجة (1792م)
- محمد بن الشاهد (1792م) (3×)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1793م)
- محمد بن محمد بن علي (1793م)

- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1793 – 1796م)
- الحاج محمد بن أحمد بن مالك (1796 – 1798م)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1798 – 1811م)
- محمد بن محمد بن علي (1814 – 1815م) (×2)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1815 – 1817م)
- أحمد بن علي بن حمدون (1817 – 1818م)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1818 – 1820م)
- محمد بن الحاج إبراهيم بن موسى (1820 – 1824م)
- علي بن محمد المنقلاتي (1824 – 1830م)

وحسب هذه القائمة غير الكاملة نلاحظ عدم استقرارٍ في البقاء في منصب مفتٍ إذ كثيرا ما نجد أربعة إلى خمسة مفتين في نفس السنة، كما نلاحظ ظهور بعض المفتين ثم احتفاءهم وعودتهم إلى منصبهم حتى أن بعضهم عاد إلى نفس المنصب ست مرات. وقد يكون ذلك راجعا إلى التنافس على هذا المنصب نظرا لمفتي الجامع الأعظم من جهة وللقيمة الاجتماعية لمفتي الجامع الأعظم من جهة أخرى، وربما يخضع ذلك لأهواء الحكام الذين كانوا يُعيِّنون المفتين.

3. دور مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم :

لعبت مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم دورا هاما في مختلف المجالات، منها الحفاظ على الجامع الأعظم كمعلَم وتأدية وظائفه الثقافية والدينية والاجتماعية.

فبالنسبة للمجال الأول تُبرز لنا وثائق الأوقاف استعمال أموال الأوقاف لترميم المسجد والحفاظ عليه، إذ تتحدث إحداها عن "أجرة البنّائين والخلفيين في الطحطاحات[15] وسطح الجامع الأعظم" التي تصل إلى 28 ريالا، كما تصل أجرة "حمّالين الجير وتراب البنيان" إلى 171 ريالا [16]. وكانت أعمال الترميم تتم عموما مرة في السنة بصفة مستمرة، غير أنه في بعض الأحيان تستدعي الضرورة إصلاحه أو إعادة تجديد جزء إثر تهدمه أو تضرره[17].

واهتم القائمون على الجامع الأعظم إضافة إلى الحفاظ عليه كمعلم تاريخي وديني بنظافته وترتيبه من الداخل والخارج ليكون مناسبا للمصلين، إذ تذكر الوثائق أجرة حمّامين التقيض التي وصلت إلى 67 ريالا وأجرة البيّاضين[18] التي بلغت 16 ريالا وغداء "خيّاطي الحصير" الذي حدّد بـــ 32 ريالا وثمن الحصير الذي كان 69 ريالا وثمن زيت الإنارة الذي بلغ 566 ريالا. ولم يكتف القائمون على الجامع الأعظم بإعداده ليجد المصلي راحته فيه بل حاوزوا ذلك إلى تعطيره، إذ تذكر إحدى الوثائق ثمن ماء الورد الذي يعطّر به الجامع الأعظم والذي وصل إلى 85 ريالا. كما سهر القائمون على الجامع الأعظم على توفير حتى الكماليات لقارئي الأحزاب والطلاب والمصلين، خصوصا خلال شهر رمضان، إذ تتحدث الوثائق عن ثمن الزلابية الذي قارب 940 ريالا[19].

غير أن الملاحظ أن هذا الاهتمام الكبير تجاوز الجامع الأعظم لينصبّ على البنايات والعيون والسواقي والمجاير الموقوفة لصالح الجامع. وتذكر إحدى الوثائق ثمن "قفل لدار القحة" الموقوفة على الجامع الذي وصل إلى 22 ريالا وثمن "إصلاح سانية بحيرة بالحامة" بـــ 50 ريالا، وثمن "بنيان البيت التي داخل الجنية" بـــ380 ريالا، وثمن "بنيان الدار الحمراء وبابها" بـــ 392 ريالا، وثمن "قفل حانوت ابن العرفي" بـــ 132 ريالا، وثمن "بناء الفرن الذي بباب عزون" بـــ63 ريالا[20]. وعليه

- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1793 – 1796م)
- الحاج محمد بن أحمد بن مالك (1796 – 1798م)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1798 – 1811م)
- محمد بن محمد بن علي (1814 – 1815م) (×2)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1815 – 1817م)
- أحمد بن علي بن جعدون (1817 – 1818م)
- الحاج علي بن عبد القادر بن الأمين (1818 – 1820م)
- محمد بن الحاج إبراهيم بن موسى (1820 – 1824م)
- علي بن محمد المنقلاتي (1824 – 1830م)

وحسب هذه القائمة غير الكاملة نلاحظ عدم استقرارٍ في البقاء في منصب مفتي، إذ كثيرا ما نجد أربعة إلى خمسة مفتيين في نفس السنة، كما نلاحظ ظهور بعض المفتيين ثم اختفاءهم وعودتهم إلى منصبهم حتى أن بعضهم عاد إلى نفس المنصب ست مرات. وقد يكون ذلك راجعا إلى التنافس على هذا المنصب نظرا لغنى الجامع الأعظم من جهة وللقيمة الاجتماعية لمفتي الجامع الأعظم من جهة أخرى، وربما يخضع ذلك لأهواء الحكام الذين كانوا يُعيِّنون المفتين.

3. دور مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم :

لعبت مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم دورا هاما في مختلف المجالات، منها الحفاظ على الجامع الأعظم كمعلَم وتأدية وظائفه الثقافية والدينية والاجتماعية.

فبالنسبة للمجال الأول تُبرز لنا وثائق الأوقاف استعمال أموال الأوقاف لترميم المسجد والحفاظ عليه، إذ تتحدث إحداها عن "أجرة البنّائين والخدّامين في الطحطاحات[15] وسطح الجامع الأعظم" التي تصل إلى 28 ريالا، كما تصل أجرة "حمّالين الجير وتراب البنيان" إلى 171 ريالا[16]. وكانت أعمال الترميم تتم عموما مرة في السنة بصفة مستمرة، غير أنه في بعض الأحيان تستدعي الضرورة إصلاحه أو إعادة تجديد جزء إثر تهدمه أو تضرره[17].

واهتم القائمون على الجامع الأعظم إضافة إلى الحفاظ عليه كمعلم تاريخي وديني بنظافته وترتيبه من الداخل والخارج ليكون مناسبا للمصلين، إذ تذكر الوثائق أجرة خدّامين التّنفيض التي وصلت إلى 67 ريالا وأجرة البيّاضين[18] التي بلغت 16 ريالا وغداء "خيّاطي الحصير" الذي حدّد بـ 32 ريالا وثمن الحصير الذي كان 69 ريالا وثمن زيت الإنارة الذي بلغ 566 ريالا. ولم يكتف القائمون على الجامع الأعظم بإعداده ليجد المصلي راحته فيه بل جاوزوا ذلك إلى تعطيره، إذ تذكر إحدى الوثائق ثمن ماء الورد الذي يعطّر به الجامع الأعظم والذي وصل إلى 85 ريالا. كما سهر القائمون على الجامع الأعظم على توفير حتى الكماليات لقارئي الأحزاب والطلاب والمصلين، خصوصا خلال شهر رمضان، إذ تتحدث الوثائق عن ثمن الزلابية الذي قارب 940 ريالا[19].

غير أن الملاحظ أن هذا الاهتمام الكبير تجاوز الجامع الأعظم لينصبّ على البنايات والعيون والسواقي والبحاير الموقوفة لصالح الجامع. وتذكر إحدى الوثائق ثمن "قفل لدار النقجة" الموقوفة على الجامع الذي وصل إلى 22 ريالا وثمن "إصلاح سانية بحيرة بالحامة" بـ 50 ريالا، وثمن "بنيان البيت التي داخل الجنينة" بـ380 ريالا، وثمن "بنيان الدار الحمراء وباها" بـ 392 ريالا، وثمن "قفل حانوت ابن العرفي" بـ 132 ريالا، وثمن "بناء الفرن الذي بباب عزون" بـ63 ريالا[20]. وعليه

فبالسهر على بقاء الجامع الأعظم وعلى الأملاك الموقوفة لصالحه تمكن هذا الجامع من تأدية وظائفه الثقافية والدينية والاجتماعية.

ففي المجال الثقافي كان يؤدي 19 أستاذا وظيفتهم في تعليم الطلبة وتنويرهم، وكانت أجورهم تُقتطع من عوائد الأوقاف. ونظرا لوفرة هذه العوائد تمكن المشرفون على مؤسسة أوقاف الجامع الأعظم من إنشاء زاوية تابعة للجامع تدعى زاوية الجامع الكبير، وذلك على عهد المفتي سيدي سعيد بن الحاج إبراهيم سنة 1039هـ / 1629 – 1630م. وهي مقابلة له وتضم مسجدا بدون منارة ومدرسة وزاوية للعلماء الفقراء تضمّ طابقين ودورات مياه وعيون وأماكن للوضوء وعدة مواضع لإسكان العمال[21]. وبهذا كانت تضمن التعليم للطلبة وتيسّر لهم الدراسة وتضمن الإقامة للأساتذة.

كان الجامع الأعظم إضافة إلى ما يسّره للطلبة والأساتذة يشتمل على مكتبة غنية تضمن للدارسين الإطلاع على الكتب النفيسة، ويتحدث عنها دوفولكس نقلا عن حسين بن رجب فيقدر عدد كتبها سنة 1100 هـ بـ 300 كتاب. وقد اضطر القائمون على المسجد لنقلها إلى برج مولاي الحسن في أعالي المدينة لتفادي تلفها بفعل قَنبلة المدينة، وقد دام نقلها 3 أيام كاملة[22].

وفيما يخص دوره الديني فكان يتفرّع إلى دورين: الدور الديني الأول، حيث كان الجامع الأعظم بمدينة الجزائر مقرا للمجلس العلمي الذي كان يجتمع يوم الخميس للبتّ في القضايا الهامة التي لم يُتوصّل إلى حل لها في المحكمة[23]، وكان يفصل في النزاعات التي تنشب بين الأهالي ويفصل في القضايا الفقهية الشائكة، ولاسيما التي يختلف فيها القضاة عند التطبيق والتنفيذ. كما كان مرْكزا للمناظرات بين العلماء[24]، وكان يضم المفتيَين المالكي والحنفي والقاضيَين المالكي والحنفي وباش عادل وعادل وضابط سامي برتبة يايا باشي كممثل للسلطة العثمانية[25].

أما الدور الديني الثاني للجامع الأعظم فيتمثل في تأديته لمهامه الدينية في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين من جَمْعِ المؤمنين وتنويرهم بمقاصد الشّرع، ممّا جعل عددا كبيرا من الأهالي وبغيةً منهم في كسب الحسنات يلجؤون إلى توقيف جزء من أملاكهم على الحزّابين الذين يقرؤون القرآن الكريم لصالحهم أو لصالح أحد أقاربهم حسب الشروط المذكورة في عقد التوقيف: ظهرا وعصرا[13] أو بعد العشاء أو أيام الجمعة...الخ. كما أن هناك من يشمل بوقفيّته الحزّابين والمؤذنين بالجامع الأعظم[27].

كانت إذن مثل هذه الوقفيات حافزا للمسجد الأعظم ليضطلع بمهامه على أحسن وجه، وقد بلغ لدى الأهالي درجة من التقدير جعلت الحجاج يزورونه مباشرة بعد عودتهم من البقاع المقدسة تقديرا له ولدوره[28]. وقد حظي بهذه المكانة العالية رغم كون مدينة الجزائر تزخر بعدد كبير جدا من الجوامع.

أما فيما يخص دوره الاجتماعي فقد كانت الأموال التي يدرّها الوقف تُصرف في مناحي البر المختلفة من فقراء ومساكين ومحتاجين. وساهم بذلك في رفع الغبن ولو جزئيا عن بعض الأهالي المعوزين.

4. أهمية وثائق أوقاف الجامع الأعظم للإطلاع على طبيعة مجتمع مدينة الجزائر

إن وثائق الأوقاف تفتح لنا آفاقا واسعة لإعادة بناء المدينة على الشكل الذي كانت عليه خلال العهد العثماني، إذ تعددت الوقفيات من حوانيت وحمامات وكوشات وأفران وجناين ورقعات وبحاير في مختلف المناطق بمدينة الجزائر وفحوصها وحتى خارج الفحوص، ممّا يمكّننا من تصور المدينة وفحوصها آنذاك.

إن وثائق أوقاف الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة تعطينا نظرة عن جزء من شبكة الطرقات داخل مدينة الجزائر والتي لم تعد موجودة اليوم أو لم تعد أسماؤها القديمة متداولة، في حين هناك بعض الشوارع التي حافظت على التسميات القديمة

مثل زنقة القرينة، زنقة بن فارس، كما تذكر لنا الحمامات مثل حمام السبوعة، حمام سيزومورطو، والأسواق مثل سوق الشمّاعين وسوق الجمعة، والفنادق مثل فندق الزيت، فندق بكي مسلمان، والجوامع مثل الجامع الجديد، الجامع المعلق، والعيون مثل عين مزوّقة، عين السخونة، والآبار مثل بئر رمانة، بئر مراد رايس، والفحوص مثل فحص الحامة، فحص القانوس[29].

وعند دراسة المُحبسين نستطيع أن نستخرج عدة فئات كانت تتعايش في مجتمع مدينة الجزائر؛ منها العسكري وموظفو الدولة الكبار، رجال الدين، أصحاب الحرف، الأتراك والكراغلة، الحضر، القاطنين بالمدينة والوافدين من مدن أخرى وحتى من خارج الجزائر والنساء.

والملاحظ أن الوقف لم يكن مقصورا على شريحة دون أخرى، ففيما يخص الفئة الأولى أي العسكر نجد أن طبقة الأغوات الذين أوقفوا أملاكهم بلغ أربعة خلال القرن السابع عشر و1 خلال القرن الثامن عشر. والملاحظ أن جل الأملاك المُحبسة هي ديار. أما البلوكباشية والذين كان عددهم هو الأكبر خلال الفترة العثمانية[30] فنجد أحباسهم تصل إلى 8 وقفيات تتوزع بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[31]. أما المدفعيين فقد حبس واحد فقط هو عبد الرحمان باش طوبجي خلال القرن التاسع عشر[32]. كما أن هناك أحد العساكر المعتمدين بدار الإمارة المكرم مصطفى شاوش حبس جنة في بداية القرن التاسع عشر[33].

أما جنود الانكشارية فتصل وقفياتهم إلى ستة تعود إحداها إلى القرن السابع عشر وتتوزع البقية بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفي آخر السلك العسكري نجد جنديا بسيطا برتبة يولداش حبس جزءا من حانوت لفائدة الجامع الأعظم في بداية القرن التاسع عشر[34].

ولم يتخلّف الرياس ورجال البحر عن تحبيس ممتلكاتهم لصالح الجامع الأعظم، فقد وصل عدد وقفياتهم إلى 13 وقفية؛ 5 منها خلال القرن السابع عشر و5 خلال القرن الثامن عشر، وتنخفض بالنسبة للقرن التاسع عشر لتصل إلى 3 وقفيات فقط. ويفهم هذا من خلال تدهور حالة البحرية الجزائرية التدريجي[35].

أما عن موظفي الدولة من المدنيين فنجد عددا معتبرا من الوقفيات يصل إلى 35، تتوزع كما يلي: 1 في القرن السادس عشر، 7 في القرن السابع عشر، 10 في القرن الثامن عشر و13 خلال القرن التاسع عشر. ويتنوع الموظفون من باشوات وشواش بيت المال وموظفون برتبة دولاتلي وخزناجي وترجمان ووكيل الباي ووكيل الخرج...الخ. وهناك إلى جانب موظفي الإدارة المركزية أولئك الذين يديرون الأقاليم[36].

وإذا أطللنا على فئة رجال الدين فإننا يمكن أن نعُدَّ عشر وقفيات خلال الفترة العثمانية؛ 8 منها في القرن السابع عشر واثنان فقط خلال القرن التاسع عشر مع وجود فراغ بالنسبة للقرن الثامن عشر[37]. وقد يعود هذا إلى تدهور الوضع الثقافي في الجزائر، مما جعل رجال العلم ورجال الدين لا يمتلكون ما يمكن أن يحبس، وليس أدلّ على ذلك من كون المؤسسات الدينية والثقافية كانت تسيّر من خلال الأوقاف أمام ضعف مساهمة الدولة أو انعدامها.

أما أصحاب الحرف فقد كانت لهم مساهمة جد معتبرة في أوقاف الجامع الأعظم لمدينة الجزائر، إذ بلغ عدد وقفياتهم 54، منهم أمناء الحرف كأمين الكواشين وأمين البنائين وأمين الجرّارين[38]. إضافة إلى الأفراد مثل الخياطين والعطارين والصباغين...الخ[39]. وتتوزع هذه الوقفيات حسب القرون كما يلي: 3 في القرن السابع عشر و19 في القرن الثامن عشر و25 في القرن التاسع عشر.

أما فئة الأتراك والكراغلة فيمثلون مساهمة معتبرة بعسكرييهم ومدنييهم في أوقاف الجامع الكبير، فقد وصلت وقفياتهم إلى 89 وقفية، واحدة خلال القرن السادس عشر وواحدة بدون تاريخ و17 في القرن السابع عشر و32 في القرن الثامن عشر و37 في القرن التاسع عشر[40].

وكانت المساهمة الأهم هي مساهمة الحضر وسكان الفحوص، إذ بلغ عدد الوقفيات لصالح الجامع الأعظم 234 وقفية إضافة إلى القاطنين في المدينة الوافدين من أماكن أخرى مثل الحاج محمد فرويْ التلمساني[41]، الحاج قاسم العنابي[42]، محمد إمام بجامع غانم بشرشال[43]. ونجد حتى القاطنين بمدينة الجزائر والوافدين من وراء الحدود مثل الحاج محمد تطواني[44]، والحاج إبراهيم تونسي البقار[45]. وقد توزعت الوقفيات حسب القرون كما يلي: 7 في القرن السادس عشر، 26 في القرن السابع عشر، 103 في القرن الثامن عشر، ثم نلاحظ تراجعا خلال القرن التاسع عشر، حيث يصل عدد الوقفيات إلى 79، مع العلم أن هناك وقفيات لم تذكر سنوات حَبسها.

وكانت مساهمة الأندلسيين بسيطة تمثلت في 4 وقفيات فقط، وقد يعود ذلك إلى أنهم كانوا يَحبسون لصالح أوقاف الأندلسيين[46].

أما الفئة الأخرى التي كانت لها مساهمة جد هامة في أوقاف الجامع الأعظم فهي فئة النساء اللواتي كنّ يحبسن أملاكهن لصالح هذه المؤسسة وموظفيها. وقد وصل عدد الوقفيات إلى 138 وقفية. والملاحظ أن أغلب الوقفيات تخص الديار بـــ82 ثم الحوانيت 27 ثم الجنّات 19، الأحواش والأراضي والرقعات بـــ 6 وقفيات، وأخيرا البحيرات بـــ 4 [47]. كما نلاحظ أن المرأة في مدينة الجزائر كانت تحبس أكثر من المرأة في الفحص والتي وصلت مساهمتها إلى 5 وقفيات فقط مقابل 133 للمرأة الحضرية.

وتتوزع أوقاف النساء الخاصة بالجامع الأعظم على أربع قرون، فمنها 2 خلال القرن السادس عشر، 11 خلال القرن السابع عشر، 58 خلال القرن الثامن عشر، و67 خلال القرن التاسع عشر، إذ هناك تطور عددي من قرن إلى آخر. وكانت النساء المُحبِسات من مختلف عناصر التركيبة السكانية لمدينة الجزائر، فهناك 25 امرأة تركية أو كرغلية والبقية من الحضر القاطنات في مدينة الجزائر، ومن 25 امرأة هذه نجد بنات وزوجات الشخصيات الإدارية وقادة الجيش ورياس البحر.

أمام كل هذه المساهمات تبقى مساهمة الأهالي الجزائريين في أوقاف الجامع الكبير بمدينة الجزائر هي الأهم، حيث تبلغ 234 وقفية، تليها أوقاف النساء بـــ138 ثم الأتراك والكراغلة بـــ 89 فأصحاب الحرف بـــ 54 ثم موظفي الدولة الكبار بـــ 35 ثم الجند بـــ 20 فالرياس بـــ 13 ورجال الدين بـــ 10. وتأتي في المرتبة الأخيرة فئة الأندلسيين بـــ 4 وقفيات فقط.

الهوامش:

1. Waille. V, autour des mosquées d'Alger in R. A, T43, 1899, p 8.

2. Devoulx. A, les édifices religieux de l'ancien Alger, Alger Typographie Bastide, 1870, p 94.

3. Ibid, p 96.

4. Ibid, p 96 - 97.

5. Ibid, p 105.

6. Busson de Jansens. G, Contribution à l'étude des Habous publics Algériens. Thèse de doctorat, Alger, 1950, p 32.

7. SAidouni. N, «les biens Wakfs aux environs d'Alger », in Varia Turcica, XXVI, Istanbul, p 105.

8. Busson de Jansens. G, op. Cit, p 32.

9. Ibidem.

10. Devoulx. A, op. Cit, Pp 98 – 99.

11. سعد الله، قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843، موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط2، بيروت، 1990، ص 11 – 12.

Busson de Jansens. G, op. Cit, p 87.

12. سعيدوني. ن، "موظفو مؤسسة الأوقاف بالجزائر في أواخر العهد العثماني من خلال وثائق الأرشيف الجزائري"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 57 – 58، جويلية 1990، ص 176.

13. Devoulx. A, Op. cit, Pp 122 – 123.

14. سعد الله، أ، تاريخ الجزائر الثقافي.

15. الطحطاحات أي ساحات المسجد.

16. سلسلة بيت البايلك، علبة 12، سجل رقم67، سنة 1168 هـ.

17. Chergui. S, « l'entretien et la conservation du patrimoine religieux d' après les documents Wakfs (XVIes – XIXes) cas de la grande mosquée d'Alger », in Dirassat insania, numero special, Université d'Alger, 2001 – 2002, Pp 156 – 157.

18. البيّاضين أي الذين يطلون الجدران بمادة الجير.

19. سلسلة بيت البايلك، علبة 12، سجل رقم 67.

20. نفس المصدر.

21. Devoulx. A, Op. cit, Pp 123 – 124.

22. Ibid, Pp 99 – 100.

23. Venture de Paradis, "Alger au XVIIIes." In R. A, 1897, Pp 106 – 107.

24. سعد الله. أ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 258.

25. Devoulx. A, Op. cit, Pp 98 – 99.

26. سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 10 – 1، الوثيقة 51، سنة 1141 هـ. وتمنح هذه الوقفية 6 ريالات للحزّابين.

27. سلسلة المحاكم الشرعية، علبة 3، سنة 1832 - 1833.

28. Haedo. F ; D, « Topographie et histoire générale d'Alger » in R. A, 1871, p 273.

29. التميمي. ع، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، منشورات المجلة التاريخية المغربية، عدد 5، تونس 1980، ص 28 – 56.

30. كان المرور من مرتبة بلوك باشي إلى رتبة ياياباشي لا يتم إلاّ لصالح 6 أفراد في السنة، ممّا جعل هذه الفئة جد معتبرة.

31. التميمي. ع، الوثيقة، ص 39، 40، 51، 47، 29، 32.

32. نفس المصدر، ص 55.

33. نفس المصدر، ص 45.

34. نفس المصدر، ص 44.

35. نفس المصدر، ص 50، 52، 53، 54.

36. نفس المصدر، ص 44، 46، 39، 35، 28، 31.

37. نفس المصدر، ص 36، 35.

38. نفس المصدر، ص 36، 33.

39. نفس المصدر، ص 38، 47.

40. نفس المصدر، ص 28 – 55.

41. نفس المصدر، ص 39.

42. نفس المصدر، ص 47 – 48.

43. نفس المصدر، ص 42.

44. نفس المصدر، ص 52.

45. نفس المصدر، ص 48.

46. نفس المصدر، ص 31 – 37.

47. لمعلومات إضافية عن أوقاف النساء، انظر: غطاس. ع، إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر.

48. التميمي. ع، الوثيقة، ص 38، 39، 40.

إعداد الأستاذة : سعدية سرقين

لقد حرص الحكام العثمانيون في الجزائر دوما على التعاون لكسب أصحاب الطرق الدينية طوال فترة التواجد العثماني وهذا ما ولد نوع من التحالف بينهما، وكان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى أنواع الوسائل كبناء الأضرحة والزوايا والوقف عليها. حسب سعد الله إن ضعف مستوى التعليم الذي كان سائدا مهد انتعاش الطرق الصوفية على اختلاف اتجاهاتها[1] كما مهد لوضع السياسة الأرضية لظهور المرابطين وانتشار الأضرحة والقباب ومزارات الأولياء حيث يتحدث سعد الله عن انتشار التصوف في المدن والأرياف خاصة في المدن الكبرى كبجاية وتلمسان. ووهران وقسنطينة ومدينة الجزائر وأصبحت بعض المشاهد مألوفة حيث يوجد أناس يتبركون ويزورون ويتقربون ويقيمون الحضرة كما لا توجد قرية أو مدينة بدون العديد من الزوايا والأضرحة حتى أن، الجزائر قد غرقت في الدروشة وعم التصوف[2] كما تكاثر أوقاف المرابطين في مدينة الجزائر وفحصها وكذلك بالنسبة لباقي مناطق الجزائر كانت مؤسسة الوقف قد أخذت على عاتقها رعاية حاجات المشتغلين بالتعليم والمدارس والأضرحة والزوايا[3]. تعتبر دار السلطان النموذج المتطور بالنسبة لبقية الأقاليم الجزائرية الأخرى.

كان عدد الأضرحة في مدينة الجزائر تسعة عشر ضريحا[4] كان لهذه الأضرحة عدد كبير من الموردين ثمانية عشر منها تقع داخل مدينة الجزائر وواحد هو ضريح لسيدي ابن علال أغمون بمنطقة القبائل الكبرى[5].

لقد بلغ عدد الزوايا في مدينة الجزائر اثنتي عشرة زاوية في عام 1830 إلا انه انخفض في عام 1862 ليصبح خمس زوايا فقط حسب ديفول[6]. إلا أن التعفن في

الأحوال السياسية دفع بحركة التصوف إلى الانتشار داخل البلاد وأسس أتباع المرابطين زوايا لهم في الأرياف ظل بعضهم قائما إلي يومنا هذا[7].

الزوايا :

إن هذه الزوايا قد تولت عبئا كبيرا كان من اختصاص الدولة. وكانت أغلب الأراضي بضواحي المدن موقوفة وقفا خيريا ومخصصة أساسا للأنفاق على الزوايا والمساجد والأضرحة كما كان اتباع الزوايا يقومون بتوفير حاجة زواياهم برعاية شيوخها وخدماتهم والتابعين لها كزوارها وهكذا لم ير الناس ضرورة تخصيص أوقاف للإنفاق عليها بالا خص القريبة من المدن ولا ضرورة تحبيس للحفاظ عليها[8]

وترتكز هذه الأراضي الموقوفة حول المناطق التي تأثر أهلها بالطرق الدينية والزوايا [9] كما ان هذه الزوايا لم تتمكن في كثير من الأحيان من مقاومة الزمان فاندثرت.

في المناطق الجبلية والنائية مثلا تكفل السكان بالإنفاق على المساجد والمدارس، والكتاتيب، كثيرا ما تحبس الأراضي المجاورة للزوايا لإطعام رجالها والمترددين عليها وعادة ما تفرض الزاوية ضريبة العشر على جيرانها، إلا انه لم يكن لهذه الضريبة الطابع الإجباري[10] .

وقال أحد الكتاب الفرنسيين انه كان يوجد بالجزائر عدد كبير من المدارس[11] وما يلاحظ أن هناك نوع من التداخل بين دور الزوايا والمدارس[12] ولذلك سنذكر كل من الزوايا والمدارس.

- زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي تقع قرب ضريحه بباب الواد[13]
- امسيد الديوان أو مدرسة الديوان والمجاورة لقصر الجنينة وكان دخلها 54 فرنكا
- أمسيد ابن السلطان حسب وثيقة تعود إلى عام 1008هـ- 1599-1600
- مدرسة مجاورة للمقبرة المسماة بمقبرة علي باشا.

- زاوية المسجد الأعظم التي بنيت من فائض عائدات أوقاف المسجد الأعظم

وتتكون هذه الزاوية من طابقين من الغرف ومرافق أخرى بنيت في عام 1039 هـ 1629م. 1650 م. من طرف المفتي المالكي سيدي سعيد ابن الحاج إبراهيم وقد بلغت تكاليف هذه الزاوية ومرافقها 4500 دينار جزائري وقدرت أملاك الجامع الأعظم بـــ 12000 فرنك، وعائداته السنوية قدرت 160 ألف فرنك إلا آن هذه العائدات قد انخفضت في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال، إلا إن هذه الزاوية تميزت بمكانة خاصة من حيث أهمية مردود اوقاف المسجد التابعة له.

- زاوية كتشاوة
- زاوية المرسى.
- زاوية الانكشارية.
- زاوية سيدي هلال بباب الواد الذي يبدو أنه عاصر استقرار الأتراك بمدينة الجزائر.
- زاوية شيكتون بالقصبة.
- زاوية سيدي الصيد.
- زاوية مسجد السيدة التي بناها البيت ألمالجي صاري مصطفى بن الحاج محمد في عام 1703 م ونواصل عرض الزوايا دائما حسب ديفول.
- زاوية سيدي بخة.
- زاوية الإنكشارية القديمة
- زاوية موزوتو
- زاوية الأندلس بمدينة الجزائر

- زاوية سيدي رمضان.
- امسيد الغولة. عثر ديفول على وثائق تخص هذه المدرسة ترجع إلى عام 1197 هـ 1782م جاءت تسمية الغولة لأن هذا المسيد يقع بجوار دار يقال عنها أنها تسكنها أشباح.
- زاوية سيد علي بن موسى أفوناس أو البقرة في منطقة المعاتقة الذي جاء في القرن التاسع من الساقية ا لحمراء تقع هذه الزاوية على الطريق الذي يؤدي إلى ذراع الميزان قرب تيزي وزو داخل قبيلة المعاتقة قدر دفول وقف هذه الزاوية بـ 480 شجرة زيتون و340 شجرة التين وأراضي صالحة لزراعة وأقيمت لهذا الوالي قبة بعد وفاته في القرن الثاني عشر هجري أحرقت في عام 1268 هـ وأعيد بنائها في عام 1269 هـ 1852م
- زاوية الأشراف ويقول ديفول دائما أن داي الجزائر محمد بقطاش بنى زاوية مخصصة للأشراف بشارع الجنينة عام 1221 هـ 1702م بمدينة الجزائر وأنها حظيت بأوقاف كثيرة.
- زاوية سيدي محمد الشريف كسب هذا الوالي احترام كبيرا من قبل سكان مدينة الجزائر توفي عام 940 هـ 1521م حسب الكتابة الموجدة على ضريحه.
- زاوية سيدي الجودي، وتعود هذه الزاوية إلى تاريخ1081هـ 1670م تتكون هذه الزاوية من مقبرة عمومية كبيرة ومسجد من الدرجة الثانية تعود هذه الزاوية إلى1081هـ 1670م1671م.
- زاوية مولاي بوعنان 1110 هـ 1698م- 1699م بمدينة الجزائر.
- زاوية بن سيدي الشيخ أيوب الموجودة بمدينة الجزائر والمتكونة من مقبرة

وضريح وأشير إليها من خلال العقود المؤرخة في، 1116 هـ- 1705م- 1706م، 1136هـ 1723م- 1724م، 1189هـ. 1775م 1776م ويقول ديفول أن وكيلها الحالي هو سيدي احمد الكزاز ابن سيدي أ يوب تبعا لعقد يرجع إلى عام 1215 هـ -1801م 1800م كان منصب الوكيل في هذه الزاوية وراثي داخل عائلة [illegible]ب تميزت هذه الزاوية بات[illegible]ع رقعتها [14].

- زاوية الغبريني.
- زاوية إبراهيم التازي بوهران اتخذ زاويته مقر لنشاطه والذي تحدث عنه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل في عام 871 هـ.
- زاوية محمد بن حبار المسعودي الفحيحي التلمساني أنشأها في بلاده حلوش وتوفي في عام 950 هـ وأوقفوا عليه الأوقاف.
- زاوية الشيخ الشليحي التي أنشأها له الباي حسن بوحنك في أولاد عبد النور بقسنطينة
- زاوية بومسعود.
- زاوية بني مقران يقول سعد الله أنها تواجدت في الجزائر الشرقية في سنة 1093هـ- 1112 هـ
- زاوية احمد بن يوسف الملياني برأس الماء يقال عنه أنه كان يستقبل الضحايا ويقال أنه أيضا أنه كان يحمي مدينة بجاية ضد الأسبان وأن زاويته كانت ملجأ للمجاهدين وغزاة البحر توفي في عام 931 هـ وأعفيت زاويته من الضرائب
- زاوية محمد التواتي الذي دفن ببجاية. يقال أن تلك الزاوية نزل بها قائد الغزوة التركي كمال رايس سنة 901 هـ وحسب سعد الله ذكرته كل من المصادر الجزائرية والعثمانية.

- زاوية أبو الغيث تلقى العلم في قسنطينة وتونس وبنى زوايا عديدة وكان يقدم المال لتحرير الأسرى المسلمين الذين يقعون بقبضة الناصرى وفي ترميم المساجد وفي صرفه على الفقراء والمساكن.

- زاوية محمد عاشوز ويقال عنه أنه كان يعتق الرقاب ويفدي الأسرى ويطعم المساكين ويحبس الأحباس على المساجد.

- زاوية عبد الرحمن الأخضري في بنطوس أعفيت من الضرائب من طرف باي قسنطينة.

- زاوية سيدي بومدين قدرت أو قافه بـــ 23 وقفا بمنطقة تلمسان سنة 960هـــ- 1500م.

- قد استفادت هذه الزوايا من دخل تلك الأوقاف. زالت هذه الزوايا بزوال أصحابها ولم يبق من شهرتها سوى بعض القباب والمساجد أو الأساطير والذكريات الموجودة لدى الناس. ويذهب بعض مرابطي الجزائر إلى القول أن أصولهم أندلسية ولا سيما مرابطو بلاد زواوة مثل عائلة ابن علي الشريف والصهاريدي وانهم قدموا من الساقية الحمراء مثل بعض العائلات من دلس وشرشال وبني مناصر وجرجرة وأولاد ابن القاض[15].

(الزاوية حسب تعريف ديفول هي مؤسسة تعليمية يتفرغ فيها المرابطون للتعليم وإيواء الطلبة الذين يزاولون دروسهم والعلماء والغرباء والمتشردين والمعوزين. الزاوية هي أيضا بناية قد تكون صغيرة أو كبيرة تحتوي على عدد من الغرف الظيقة المنخفضة كما تحتوي على مرافق أخرى كالمراحيض والعيون).

لقد كان من واجب الزوايا والأضرحة ممارسة الضيافة اتجاه المسافرين والغرباء الأجانب المسلمين وحتى الخارجين عن القانون منهم اللاجئين إليها، ناهيك عن إيواء وإطعام الطلبة والعلماء والمعوزين الغير قادرين على الحصول على سكن يخصهم[16]

وزورها الذين يترددون عليها. كما لا ننسى العمال الساهرين على رعايتها وصيانتها من وكلاء وغيرهم إلا أن هؤلاء الوكلاء لم يتمتعوا بمرتب قار وكاف، الشيء الذي يدفعهم إلى البحث عن مصادر رزق أخرى قد تكون على حساب أوقاف المؤسسات التابعة لهم.

كانت مهمة الوكيل في أي مؤسسة حظيت بأوقاف هي الإدارة، والتسيير، والحرص على جمع المداخيل بشتى أنواعها النقدية والعينية، وإدارة النفقات وضبط الحسابات، وأجور العاملين بالمؤسسة، كما هو مطالب بتقديم تقارير أمام الهيئة العليا آلا وهو المجلس العلمي. فمن المؤكد انه كان لهذه الزوايا دخل يمكنها على الأقل من أداء واجبها ويبدو أن غنى أو فقر الزوايا يترتب عن مدى سخاء أتباعها وفيما يخص العمال الساهرين على الزوايا اقتصر على الوكلاء، والأئمة، والحزابين، والقراء، مثل ما جاء عند سعيدوني بخصوص زاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي[17]. ولا ننسى أن هذا الوالي قد تمتع بشعبية نادرة استمرت إلى يومنا هذا ونتساءل هل توفر نفس النوع من العاملين بها لدى باقي الزوايا ؟ كما أننا نعلم انه كان يوجد فرق بين زوايا المدن وزوايا الأرياف[18] أولا. وثانيا إن مكانة الزاوية مرتبطة بمردود ها المالي الذي يرتبط هو الآخر بمكانة وشعبية الوالي أو المرابط. وحسب سعيدوني فإن أتباع الزوايا كانوا يراعون حاجياتها وخدمة شيوخها ولهذا لم يروا ضرورة تخصيص أوقاف للإنفاق عليها إلا آن هذه الزوايا تميزت ببساطتها وفقرها وأكثر من هذا أنها غير لائقة بمقام العلماء[19].

الأضرحة :

إن قباب الأضرحة ومزارات الأولياء أصبحت تنتشر في كل مكان[20] بسبب انتشار التصوف. يقول سعد الله انه ما لم يكتب ولم يدون أكثر بكثير مما كتب

وذكر[21] وبالتالي يصعب علينا إحصاء الأضرحة والقباب إذ يقال أنه لم تخلو قرية ولا مدينة من العديد من القباب والأضرحة على سبيل المثال قدر عدد الأضرحة بمدينة الجزائر بـــ 32 ضريحا ومصدرنا هنا أيضا ديفول. بذكر البعض من الأضرحة وان كان أغلبها قد زال مع زوال أصحابها ولم يبق منها قائما إلا القليل ولا تفوتنا الإشارة إلى بعض القباب والأضرحة التي تحظى بعدد المرابطين لأنني أعتقد أن لكل مرابط، ولكل والي، ولكل شيخ، ضريح أو قبة.

(الضريح هو مكان يأوي قبر المرابط أو الولي الصالح ويرفق بمسجد وبمرافق أخرى يتكون عادة من حجرة منخفظة مربعة الشكل تعلوها قبة، كما يزين الضريح بزرابي وأعلام متعددة الألوان).

- سيدي عبد الرحمان الثعالبي :

نظرا لتصدر ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي قائمة الأضرحة ولشهرته الكبيرة أردنا آن نعطي لمحة وجيزة عن حياة" عبد الرحمان الثعالبي ":

ولد عبد الرحمان الثعالبي الجعفري سنة 785هـــ / 1384م بواد يسر وينتمي إلى قبـــيلة الثعالبية وهي قبيلة شهيرة كانوا أمراء على مدينة الجزائر في نهاية القرن 8 هـــ و4م، فتنقل عبر أهم المدن الجزائرية وأقطار عديدة من العالم طلبا للعلم حيث تلقى العلم في كل من مسقط رأسه تلمسان وبجاية ثم تونس، ومصر، وتركيا، والحجاز، فتتلمذ على يد كبار علماءها ومشائخها كما مارس التدريس والإرشاد وأقيمت له زاوية بتركيا لازالت قائمة تؤدي رسالتها العلمية إلى يومنا.

كمـــا زار الحجاز بالإضافة إلى أداء فريضة الحج تتلمذ عند البعض من علماءها وزار المديـــنة المنورة ودرس في المسجد النبوي الشريف فختم رحلته الحجازية ليعود لكـــل من مصر وتونس إلا أنه لم يمكث إلا سنتين في مصر مواصلا رحلته الثانية إلى

تونـــس الحفصية فتتلمذ على يد الشيخ أبا عبد الله القلشلاني والبرزلي البخاري كما درس في جامعة الزيتونة[22].

بعد غياب طويل عن الجزائر دام حوالي 20 سنة عاد إلى الجزائر ليستقر في الجزائر أواخر عام 820 هــ/1417م ومكث بها إلا أن وافته المنية[23].

اهتماماته :

الـــتدريس، الحديث، التفسير، الأدب، اللغة وتتلمذ على يد الكثير من العلماء والمشائخ أشهرهم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف، ومحمد بن يوسف السنوسي وغيرهـــم مثل التالوتي ومحمد ين عبد الكريم المغيلي ومن الأجانب تتلمذ على يد ه عـــبد الباســـط ابـــن الخليل بن شاهين المالطي كما تولى وظائف أخرى إلى جانب الـــتدريس كالقضاء ومشيخة مدينة الجزائر إلا أنه تخلى عن هاتين الوظيفتين وعاد لمهمة التدريس والإرشاد والتأليف حوالي تسعين مؤلف[24].

- سيدي عمر التنسي.
- *سيدي الشاذلي الذي كان له أثرا هو الاخر.*
- سيدي محمد الواضح دفين بجاية.
- سيدي محمد بن يوسف السنوسي. ألف كتب غزيرة.
- سيدي أحمد المليانى.
- سيدي سالم التجيني 1234 هـــ 1818م.
- ســـيدي إبراهـــيم التازي بوهران ظهر قبل الوجود العثماني أخذ العلم في مصر والحرمين والقدس ودمشق [24].

- سيدي بومدين بتلمسان ويعود إلى عام 960 هـ 1500م.
- سيدي محمد الشريف الزهار حبس على ضريحه بستان قرب باب الجديد.
- سيدي أحمد بن عبد الجبار المسعودي الفجيجي التلمساني كانت له علاقة طيبة مع العثمانين كما كانت له زاوية خاصة به وأنشأ مسجد وبيت للفقراء.
- *سيدي محمد بن المغوفل أوائل القرن العاشر الهجري.*
- الشيخ العبدلي بتلمسان.
- الشيخ الشلجي بقسنطينة وقعت له كرامة مع باي قسنطينة حسن بوحانك الذي أعطاه قصرا الذي أصبح يعرف بدار الشلجي وأسس زاوية معفاة من الضرائب.
- سيدي عبد الرحمان الأخضري بنطيوس بقسنطينة.
- الشيخ احمد بوعكاز بقسنطينة.
- ضريح علي مبارك بالقليعة.
- مشهد الوالي بن عودة.
- الوالي أحمد بن يوسف.
- سيدي عيسى بن سيدي مؤمن ومرابطي أولاد جيدي.
- سيدي على بن محمد الشريف.
- سيدي أحمد الملياني بن علي الخروبي.
- سيدي بن مريم البطيوي.
- سيدي المغراوي.

- سيدي أحمد الورنيدي.
- الشيخ عبد الرحمان اليعقوبي الورتلاني ولقد تعرض الورتلاني في رحلته للحديث عن المرابطين والصالحين والشرفاء وعددهم حوالي 50 منهم في جبل زواوة وحوالي 20 في بجاية وتلمسان.
- سيدي قاسم أم هاني نواحي امقاوس.
- الشيخ محمد الحاج امدكال.
- الشيخ طراد وأتباعه.
- سيدي محمد الساسي البوني عنابة وضواحيها.
- سيدي مولاي اللاتي التلمساني.
- سيدي أحمد بن بوجلال التلمساني.
- سيدي أحمد بن بوزيد الأوراسي.
- سيدي علي العابد الشابي دقن في عنابة.
- الشيخ مخلوف بقسنطينة.
- الشيخ أبوالغيث.
- الشيخ موهوب بن محمد بن علي الزواوي. ويقال عنه أنه أطعم الفقراء ويمشي مع القوافل ليؤمنها ومراقبة الامن.
- سيدي محمد بن عبدلي.
- سيدي عبد القادر اسماحي.

- سيدي بلقاسم بن صابر.
- الشيخ أحمد بن ملوكة التلمساني يقال عنه أنه دعى على عروج لكي لا يعود إلى تلمسان ولقي حدفه هناك
- الشيخ بن حمود العيساوي.
- الشيخ أحمد بن بوزيد الأوراسي[25]

أهمية أوقاف الزوايا والأضرحة :

بفضل تواجد الأوقاف وما يترتب عنها من مدا خيل استطاع حكام الجزائر العثمانيون من سد حاجيات المصالح التعليمية والثقافية وغيرها من المصالح الضرورية للحياة والتي لم يكن الحكام يحرصون على توفيرها ولم تكن الخزينة العامة تهتم بالأنفاق عليها، ولم تقتصر ظاهرة الأوقاف على مدينة الجزائر بل انتشرت في أغلب جهات الوطن الجزائري واشتهرت مدن كثيرة بأوقافها. من جهة الغرب تلمسان مازونة ومعسكر بينما نجد في الشرق قسنطينة عنابة بجاية أما في الوسط مليانة القليعة البليدة[26].

- يصعب علينا ضبط وتقدير أوقاف الزوايا والأضرحة وإن عثرنا على شئ ضمن وثائق الأرشيف الوطني بمختلف أنواعه فهو غير تام وما يفسر شح معلوماتنا ودائما حسب الأرشيف الوطني لقد تنوعت الأوقاف بتنوع أصحابها ومكانتهم الاجتماعية والمهنية، مثلا بالنسبة لضريح عبد الرحمان الثعالبي حسب الأرشيف الوطني تمثلت أوقافه إلى حوالي 20 دار و11 عشر جنة و6 أحفر معدة لصناعة الدباغة، و5 علويات و6 رقايع وحانوتين، و3 جلسات حوانيت، و3 مخازن، ،شطر مخزن اصطبل وخزان. في حين يقدرها سعيدوني إلى 82 وقف يخصص

لصيانة ورعاية حاجيات الزاوية والضريح وقدر دخل سيدي عبد الرحمان الثعالبي في عام 1837 بـــ6000 فرنك وحدد عدد الأوقاف التابعة له عشية الاحتلال الفرنسي ب82 وقفا بعد أن كان 11 وقفا في القرن الثاني عشر هجري كان البعض من هده الأوقاف يأتي من خارج الجزائر حيث تعدت شهرة الولي حدود البلاد لتصل إلى بلدان أخرى من المغرب وإفريقيا خاصة تونس التي كانت ترسل سنويا حمولات من زيت الزيتون أما من حيث عدد العاملين ونوعيتهم فنجد مثلا انه كان يعمل بضريح سيدي عبد الرحمان وكيل و3 شواش 3 حزابين 4 قراء وخادمة وفراش بالإضافة إلى شيخ الحضرة. أسماء لبعض وكلاء ضريح سيدي عبد الرحمان وهم عبد القادر 1037 هـــ/1687 م تولى التوكل سيدي محمد 1130 هـــ/1817 م وتعاقب على الضريح وكيلين في نفس السنة 1828م/1813 م هما السيد محمد والسيد الحاج محمد خوجة [27].

- ويقول سعيدوني أن أوقاف سيدي الجامعي بمدينة الجزائر قد قدرت بـــ 25 وقفا. كان البعض من هذه الأوقاف يأتي من الخارج حيث تصل بعض حمولات من زيت الزيتون من منطقة تونس [28].

أما في منطقة القبائل فقد قدرت أوقاف سيدي علي بن موسى أفنس وبالضبط في منطقة المعاتقة في الطريق الذي يؤدي إلى ذراع الميزان قرب تيزي أوزو و، حيث يقدر ديفولكس كما سبق وان أشرنا أن وقف هذه الزاوية كالتالي.

يقدر بـــ 480 شجرة الزيتون و340 شجرة من التين وأراضي صالحة للزراعة[29].

كما قدرت أوقاف سيدي بومدين بـــ 23 وقفا بمنطقة تلمسان وضواحيها سنة 960 هـــ 1500 م حسب وثيقة تعود إلى عام 960 هـــ. 1500 م [29] وسنأتي ببعض النماذج عن نوعية الاحباس الموقوفة عن الأضرحة.

حسب أرشيف المحاكم الشرعية حبس 3 أرباع من جملة أملاك لصالح سيدي رمضان.

ودائما حسب نفس المصدر حبس فندق على الشيخ الوالي دادة ودائما نفس الوالي رسم كراء ومخزنين.

كما حبس على ضريح سيدي بن مبارك حانوتي ودار.

وجاء في إحدى وثائق بيت البايليك ما يلي :

نصف دار ابو طوبة في سوق الجمعة والربع للجامع الأعظم والربع للوالي الصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي.

مما يدل على تنوع هذه الأوقاف أيضا تلك الأمثلة.

بستان الذي حبسه سيدي احمد التركي ببئر طرارية لصالح سيدي عبد الرحمان الثعالبي بتاريخ أول جماد سنة 1230 هـــ.

ودائما لصالح نفس الضريح حبس بستان بجيدرة سنة 1227هـــ.

وبستان آخر لصالح ضريح سيدي الشريف الزهار سنة 1128هـــ 1769م[30].

يقول ديفول في حديثه عن إحدى الأضرحة أن المصاريف العادية للضريح هي تبييض المكان مرتين في السنة كما يحتاج إلى 60 رتل من الزيت في الشهر- 25 رطل من السكر للماء الحلو والمشروبات أما بالنسبة للاحتفال بالمولد النبوي كانت الزاوية تطعم كل المعوزين الذين يقدمون ويأتون إليها في هذه المناسبة كما يتم ذبح ثورين ويستعمل 18 كيلة من القمح و30 رطل من الزبدة و10 حمولات من الخشب.

كما كانت مصلحة الأوقاف تسهر على صيانة ورعاية المؤسسات المستفادة منها وضمان سيرها الجيد كالإنفاق على خدماتها وحاجياتها اليومية.

هذا بالإضافة إلى التصدق على فئات من المجتمع الجزائري كما لا ننسى تلك التي تعيش من مدا خيل الأوقاف كرجال سلك الدين والمصالح الثقافية، كالإنفاق على القائمين على بيوت الله كالمساجد والأضرحة والزوايا.

أما المصالح التعليمية تتكفل بكل من لهم علاقة بالتعليم من فقهاء ومعلمين وطلبة ومدرسين. أما المصالح الاجتماعية فمهمتها مساعدة الفقراء ،والمعوزين ،واليتامى، والأرامل وعابري السبيل، والأجانب المسلمين. ويضيف سعد الله أن بعض الزوايا اليوسفية والقادرية والتيجانية والزيانية وغيرها قد امتلكت الثروة وتوافدت عليها الهدايا والعطايا كما كانت تأخذ الأموال والزكوات والجبايات. هذا ولقد علمنا أن بايات قسنطينة قد أعفوا عدد من الزوايا والأضرحة من الضرائب وقد عرف عن العثمانيين سخائهم اتجاه رجال الدين عامة والمرابطين خاصة حيث كان بعض الباشاوات يمنحون في مناسبات معينة جزء من جزية أهل الذمة إلى الأشراف والعلماء والمرابطين[31] .

دور الزوايا والأضرحة :

ما يلاحظ هو نوع التداخل في المهام بين المساجد والزوايا،والأضرحة ،حيث أرفقت اغلب المساجد بزوايا، والزوايا بمساجد، والأضرحة بمصليات، كما أن كل من الأضرحة، والزوايا، والمساجد، حرصوا على التكفل بالمجتمع الجزائري روحيا أولا ثم تثقيفيا وماديا ثانيا، ونأخذ عينة عن إدارة الأوقاف في دار السلطان التي تعتبر نموذجا متطورا لبقية الأقاليم حيث حظيت مدينة الجزائر وحدها بأكثر من مائة مسجد على اختلاف اتجاهاتها وأحجامها ومكانتها لدى السكان، ناهيك عن التسعة عشر ضريحا[32] بينما يقدرهم ديفولك باثني وثلاثين ضريحا ولا ننسى الاثنتي عشر زاوية المتواجد ة في مدينة الجزائر دائما حسب ديفول[33].

ويقـــول التميمي آن المسجد الأعظم كان يتميز بوضعية خاصة فيقول أن مهامه قد اتســـعت إلى مهام سياسية وانه كان مرآة الرأي العام في الجزائر.كما أشار إلى كثرة الأساتذة وعددهم أربعون أو اكثر من هذا فان بعض المساجد خصصت جزءا من أحباسها لدفن الطلبة والعلماء[43] كما تكفلت مؤسسات الأوقاف الأخرى كالزوايا والأضـــرحة بـــنفس المهام. أما مدينة قسنطينة فقد حظيت هي الأخرى بالعديد من المســـاجد والزوايا والمدارس 35 مسجدا 169 زاوية و7 مدارس بلغ عدد تلاميذها 600 منهم من كان داخل المدينة ومنهم من كان في أريافها فضلا عن المنحة السنوية الـــتي قدرت بـــ 36 فرنك للطالب بالإضافة إلي الإعانات العينية[35]. وبناءا على ما جـــاء نستخلص أن الأضرحة والزوايا حاولتا بصفة فعالة رفع الجهل والتخفيف من عناء الفقر.

الهوامش :

1. عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر منشورات المجلة التاريخية المغربية. عدد 5. تونس، ص 13-1985.

2. أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الأول. 1500-1830. ص476. دار الغرب الاسلامي. بيروت 1998.

3. ناصـــر الديـــن سعيدوني، دراسة تاريخية الفترة الحديثة، ص 255، 277. دار الغرب الاسلامي بيروت 2001.

4. A.AUMERAT, la propriété urbaine à Alger. revue Africaine.1897,pp 328. office des publicités universitaires .

5. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع، ص 277.

6. A. DEVOULX, Les Edfices Religieux de l 'ancien Alger, in R.a. 1862 pp. 372.

7. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 463.

8. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع، ص ص 246، 277

9. A. DEVOULX, Op cit-in R a, 1862, p. 380.

10. أبو القاسم سعد الله ، نفس المرجع، ص 460-464.

11. A.. DEVOULX, Op. cit, 1865, pp.443-445, pp49-53, 1870, pp177-185,1874, pp81-88,pp. 207-210.

12. N. SAIDOUNI, le waqf dans le Monde Musulman Contemporain (XIXe -XXe Siécle)Fonctions Sociales Economiques et Politiques

.Actes de la table ronde d'Istanbul, 13-14 novembre 1992.

Institut Français D études, 3 Anatoliennes Istanbul, 1994 .p. 105.

13. A. DEVOULX, Op, cit. Ra, 1867, pp. 49-54-207.

13. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 462-462.

14. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 462.

15. A. DEVOULX, Op .cit, in R a 1862, p.380.

16. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص277.

17- A.DEVOULX,Op, cit, in Ra, 1862, p.382.

18. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص 255.

19. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع. ص 426.

20. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص 277.

20. A.DEVOULX, Op, cit, 1862, pp.186-449.

21. A.DEVOULX,Op, cit, 1867, pp.470.

22. بن ميمون محمد الجزائري التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقـــيق محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981م ص 334 ص ص 336-339 ص341.

23. الجيلالي عبد الرحمان ، تاريخ الجزائر العام ، جـــ 2، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية 1994، ص ص 263 –264 ص331.

24. عـــبد القادر نور الدين، 1670 ص ص 171-172، صفحات تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها غلى انتهاء العهد التركي، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1985.

25. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص 277.

26. أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع. ص 476-438-764.

27. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص245-277-66.

28. م. ش.ع. 4-1 و59 / 140 و49 / 72-93 و09/ 20-2 و39-6/ 54-10/196-197/ 59-107 / 132-133-19 / 18-1.

29. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع.

30. وثائق بيت البايليك، علبة 68 إلى 69، سجل 153.

31. A.DEVOULX,Op, cit, 1862, pp.372.

32. عبد الجليل التميمي، نفس المرجع. ص12-21.

33. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص 222-223.

34. A.DEVOULX, Op, cit, 1862, pp.370-371.

35. ناصر الدين سعيدوني، نفس المرجع. ص237-238.

فهرس المواضيع

الفصل الأول : ظهور الدولة الجزائرية الحديثة

الفصل الثاني : النظم السياسية والعسكرية

المبحث الأول : النظم السياسية

المبحث الثاني : الجيش الإنكشاري

الفصل الثالث : النظم الإدارية المركزية

الفصل الرابع : النظم الإدارية المحلية

الفصل الخامس : الأوقاف

المبحث الأول : أوقاف الحرمين الشريفين

المبحث الثاني : أوقاف مؤسسة سبل الخيرات

المبحث الثالث : مؤسّسة أوقاف الجامع الأعظم بمدينة الجزائر.

المبحث الرابع : أوقاف الزوايا والأضرحة

